تاريخ الحضارة

تأليف

المسيو شارل سنيوبوس
أحد أساتذة كلية السوربون في باريس



تعريب

محمد كرد علي
منشئ المقتبس

ادارة مطبعة الظاهر بالقاهره

جملة للمعرب

بسم الله وبه ثقتي

هذا هو الجزء الاول من تاريخ الحضارة لمؤلفه العلامة المسيو شارل سينيوبوس احد اساتذة كلية السوربون بباريز شرح فيه الحضارة التي أحرزتها كل امة من الامم منذ عرف التاريخ الى يومنا هذا . وفي هذا الجزء كلام موجز على الشعوب الشرقية القديمة كالمصريين والفينيقيين والبابليين والاشوريين والفرس واليهود وكلام مطول على مدنية اليونان والرومان تصفح المؤلف مئات من الكتب حتى كتب كتابه فجاء زبدة الزبدة وتوخى الايجاز والسهولة في معظم مصنفه وبالغ في حسن تنسيقه وتجويد اسلوبه فرأيت ان انقله من الافرنسية الى العربية ليعم نفعه ابناءها ويجنى في هذا الشرق كما جني في الغرب فالله اسأل ان ينفع به ويمن بالتوفيق لتعريب الجزئين الآخرين من الكتاب وهو ولي الهداية

القاهرة في ٢٤ شعبان سنة ١٣٢٦ و ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٠٨

علم خصوصيات الشعوب — يعمر الارض ناس قلما يتشابهون ، يختلفون بالطول وهيئة الاعضاءِ والرأس وسيماءِ الوجه ولون العيون والشعور ويتباينون باللغات والذكاء والاحساس . وبهذا التمايز ينقسم سكان المعمور الى عدة أقوام تدعى أجناساً . فالجنس مجموع ناس يتماثلون ويباينون جنساً آخر وما يمتاز به جنس عن غيره من العلامات العامة ويسمى طبائع وأخلاقاً هو الذي يتألف منه مجموع خواصه . فيعرف الجنس الزنجي مثلا بجلد أسود، وشعور مجعدة، واسنان بيضاء، وأنف أفطس، وشفاه خنس، وفك ضخم . ويدعى درس احوال الاجناس وما يتشعب عنها « ايتنوغرافيا » أي علم خصوصيات الشعوب . وهو علم لم يرتقِ بعد لحداثة وضعه ومابرح مشوشاً منتشراً لكثرة مجموع خواص البشر وصعوبة التمييز بينها احياناً .

الاجناس — أخص الاجناس الجنس الابيض وهو يسكن أوربا وشمالي إفريقية وغربي آسيا . والجنس الاصفر ينزل في آسيا الشرقية ومنه الصينيون والمغول والترك والمجر . ومن دخل اوربا منهم من الفاتحين فبشرته صفراء وعيونه خُزر مقطبة ووجناته ناتئة ولحيته خفيفة . والجنس الاسود يقطن أواسط إفريقية وهم الممتازون باديم اسود وأنف أفطس ووفرة كالصوف . والجنس الاحمر يستوطن أميركا ومنهم هنود تلك القارة حمر الاديم سبط الشعور

الشعوب المتحضرة — يُعدُّ أهل الجنس الابيض من المتحضرين الا قليلا أما سائر الاجناس فقد ظلوا على حالة الهمجية والبربرية كما كان الناس قبل زمن التاريخ . قامت الشعوب المتمدنة على تخوم قارتي آسيا وإفريقية فقام

المصريون في وادي النيل والكلدان في سهل الفرات . وكلهم أهل فلح وحرث ألفوا الاقامة وجنحوا للسلم . أديمهم مشبع، وشعرهم قصير أثيث، وشفاههم مبرطمة، ولا يعلم على التحقيق من أين منبعثهم . ولم تتفق آراء العلماء على تسميتهم فيدعونهم تارة كوشيين وأخرى شاميين . وقد انسالت من جبال آسيا بين القرن العشرين والخامس والعشرين ق . م عصابات من الرعاة أهل غارة وزعماء فتنة فانتشروا في أطراف أوربا كافة وفي غرب آسيا . ويقسمهم العلماءُ الى قسمين آريين وساميين .

الآريون والساميون — ليس بين هذين الجنسين من علامة خارجية جلية فكلاهما من الجنس الابيض : اهليلجية سحناتهم ، متناسبة أعضاؤهم، صافية جلودهم ، أثيثة شعورهم ، نُجل عيونهم ، رقيقة شفاههم ، منتصبة أرنبتهم ، وهم في الاصل رعاةٌ من سكان الجبال يألفون الارتحال والقتال . ساميهم من أرمينية ، وآريهم من وراء جبال حملايا، وهم يمتازون بالعقل واللسان خاصة امتيازهم بالديانة قديماً . وقد وقع الاتفاق على تسمية الشعوب التي تتكلم لغة آرية بالآريين وهم الهنود والفرس في آسيا . والروم والطليان والاسبان والجرمان والسكنداويون والسلافيون (الروس والبولونيون والصرب) والسلت (١) في أوربا . والساميّون هم الشعوب التي تتكلم لغة سامية وهم العرب واليهود والسوريون . ومما ينبغي ان يعلم ان بعض الشعوب تتكلم لغة آرية او سامية وليست من الآريين والساميين في شيء كان الزنجي قد يتكلم الانكليزية وليس فيه عرق من الانكليز . وربما عددنا كثيراً من الاوربيين في مصاف الآريين وليست اصولهم في الواقع الا من

---

(١) الانكليز والفرنسيس من السلتيين والجرمانيين

جنس غلب عليه الآريون فاقتبس لغاتهم على نحو ما اقتبس الفرس لغة العرب ايام غلبوهم على امرهم فهذان الاسمان الآريّ والسامي يطلقان اليوم على فريقين من الشعوب وليسا جنسين حقيقيين . ولا بأس ان يقال بناء على هذا المعنى ان الشعوب المرتقية كانت كلها سامية وآرية فنشأ من الساميين الفينيقيون رجال البحار واليهود رجال الدين والعرب رجال الحرب. فسار فريق من الآريين الى الهند وانصرف آخر الى اوربا فنشأت منهم تلك الامم التي كانت ولا تزال في مقدمة العالم . ولقد امتاز الهنود في القديم بآرائهم العالية الفلسفية او الدينية واليونان بايجاد الصنائع والعلم والفرس والرومان بتأسيسهم في الشرق والغرب مملكتين عظيمتين من اضخم الممالك التي نشأت في الايام الخالية

ويبدأ تاريخ الحضارة بالمصريين والكلدانيين حتى اذا كان القرن الخامس والعشرون للميلاد يصير عبارة عن تاريخ الشعوب الآرية والسامية

التاريخ

الاساطير — نقلت أساطير الاولين عن روايات متسلسلة طالما تحدث الناس بها قبل ان يدونوها لذلك تراها مشوبة بحكايات وخرافات . فتحدث اليونان ان أقدم أبطالهم أبادوا الغيلان وقاتلوا الجبابرة وكافحوا الآلهة وزعم الرومان ان روملس ربته ذئبة ورفع الى السماء وقص جماع الشعوب عن طفوليتهم اساطير من هذا القبيل لا ثقة بها عند التمحيص مهما قدم عهدها

التاريخ — يبدأ التاريخ حقيقة لدن وجود اخبار صحيحة دونها اهل ثقة ولو سماع . وليس هذا الدور واحداً في الكلام على الامم كلها فتاريخ مصر يبدأ قبل ثلاثة آلاف سنة ق . م وتاريخ اليونان يكاد لا يتعدى

الثمانمائة سنة ق . م وليس لالمانيا تاريخ يعرف الا في القرن الاول للميلاد ويعرف تاريخ روسيا منذ القرن العاشر وليس لبعض القبائل المتوحشة الى اليوم تاريخ في نشأتها

تقاسيم التاريخ الكبيرة — يبدأ تاريخ الحضارة باقدم شعب متمدن وينتهي بايامنا فمعنى القرون الماضية الدور العريق في القدم جداً ومعنى القرون الحديثة الدور الذي نحن فيه

التاريخ القديم — يبدأ التاريخ القديم بالامم القديمة المعروفة من المصريين والكلدانيين أي من نحو ثلاثة آلاف سنة ق . م ويعم شعوب الشرق من هنود وفرس وفينيقيين ويهود ويونان ورومان وينتهي حوالى القرن الخامس ب . م بسقوط المملكة الرومانية

التاريخ الحديث — يبدأ التاريخ الحديث باواخر القرن الخامس عشر زمان اختراع الطباعة واكتشاف اميركا وبلاد الهند ونهضة العلوم والصنائع ويلمّ بذكر شعوب الغرب خاصة من اسبان وطليان وفرنسيس والمان وروس وأميركان .

القرون الوسطى — هي عبارة عن عشرة قرون مضت بين القرون القديمة والحديثة فلا هي قديمة لما اعتور الحضارة القديمة من الاضمحلال ولا هي حديثة لان التمدن الحديث لم يتكون بعد . وهذا مايدعى بالجيل المتوسط .

مصادر تاريخ الحضارة القديمة — ليس في الوجود اليوم اشوريون ولا يونان ولا رومان فقد بادت الشعوب القديمة كافة وما خلّوه من العاديات هي فهرست نستنتجه للبحث عن اديانهم وأخلاقهم وصنائعهم . والعاديات هي الكتب والرسوم والآثار واللغات . هذه عدتنا في دراسة الحضارة

القديمة وهي تدعى مصادر لانا نستقي منها معلوماتنا . والتاريخ القديم يتفرع من هذه الاصول .

الكتب — وضع القدماء الكتب أيام عرفوا الكتابة فكان لبعضهم مثل الفرس واليهود والهنود كتب مقدسة وخلف الرومان واليونان تواريخ وقصائد وخطباً ومقالات فلسفية . وقلما نجد في الكتب المواد اللازمة لمباحثنا اذ ليس لدينا كتاب اشوري ولا فينيقي أما ما بقي من أسفار الشعوب الأُخرى فتافه جداً . ولقد كان القدماء يكتبون ولكن أقل منا ولذلك كانت تآليفهم اندر ولم يكن لهم من كل مصنف إلا نسخ قليلة لما ان الحال كانت تقضي باستنساخها كلها باليد وقد دثر غالب هذه النسخ أو ضاع أو تعذرت قراءة ما بقي منه ويسمى علم حلها «باليوغرافيا» أي علم الخطوط والكتابات القديمة .

المعاهد — أقامت الشعوب القديمة لانفسها معاهد مثلنا من مثل معابد لاربابها وقصور لملوكها وقبور لموتاها وقلاع وجسور وقنوات وأقواس نصر . ولقد تهدم كثير من هذه المعاهد واستؤصل وتجزأ بيد العدو أو بيد سكان البلاد ومنها مالم تقو الغير على تقويض دعائمه وما فتئت ماثلة للعيان متداعية مثل القصور العتيقة لانقطاع الايدي عن تعهدها . وقد بقيت بقية يعلم منها ما كانت عليه سالفاً . وما زال بعض هذه المعاهد فوق التراب كالاهرام في مصر ومعابد ثيبة وجزيرة فيلا وقصور البرسبوليس في فارس والبارتينون في اليونان والكوليزة في رومية والبيت المربع وجسر الحرس في فرنسا . وان السائح لعهدنا لينظر الى هذه الآثار نظره لأثر حديث . وقد ردم أغلب هذه المعاهد على التدريج بتراب أو رمل أو فتات أرضية وانقاض فينبغي

تخليصها من هـذا الـاف الـكثيف أو حفر أرضها وكثيراً ماتكون عمقة للغاية. ولم يعثر على القصور الاشورية الا بخرق آكام وتلال . وقد حفرت حفرة عمقها اثنا عشر متراً للوصول الى قبور ملوك ميسينا

وبعد فان عفاء هذه الخرائب لم يكن بصنع الدهر وحده فللبشر اليد الطولى في ذلك . ولم يكن القدماء ليتعبون مثلنا في التقدير والقياس لاقامة البناء . وما عنوا بنزع الردم من أماكنه بل كانوا يركمون الانقاض ويبنون عليها ولا ينزعونها حتى اذا أشرف البناء الجديد على السقوط تنضم انقاضه الى اطلال اخواتها القديمة وهكذا تتألف طبقات عديدة من الانقاض. وقد جاز أحد السياح المدعو شيلمان بحفرة في مكان مدينة ترواده خمس طبقات من الاطلال اذ كان ثمت خمس مدن خربة كلها واعتقها على عمق خمسة عشر متراً . وما برحوا يعثرون في رومية في الاحايين على ثلاث بنايات منضدة بعضها فوق بعض وقد تراكمت عليها الاطلال فعلا التراب في سفح التلال بضعة أمتار

بقيت مدينة برمتها لم تمسسها طوارق الحدثان وذلك بحادث طبيعي جرى عام ٧٩ للمسيح وهو ان بركان فيزوف في ايطاليا قذف سيلاً من الحمم مائعة أمطرت رماداً فانكشفت للحال مدينتان رومانيتان كانتا مدفونتين وهما هيركولانوم وبومبيه. كانت الاولى تحت الحمم السائلة والثانية تحت الرماد . وقد أحرقت الحمم المتاع وغشاها الرماد وحفظها من الهواء فبقيت سالمة . وكلما أزيح الرماد تظهر مدينة بومبيه للاعين على نحو ما كانت عليه منذ ثمانية عشر قرناً . وانك لترى في بلاطها بعد مجرات العجلات وآثار سير المركبات وصوراً خُطت بالنحم في الحيطان ونقشاً وأثاثاً وماعوناً

وخبزاً وجوزاً وزيتوناً في الدور والمساكن وهيا كل عظام من دهمتهم الكارثة مبعثرة مبددة . وبهذا عرف القارئ ان الآثار والمعاهد تفيدنا كثيراً في الوقوف على حالة الشعوب القديمة . ويدعى علم الازمنة القديمة «أركيولوجيا»

٢ الرسوم — نعني بالرسوم كل مايشمل الخطوط عدا الكتب فمعظم الرسوم زبرت على الحجر وحفر بعضها في صفائح من القلزّ ووجد منها في مدينة بومبيه مازبر على الجدران بالاصباغ أو بالفحم . وان بعض هذه الرسوم لتمثل تذكارات وقائع أو رجال كما هو جار الآن عند الافرنج فيما يقيمونه من تماثيلهم وبناياتهم . هكذا نرى الامبراطور اغسطس دوّن حياته على معهد انسير ومعظم هذه الرسوم عبارة عن كتابات زبرت على القبور وعائل بعضها الاعلانات لعهدنا فتحتوي على قانون أو نظام تراد إذاعته بين القوم . ويدعى علم الرسوم «ابيكرافيا» ٢

اللغات — تفيد اللغات التي نطقت بها الشعوب القديمة في بيان تاريخهم فاذا فهم الباحث كلمات من لغتين مختلفتين ينجلي له أحياناً أن أصل هذين اللسانين واحد ويسجل بان الشعوب التي تتكلم بها خرجت من نبعة واحدة . ويدعى علم اللغات « لينكستيك »

النواقص — لايذهبن ذاهب الى ان الكتب والمعاهد والاطلال واللغات تكفي للاحاطة بتاريخ القرون السالفة فان فيها تفاصيل جمة يمكن الاستغناء عنها وما ترغب نفوس الباحثين في استبطان حقيقته قد يعزّ عليها ويفر منها . وما برح العلماء يحفرون ويحلون ويظفرون كل يوم باطلال ومعاهد لم تعرف من قبل وقد بقيت مع هذا نواقص وسيبقى كذلك أبد الدهر

مصر

بلادها ـ مصر عبارة عن وادي النيل وهي في مضطرب ضيق خصيب ممتدٌ على ضفتي النهر بين سلسلتين من الصخور طولها ٢٤٠ فرسخاً ويكاد عرضها لا يتجاوز خمسة فراسخ وعند منقطع الصخور تبدأ الدلتا . وهناك سهل واسع تتخلله شعب النيل وترعه . فمصر كما قال هيردوتس أبو التاريخ هبة من النيل .

النيل ـ يزخر النيل كل سنة في الانقلاب الصيفي بعصارات ثلوج بلاد الحبشة فيفيض على أراضي مصر العطشى يرتفع ثمانية أمتار واحياناً عشرة فتصبح البلاد كالبحيرة وتبرز القرى المشيدة على الآكام كأنها جزيرات ثم تنخفض المياه في أيلول (ستمبر) ويعود النهر في كانون الاول (دسمبر) الى مجراه الاصلي وقد ترك في كل مكان طبقة من الطين خصبة وهي الابلز وتسمى الطمي . هذه الرواسب تقوم مقام السماد ويكاد يزرع في التربة الندية بدون حرث . فالنيل اذاً يأتي مصر بالماء والتربة واذا تحول عنها تعود مصر كالبلاد المحيطة بها قاعاً صفصفاً ، ورمالاً مجدبة ، ما امطرتها السماء وابلاولا رذاذاً . ولم يجهل المصريون فيما مضى ما يجود به نيلهم من الخيرات الحسان وهاك نشيداً كانوا ينشدونه تعظيماً له : « سلام عليك أيها النيل أنت الذي تتجلى على هذه الارض وتأتي بسلام فتحيي موات مصر . أنت اذا انجليت تملأ الارض طرباً ، والقلوب بشراً ، فينال كل مخلوق قوته ، وكل سن ماتقضمه ، رحمتك انك تأتي بالارزاق الطيبة وتنتج كل خير ومير وتنبت للبهائم مرعاها

غنى هذه البلاد — مصر على التحقيق واحة في قفر إفريقية تنبت تربتها البر والفول والعدس وأنواع البقل . والنخيل فيها غابات وآجام . وفي تلك المروج التي يرويها النيل بمائه ترعى قطعان الغنم والثيران والعنز والاوز وتكاد مساحتها تساوي بلاد البلجيك (٢٩٤٠٠ كيلو متر مربع) ومصر اليوم تقوم بأود ١١ مليوناً (١) من السكان وهي نسبة لا تعهد في أوربا على ان مصر كانت آهلة بالسكان قديماً أكثر منها اليوم

روايات هيرودتس — عرف اليونان مصر أحسن من معرفتهم سائر الممالك الشرقية فزارها هيرودتس أبو التاريخ في القرن الخامس ق . م ووصف في تاريخه فيضان النيل واخلاق السكان وازياءهم ودينهم وذكر حوادث من تاريخهم وحكايات لقنها من أدلائه . وتكلم ديودور وسترابون على مصر أيضاً . بيد ان كل من ذكروها رأوها في انحطاط فلم يتيسر لهم ان يعرفوا شيئاً عن قدماء المصريين .

شامبوليون — دعت حملة الفرنسيس على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) الى فتح أبواب الديار المصرية للعلماء فهرعوا اليها يزورون الاهرام وخرائب نبية عن أمم ويعودون منها وقد حفل وطابهم بالصور والآثار . ولم يكن لاحد ان يحل الخط المصري المسمى بالهيروغليفي . وتوهم الناس ان كل خط من هذه الكتابة يقوم مقام كلمة حتى اذا كان عام ١٨٢١ خالفهم شامبوليون احد علماء الفرنسيس وعمد الى طريقة أخرى وجاء أحد الضباط من رشيد بأثر ذي خطوط ثلاثة كانت الخطوط الهيروغليفية المسطورة بها مترجمة الى الرومية . وهذا الأثر يمثل الملك بطليموس محاطاً بدائرة . فتوصل

(١) في الاصل زهاء خمسة ملايين نسمة ونصف مليون

شامبوليون بهـذا الاسم الى الاطلاع على حروف PTOLMIS ولدى مقابلتها باسماء مـلوك أخر وكانت ايضاً محاطة بدائرة اكتشف حروف الهجاء . ولما تيسرت له قراءة الخطوط الهيروغليفية ظهر له انها كتبت بلغة تشبه القبطيـة وهي اللغة التي شاعت بمصر على عهد الرومان وعرفت حق معرفتها .

علماء الآثار المصرية ـ جاء بعد شامبوليون زمرة من العلماء توفروا على دراسة أحوال مصر واكتشاف جليها وخفيها وتدعى هذه الفئة من العلماء اجبتولوك أي المشتغلون بالآثار المصرية ولهم رصفاء في ممالك أوربا كافة . وقد أجرى ماريت (١٨٢١ ـ ١٨٨١) من المشتغلين بالآثار المصرية على نفقة خديوي مصر مايقتضي من الحفريات وأحدث متحف بولاق . وانشأت فرنسا في القاهرة مدرسـة لتعليم الآثار المصرية ناطت ادارتها بالمسيو ماسبرو .

الاكتشافات الحديثة ـ لايعثر في بلد من بلدان الارض على خبايا ثمينة كخبايا مصر ودفائنها لان المصريين كانوا يبنون قبورهم أشـبه بدور يضعون فيها مايقتضي للميت من ضروب الامتعة والاثاث والرياش والسلاح والطعام وقد غصت البـلاد بالقبور الطافحة بهـذه الذخائر والاعلاق . وساعد اقليم مصر الجاف الهواء على حفظ هـذه الامتعة سالمة بعد مضي اربعة او خمسـة آلاف سنة . فلم يترك شعب من الشـعوب القديمة أثراً كآثار قدماء المصريين وما عرفنا شعباً معرفتناله .

المملكة المصرية

قدم الشعب المصري ـ قال كاهن مصري لهيرودتس : انتم معاشر اليونان اطفال . كلام يفهم منه ان المصريين كانوا يرون انفسهم أقدم أمم العالم فقد قامت ست وعشرون سلالة ملكية الى عهد الفتح الفارسي سنة ٥٢٠ ق . م ترتقي أولاها الى أربعة آلاف سنة . وكانت مصر دولة في خلال هذه الاربعين قرناً فجعلت منفيس في بلاد الصعيد عاصمتها اولا الى عهد السلالة العاشرة (وهو دور الدولة القديمة) ثم صارت مدينة ثيبة في مصر العليا (وهو دور الدولة الحديثة)

منفيس والاهرام ـ بنى مدينة منفيس أول من ملك مصر وسورها بسور منيع فبقيت سالمة من بوائق الايام زهاء خمسة آلاف سنة ثم أخذ السكان أحجار انقاضها في القرن الثالث عشر وبنوا بها مساكن القاهرة وما تركوه منها أتى عليه النيل وسدل دونه حجاباً. أما الأهرام فلا تبعد كثيراً عن منفيس ويرد عهدها أيضاً الى الدور القديم وهي قبور ثلاثة ملوك من السلالة الرابعة وعلو اعظمها ١٤٧ متراً عمل في بنائه مئة الف عامل مدة ثلاثين سنة . وقد اقيمت سدود منحدرة قليلا لرفع الاحجار الى شاهق ثم خربت

التمدن المصري ـ يدل ما يستخرج من قبور تلك الاعصر من هيا كل وصور وأدوات على أن هناك شعباً متمدنا . فقد عرف المصريون قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة للميلاد حراثة الارض ونسج الثياب وتطريق المعادن والنقش والرسم والخط وكانت لهم ديانة منظمة وملك وادارة . على حين كانت الامم النبيهة وهم الهنود والفرس واليهود واليونان والرومان في

حالةمن الهمجية مأثورة مذكورة ٠

ثيبة ـ خلفت ثيبة مدينة منفيس فصارت عاصمة البلاد على عهد السلالة الحادية عشرة ولم تزل خرائبها المدهشة في لوح الوجود وهي ممتدة على ضفتي النيل ومحيطها نحو اثني عشر كيلو متراً ٠ وعلى الشاطيء الشمالي صف من القصور وهي لقصر والكرنك تبعد بعضها عن بعض نصف ساعة بنيت كلتاهما وسط الخرائب ويجمع بينهما شارع ذو صفين من تماثيل أبي ألهول وكان هناك قديماً أكثر من ألف أبي الهول ٠ وأعظم هذه المعابد الخربة معبد عمون في الكرنك أحيط به سور محيطه ٢٣٠٠ متر ٠ وان طول اشهر قصر (ايبوستيل) وأعظمه في العالم مئة ومتران وعمقه ٥٣ متراً وهو حجم عمود فاندوم ٠ وكانت ثيبة عاصمة ومدينة مقدسة ومقر الملوك ومسكن الكهنة نحو ألف وخمسمائة سنة

فرعون ـ يعتبر ملك مصر المعروف بفرعون ابن رب الشمس ومثاله على الارض ويزعمون انه كان هورباً ٠ وقد شوهدت صورة الملك رعمسيس الثاني جالساً بين ملكين ٠ فالملك يتعبد انساناً ويعبد ملكاً ٠ ولفرعون سلطة مطلقة على البشر لربوبيته فيحكم حكم المولى على كبار سادات تصره وعلى المقاتلة ورعاياه كافة والكهنة في عبادتهم إياه يلتفون من حوله ويحرسونه فيكون رئيسهم الكاهن الاعظم للرب عمون المستأثر بالحول والطول دونه وقد يحكم باسم الملك ويخلفه في الاحايين

الرعايا ـ يملك مصر من أعلاها الى أسفلها الملك والكهنة والجند والموالي وما عداهم فوصفاء يستخدمونهم في حرث الارض وعمال الملك يلاحظونهم ويقبضون ثمار عملهم بضرب العصي أحياناً واليك ما كتبه

أحد هؤلاء الموظفين الى صديق له : ألا تذكر حالة الفلاح الذي يحرث الارض فان جابي الاموال يقف على الرصيف المعد لجباية عشر الغلات وثلة من العمال بعصيهم يتبعونه وزنوج ماسكون بايديهم سعفات النخل يصرخون بصوت واحد : البدار البدار الى تسليم الحبوب . واذا لم يكن للفلاح ما يؤديه من الغلات يلقونه على الارض ويشدون وثاقه ويجرونه في الترعة رأسه الى تحت وقدماه الى فوق

كيفية حكم مصر — كان الشعب المصري أبداً ولم يزل بعدُ فرحا لا يهتم خاضعاً خانعاً أشبه بالطفل المستسلم الى ظالمه . وكانت المصافي هذه البلاد أداة التربية والحكومة حتى كان أعوان الملك يقولون : (خلق ظهر الفتى ليضرب فهو لا يمتثل الأمر الا اذا ضرب) ذكر أحد سياح الفرنسيس انه كان واقفاذات يوم أمام خرائب ثيبة فهتف قائلا : ليت شعري كيف بنوا كل هذا . فاستضحك دليله وقال ماسكا بيده مشيراً الى نخلة : « بهذه بنوا هذا اجمع » اعلم يا مولاي انه اذا كسرت مئة ألف سعفة من سعف النخل على ظهر من اكتافهم عربانة أبدا تبنى قصور كثيرة ومعابد

اعتزال المصريين — قلما خرج المصريون من بلادهم لما انهم حاذروا ركوب البحر ولذلك لم تكن لهم ملاحة وما اتجروا والشعوب الاخرى ولم تعرف لهم بحرية الا على عهد الدولة السادسة والعشرين وما كانوا أمة حربية قط . ولقد قاد ملوكهم الجند في حروبهم واتخذوا القتال ديدنهم فبعثوا البعوث الى زنوج الحبش تارة والى القبائل السورية أخرى فاذا غلبوا صوروا صورة النصرة على جدران قصورهم ومتى قفلوا راجعين من غزاتهم يأتون

بالاسارى فيستخدمونهم في بناء المعاهد على انهم ما حرزوا قط نصراً مؤزراً ولا فتحوا فتحاً مبيناً فدهم الاغيار مصر اكثر مما حمل المصريون على الاغيار

ديانة المصريين

يقول هيرودتس ان المصريين من أشد البشر تديناً ولا يعرف شعب بلغ في التقوى درجتهم فيها فان صورهم بجملتها تمثل ناساً يصلون أمام رب وكتبهم على الجملة أسفار عبادة وتنسك •

الارباب المصرية — رب الشمس رأس الارباب (الآلهة) عندهم وهو الخالق المحسن العليم الكائن منذ البدء له امرأة وابن عريقان مثله في الربوبية وكان المصريون يتعبدون بهذا التثليث الذي تختلف اسماؤه وان اتحدت مسمياته فكان اهل كل أقليم يسمي كلاً من هذه الاسماء الثلاثة باسم يختلف عن الآخر • في منفيس سمى الاب فتاح والام سيخت والابن ايموتس وفي أبيدوس سموها أوزيريس ، ايزيس ، وهوروس ، وفي ثيبة عمون ، وموت ، وشونس • ثم اختار أهل كل أقليم أرباب الاقاليم الأخرى وقد يشتقون من كل رب تثليث أرباب أخرى وهكذا تعدد الارباب وتشوش الدين

اوزريس — لهذه الارباب تاريخ وهو تاريخ الشمس فكان هذا الكوكب يتراءى للمصريين كما يتراءى لغالب الشعوب الاصلية انه أقدم المخلوقات وبعبارة أخرى أنه من الارباب فاوزيريس أي الشمس قتلها سيت رب الليل وايزيس القمر امرأته تبكيه وتدفنه وهوروس ابنه الشمس الساطعة يأخذ ثأره قاتلا قاتله

عمون را — هو رب ثيبة عندهم صور مجتازاً السماء كل يوم في قارب

وأرواح الموتى تقذف به بمجاذيف طويلة فالرب يقف في المقـدم مستعداً لضرب العدو برمحه . وهاك النشيد الذي كان يتغنى به تعظيماً له . «السلام عليك انت تهب محسناً انت تهب صادقاً يامولى الافقين انت تطوف السماء من عل وأعداؤك هالكون . السماء في أنس والارض في فرح والارباب والناس في عيد وكلها اجتمعت لتمجد « را » يشاهدونه في قاربه وقد كسر العدى . يارا هب فرعون حياة طيبة وامنحه ما يقوته من خبز ويرويه من ماء وطيب شعره وعطر اردانه . »

أرباب رأسها رأس حيوان — مثل المصريون أربابهم في صورة آدمية تارة وعلى مثال البهيمة أخرى . ولكل رب حيوانه فيتجسد فتاح في الجمل . وهوروس في الباشق . وازورس في الثور . وتختلط الصورتان طوراً في انسان رأسه رأس حيوان او في حيوان رأسه رأس انسان . وللرب عندهم أن يكون ذا أربع صور وأشكال فيكون هوروس مثلا باشقاً او انساناً برأس باشق أو باشق برأس انسان

حيوانات مقدسة — لا يعلم لماذا كان يعنى المصريون بهذه الاشارة من اتخاذ الحيوانات التي تشبه الارباب مقدسة مباركة مثل الثور والجمل وايبس (طائر طويل الرجل) والباشق والقط والتمساح فيتوفرون على إطعامهم وحمايتهم . فقد قتل أحد الرومانيين في القرن الاول قبل الميلاد قطاً في الاسكندرية فثار الشعب وقبض عليه فذبحوه رغم ارادة الملك وشفاعته فيه فعلوا ذلك على حين يرهب المصريون بأس الرومانيين كثيراً وكان المصريين رب يعبدونه في كل معبد وقد قص سترابون كيفية زيارته تمساحاً مقدساً في ثيبة فقال : كان هذ الحيوان رابضاً على شط غدير فاقترب منه الكهنة

وتقدم اثنان منهم ففتحا فمه وجاء ثالث وحشاه حلويات وسمكاً مشويا وشراباً من عسل مصفي

الثورابيس — اجل هذه الحيوانات المربوبة او المؤلهة الثورابيس فانه كان يمثل اوزيريس وفتاح معاً ويعيش في منفيس في مصلى له يخدمه الكهنة فيه حتى اذا مات هذا الثور يكون حاله حال اوزيريس (رب الشمس) فيحنط وتجعل مومياؤه في ناووس اما قبر أوسارهابي فهو من المعاهد الهائلة وقد فتح ماريت الفرنساوي مقبرة السرابيوم عام ١٨٥١

عبادة الموتى ـ عبد المصريون أيضاً أرواح الموتى ويظهر انهم كانوا يعتقدون أولا ان لكل انسان قريناً (كا) فاذا مات يخلفه قرينه في حياته وهو اعتقاد اعتقده كثير من الشعوب المتوحشة وكان القبر المصري يدعى قديماً « بيت القرين » وهو عبارة عن مكان منخفض منظم كالغرفة يزين من اجل القرين بضروب الآثار من كراسي ومناضد وسرر وصناديق وأصونة واغشية وأقمشة والبسة وادوات زينة واسلحة ويضعون تارة مركبة حربية وما شاء للذته من تماثيل وصور وكتب ولطعامه من بر وكل ما حلا بالعين وحلي بالفم ويضعون فيه طوراً قرين الميت وهو تمثال من خشب او حجر صنع على صورته ومثاله ثم يسور مدخل الناووس فيبقى فيه القرين ويعنى الاحياء بامره فيجلبون له طعاماً او يتوسلون الى أحد الارباب ان يرزقه طعاماً على نحو ما تراه في هذا الرسم المزبور على الحجر (قربان لازوريس ليعطي زاداً من خبز وشراب وثيران وأوز ولبن وخمر وجعة ولباس وعطور وكل ما طاب وصفا الى المتوفى فلان)

حشر الارواح — انشأ المصريون منذ السلالة الحادية عشرة يعتقدون

ان الروح تنفصل عن الجسد وتلحق باوزيريس تحت الارض حيث تغيب الشمس كل يوم فيما يظهر . هناك يتصدر اوزيريس في محكمته وقد أحاط به اربعة وعشرون محكماً فيؤتى بالروح امامهم فتحاسب عما قدمته بين يدي نجواها في الحياة فتوزن اعمالها بميزان الحق وتطلب شهادة القلب . فيهتف الميت قائلا . « ياقلب اني ورثتك عن أمي منذ درجت على الارض فلا تقم علي شاهداً تتجنى عليّ أمام الرب المتعال » فالنفس الشريرة تعذب قروناً ثم تهلك والنفس الطيبة تطير احقابا وبعد محن كثيرة تنضم الى زمرة الارباب وتفنى فيهم

الموميات — تستطيع الروح في خلال هذه الزيارة الدخول في الجسد لتستريح ولذا اقتضى ان يظل الجسد سليما . ومن اجل ذلك تعلم المصريون طريقة تحنيط الجثث فيملأون الجثة عنبراً ويغطسونها في مستحم من النطرون ويعصبونها بعصيبات فتصير مومياء . هكذا توضع المومياء في تابوت من خشب اوجبس وتودع في القبر مصحوبة بما يقتضي لها من ضروريات الحياة

كتاب الاموات — كان يوضع بجانب المومياء كتاب صغير اسمه كتاب الموتى يذكر فيه ما ينبغي للنفس أن تقوله في العالم الثاني دفاعاً عن نفسها امام محكمة أوزيريس وهو : « ما ارتكبت خيانة وما عذبت أيماً وما ارتكبت محرماً ولا ألفت البطالة ولا وشيت بالعبد الى مولاه ولا حبست الخبز عن المعابد ولا سرقت عصيبات الموتى ولا طعامهم ولا طففت مكاييل الحبوب ولا صدت الحيوانات المقدسة ولا قبضت الاسماك المقدسة . اطعمت الجوعان واسقيت العطشان وكسوت العريان وقدمت الضحايا

للارباب وصنعت الوضائم للموتى اهـ » وهنا تستبان حكمة المصريين وهي الاحتفاظ بالرسوم والتكاليف واحترام ما له علاقة بالارباب وان يكون المرء مخاصاً محتشماً محسناً

الصنائع

الصناعة — المصريون أول من مارس الصنائع التي تمس حاجة الشعب المتحضر اليها فكانت الصور في القبور من عهد العائلة الاولى أي من نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد تمثل ناساً يحرثون ويزرعون ويحصدون ويدرسون ويذرون الحبوب وقطعاناً من ثيران وخرافاً واوزاً وخنازير واعياناً حسنة ثيابهم واحتفالات واعياداً يحتفل فيها بضرب العيدان أي كما كانت حياة هذه الامة بعد ثلاثة آلاف سنة حذو القذة بالقذة . وقد عرف المصريون لذاك العهد صنع الذهب والفضة والقلز والاسلحة والحلي والزجاج والخزف والمينا ونسج الثياب من صوف وكتان وانسجة شفافة او موشاة بالذهب

تقود الابنية — كان المصريون اندر البنائين القدماء في العالم أقاموا المعاهد العظيمة حتى صارت كأنها خالدة بحيث لم يقو الزمن لعهدنا على تقويضها وتبديدها ولم يبنوا مثلنا بيوتاً لسكن الاحياء بل كانت مبانيهم خاصة بالارباب والموتى فيبنون لهذا الغرض المعابد والمقابر . ولم يبق من مساكنهم الارسوم محيلة أما قصور الملوك فلم تكن على قول اليونان غير خانات بالنسبة للقبور . ذلك لان المسكن يبنى ليأوي اليه الانسان في حياته والقبر يبقى خالداً على الدهر

القبور — أصل الهرم الكبير قبر ملوكي والقبور القديمة هي من هذا النوع . وترى في مصر السفلى الى اليوم اهراماً مصطفة كالشوارع أو

مبددة هنا وهناك تختلف في الكبر والصغر . ثم صارت تقام القبور تحت الارض يعمر بعضها تحت التراب وينحت الآخر من حجر الصوان « الكرانيت » في الجبال ولكل جبل قبور جديدة . وكانت مدينة الموتى أي مدافنهم على مقربة من مساكن الاحياء ولكنها ازهى وأوسع

المعابد — يتطلب الارباب كذلك مساكن طيبة خالدة وتتألف معابدهم من هيكل جميل وهو مأوى الرب تكتنفه القصور والحدائق وغرف الكهنة وحاشيتهم ودروج جواهرهم وأدواتهم وملابسهم وقد صنع مجموع هذه الابنية المسورة في عصور كثيرة . فاشترك ملوك من جماع السلائل المصرية في تشييد معبد عمون في ثيبة من السلالة الحادية عشرة الى السلالة الاخيرة ومن العادة ان يفتح في أول المعبد باب عظيم محني الجوانب وتقام على طرفيه مسلتان مبنيتان بشعاف الصخر مذهبة الاطراف أو تمثالان من الحجر على مثال جبار جالس . وقد يوصل الى المعبد من طريق طويل نصبت في جوانبه تماثيل ابي الهول مصنوعاً من الحجر على صفين . هذه الاهرام والمنحنيات والتماثيل وأبو الهول والمسلات تنبئ بما بلغه المصريون من العناية بعقود الابنية وكلها ثخينة قصيرة عميقة بحيث تبدو هذه المعاهد ضخمة لا يبليها الدهر ولا تفنيها الغير

صناعة النحت — حاكى النحاتون من المصريين الطبيعة بنقوشهم . وان الناظر ليدهش من أقدم التماثيل لما فيها من الحياة والبساطة ولا شك انها كانت صور الموتى . ومن هذا الجنس صورة ذاك العامل الجاثي المحفوظة في متحف اللوفر بفرنسا . وعلى عهد السلالة الحادية عشرة تقيد النحات بقاعدة مقررة دينية فلم يعد يمكنه تمثيل الجسم الانساني على حسب مايظهر

له وأخذت التماثيل منذ ذاك العهد تنشا كل وغدت السوق متآزية والارجل ملتفة والاذرع مشتبكة على الصدور والهيئة غير متحركه لكنها مهيبة وابداً ذات جلال ومتحدة في المنوال فانقطعت هذه الصناعة عن محاكاة الطبيعة وغدت رمزاً متفقاً عليه

الرسم — استعمل المصريون اصباغاً لا تنصل بتميت باهية زاهرة بعد مضي خمسة آلاف سنة عليها . على انهم لم يعرفوا غير تلوين الرسم وظلوا ولا خبرة لهم بتنويع الالوان ولا رسم الظلال والاشباح البعيدة . وكان للرسم كما للنقش قواعد دينية مطردة فاذا عرض على صانع ان يرسم خمسين شخصاً يصورهم على هندام واحد ونظام واحد .

الآداب ـ للمصريين آداب خاصة بهم فقد عثر في النواويس على كتب طب وسحر وزهد كما عثر على قصائد ورسائل ورحلات وروايات

مصير التمدن المصري — احتفظ المصريون بأربابهم ودينهم وصنائعهم الى ما بعد سقوط مملكتهم فخضعوا للفرس ثم لليونان ثم للرومان ولم يطرحوا شيئاً من عاداتهم القديمة ولا نسواخطهم ومومياءهم وحيواناتهم ثم دثر التمدن المصري ببطء بين القرن الثالث والثاني ب م

الاشوريون والبابليون

بلاد الكلدان

وصفها — ينبجس من قمم جبال أرمينية المغطاة بالثلوج نهران سريع جريهما بعيد غورهما وهما الرافدان دجلة والفرات الاول من الشرق والثاني من الغرب . يتقاربان أولا ثم يتباعدان عند بلوغهما السهل فيستقيم دجلة في جريته وينعطف الفرات في صحاري الرمال ثم يجتمع النهران قبل أن يصلا الى البحر . فالبلاد التي يجتازها هذان النهران هي بلاد الكلدان . وهي سبسب من صلصال تمطره السماء قليلا وتشتد فيه الحرارة والقيظ بيد أن الانهار تسقي بجداولها هذه الارض الصلصالية فتصيرها من أخصب بقاع الارض وانبت قيعانها . وان حبة القمح والشعير لتأتي مثتين وفي أعوام الرخاء ثلثمائة والنخيل في تلك البلاد غابات غبياء يستخرج منه الخمر والعسل والطحين

الامة الكلدانية — باكرت الحضارة بلاد الكلدان في العهد الذي باكرت فيه مصر فسكنتها شعوب متمدنة . وتدهاجر اليها عدد من الاجناس من أصقاع كثيرة فاجتمعوا وامتزجوا في هذه السهول الفسيحة الارجاء . جاءها من الشمال الشرقي ناس من التورانيين أهل اللون الاصفر وهم يشبهون الصينيين وأتاها من الشرق طائفة من الكوشيين ولونهم أسمر قاتم وهم أنسباء المصريين ونزل اليها من الشمال فئة من الساميين وألوانهم صافية وهم أقرباء العرب فتألف الشعب الكلداني من هذا المزيج

مدنها — زعم كهنة الكلدان ان ملوكهم تبسطوا في مناحي السلطة منذ مائة وخمسين الف عام وهو زعم خرافي يعذرون عليه لان الحامل لهم عليه توغل مملكة الكلدانيين في القدم . هذه الارض تتخللها هضاب وآكام

كلها كومة أنقاض من بقايا بلد عفته طوارق الدهر. وقد فتح كثير منها واخرجت منه عدة دفائن مثل «أور» و «لارسام» و «بال ايلو» وظفر الباحثون بعدة آثار. وما برح أمر هذه الشعوب مستوراً عن الانظار مجهولة حقيقتهم على أرباب الافكار على انه من المأمول أن يظفروا بكتابات جديدة في الاماكن الكثيرة التي لم تتناولها الايدي بالحفر واستخراج الدفائن. وبعد فقد دعت هذه الامم نفسها بالسوميريين والاكاديين وانقرض ملكهم حوالى سنة ٢٣٠٠ قبل المسيح وربما كانت اذ ذاك في إبان قدمها فيرد عهدها اذاً الى ثلاثين قرناً قبل الميلاد على الاقل

الاشوريون

أشور — هذه البلاد واقعة وراء بلاد الكلدان على شاطيء دجلة وهي مخصبة التربة قائمة على تلعات كثيرة فيها وأحادير. تخترقها هضاب وتتخللها صخور. تثلج فيها السماء في الشتاء لقربها من الجبال وتهب عليها الاعاصير في الصيف

أصولهم — زخر بحر العمران في بلاد الكلدان فكان فيها امصار عاش فيها الاشوريون خاملين في جبالهم وقد أغار ملوكهم بجيوشهم الجرارة في القرن الثالث عشر على السباسب والفدافد فاسسوا مملكة ضخمة عاصمتها نينوى

أساطير قديمة — لم نكد نعرف عن الاشوريين منذ أربعين سنة الا قصة ذكرها ديودورس الرومي من أهل جزيرة صقلية وقيل أن نينوس بنى مدينة نينوى وافتتح آسيا الصغرى جملة واستخضعت امرأته سميراميس بلاد مصر وكانت من الارباب فاستحالت بعد حمامة فخلفها ملوك خاملون

مدة ١٣٠٠ سنة . حوصر آخرهم في عاصمته واسمه ساردانابال فحرق نفسه ونساءه الى ما شاكل ذلك من الاقاصيص التي قل فيها الصدق واعوزت كلمة الحق

نينوى ـ هذا ماعرف عن مملكة اشور القديمة الى ان اكتشف المسيو بوتا قنصل فرنسا في الموصل سنة ١٨٤٢ اطلال قصر عظيم بالقرب من قرية خراساباد الحقيرة وقد غشيتها رمال صيرتها رابية . وهذه هي المرة الاولى التي شوهدت فيها الصناعة الاشورية بمظهرها ووجدت الثيران المجنحة بالاحجار سالمة مائلة على باب القصر . وقد جيء بها الى باريز فجعلت في متحف اللوفر . ولقد استلفت بوتا بحفرياته أنظار أوربا فانفذت بعثات كثيرة وخصوصاً الانكليز . توفر بالاس ولايارد على الحفر في آكام أخرى فاكتشفت قصور غير هذه . سلمت هذه الخرائب لجفاف الهواء في تلك الارجاء وبما غشيها من طبقات التراب . ثم انه عثر على جدران مغشاة بنقوش بارزة وصور وتماثيل وكتابات كثيرة فتسنى درس حال تلك العمارات في اماكنها وأخذت عنها صور المعاهد والنقوش . وأول ما اكتشف قصر خراساباد وهو الذي بناه الملك سراغون مكان نينوى عاصمة ملوك اشور وهي قائمة على عدة هضاب يحيط بها سور ذو ابراج مربع الاضلاع ذرعه ٢٦٠ غلوة (نحو ٤٣ كيلو متراً) وقد بني خارج الجدران بالقرمد وداخله تراب مهيل . أما دور المدينة فقد دثرت ولم يبق منها أثر ضئيل ولا رسم محيل . بيد انه ظهرت عدة قصور شادها غير واحد من ملوك اشور . وقد ظلت نينوى عاصمة الملوك الى ان اوغل الماديون والكلدانيون في احشاء مملكة اشور ومزقوها شذر مذر .

كتابات القرمد — يتألف كل حرف في الكتابات الاشورية من مجموع علامات على شكل سهم اوزاوية ولذلك دعي هذا الخط بالخط المسماري وكانوا يستعملونه خنجراً مثلث النصل في آخره حد مثلث الاضلاع لرسم هذه العلامات يبلونه في صحيفة من الخزف الرطب ثم يدخلونه التنور فيصير صلداً لا ينمحي أثره . وقد كشفت في قصر اسوربانيال مكتبة تامة من الصفائح قام فيها القرمد مقام الورق

الخط المسماري — غالى جملة من رجال العلم في حل هذا الخط أعواماً كثيرة فتعذرت عليهم قراءته اذ كان لاول عهده يستعمل في كتابة خمس لغات متباينة وهي الاشورية والسوسية والمادية والكلدانية والارمنية . دع عنك الفارسية القديمة . وكانت تلك اللغات مجهولة فدامت اللغة التي نتكلم عليها الآن مشوشة كل التشويش لاسباب عديدة أهمها تركبها من خطوط رمزية ينوب كل منها مناب كلمة مثل «شمس» «رب» «سمك» ومن خطوط ذات مقاطع . ولان لهذه اللغة مائتي خط ذي مقاطع ينشأ كل بعضها مع بعض ويسهل التباسها وإشكالها ولان الخط الواحد كثيراً ما ينوب عن كلمة وعن مقطع ولان الخط الواحد يقوم مقام مقاطع مختلفة بمعنى أن خطاً واحداً يقرأ «ايلو» تارة «وآن» طوراً وهو أصعب هذه الصور وأشكلها .

كان هذا الخط عسراً حتى على من يكتبونه . ونصف مالدينا من الآثار المسمارية هو كتب إرشادات من نحو ولغة وصور مما ساعد على حل النصف الآخر فتأتى الرجوع اليها في حل المشكلات على ما كان عليه شأن المتعلمين في مملكة أشور منذ ٢٥٠٠ سنة . وقد أفلح العلماء في حل الكتابات الاشورية

كما أفلحوا في حــل الكتابات المصرية . فكانت لهم كتابة مستطيلة في لغات ثلاث أشورية ومادية وفارسية ونفعت الفارسية في حل غيرها .

الشعب الاشوري — فطر الاشوريون على حب الصــيد والحرب وان نقوشهم لتمثلهم مدججين بالاقواس والرماح راكبين صهوات الخيول حيث ساغ أن يوصفوا بانهم كماة مجال وأبطال يحسنون الكر والفر . وان استوى في أعينهم رواحهم الى مناوشــة ومغداهم في حرب زبون . ولقد عرفوا بالخيانة وسفك الدماء فوطئوا آسيا ستة قرون وخرجوا من جبالهم يغيرون على جيرانهم . ولطالما آبوا من غزواتهم وقد أسروا شعوباً باجمعها والظاهر أنهم يناشبون غيرهم القتال لمحض حب السفك والتدمير والنهب فانهم أشد خلق الله بأساً وأقساهم قلوباً .

الملك — رأى الاشوريون لملكهم الخلافة عن الله في الارض جرياً على العادة الآسياوية فاطاعوه طاعة عمياء وبذلوا في حبــه مهجهم . فكان الملك عندهم سيداً مطلقاً في حكمــه رعاياه مهما اختلفت طبقاتهم يدعوهم الى حمل السلاح تحت لوائه فيقاتل بهم شعوب آسيا حتى اذا قفل منصوراً يصور مآثره على جدران قصره ذاكراً انتصاراته وما ناله من الغنائم وحرقه من المدن وذبحــه من الاسرى وسلخه من احيائهم

الحملات ـ اليك بعض فقرات من نشرات الحروب قال اسورنازيرهابال عام ٨٨٢ : انني عمرت جداراً امام ابواب المديـنـة العظمى وسلخت جلود زعمـاء الثورة وغطيت هذا الجدار بجلودهم وقد دفن بعضهم احياء في اساس البناء وصاب فريق آخر وجعلوا على أوتاد في الحائط وسلخت جلود

كثيرين في حضرتي وكسوت الحائط بها وجمعت رؤوسهم على هيئة التيجان وضممت جثثهم الى أشكال الاكاليل

وكتب توكلابالازار عام ٧٤٥ ما نصه : حبست الملك في عاصمته ورفعت كوماً من الجثث أمام الابواب . هدمت مدنها كلها ودمرتها وأحرقتها وأقفرت البلاد وصيرتها آكاماً وقاعاً صفصفاً ينعق فيها بوم الخراب . وقال سنحاريب في القرن السابع : « انطلقت كالعاصفة المدمرة فسبحت السروج والاسلحة في دماء الاعداء كأنها في نهر والتراب مبلل وجمعت جثث جندهم كما تجمع الغنائم وبترت أطرافهم وقضقضت عظام من أخذتهم أحياء على نحو ما تقصف التبنة وقطعت أيديهم عقاباً لهم بما جنت أيديهم » هذا وقد صورت في احدى النقوش التي تمثل مدينة سوس وهي ترد الى عهد اسوربانيبال وشوهدت فيها رؤوس المغلوبين يعذبهم الاشوريون وقد صلمت آذان بعضهم وسملت أعين آخرين ونتفت لحاهم . وهناك رجل يسلخ جلده وهو حي مما دل على ان أولئك الملوك كانوا يرتاحون الي ما يتم على أيديهم من الحرائق والمذابح والعذاب

خراب المملكة الاشورية — بدأت هذه الطريقة في الحكم في القرن الثالث عشر زمن الاستيلاء على بابل وذلك نحو عام ١٢٧٠ وظل الاشوريون منذ القرن التاسع يسرحون الحملات ويشنون الغارات حتى أخضعوا وان شئت فقل خربوا بلاد بابل وسورية وفلسطين ومصر وكان المغلوبون يثورون في غضون تلك المدة بلا انقطاع والمذابح قائمة على ساق وقدم . ثم ضعفت قوى الاشوريين واتحد البابليون والماديون فقلبوا عرش مملكتهم نينوى عاصمة بلادهم سنة ٦٢٥ وهي المدينة التي سماها أنبياء بني اسرائيل « عرين

الاسد » ومدينة الدم والغنيمة فتيسر الاستيلاء عليها وخربت فلم تقم لهـا قائمة بعد . قال النبي ناحوم (خربت نينوى فمن يشفق عليها ياترى؟)

البابليون

المملكة الكلدانية — قامت مملكة اشورية جديدة مكان بلاد الكلدان القديمة الدائرة دعيت مملكة البابليين او المملكة الكلدانية الثانية. وقد تكلم احد انبياء اسرائيل على لسان الرب فقال: « انا احيي الكلدان تلك الامة الظالمة وسرعان ماتطوف الارض للاستيلاء على مساكن غيرها وان خيولها لاخف سيراً من النمر وفرسانها لينتشرون في الاطراف ويطيرون كالنسر ينقض على قنيصته » وبالجملة فقد ألف الكلدانيون الفروسية والحرب والفتح وهم يماثلون الاشوريين كل المماثلة فاستولوا على بلاد الفرس والجزيرة وبلاد اليهود وسورية وكانت مدة حكمهم قصيرة فقد أنشئت المملكة البابلية سنة ٦٢٥ وابادها الفرس سنة ٥٣٨ ق . م .

بابل — كان بختنصر (٦٠٤ — ٥٦١) من اقدر ملوكها وهو الذي خرب بيت المقدس وساق اليهود أسرى واسس في بابل عاصمة بلاده كثيراً من المعابد والقصور . اقيمت هذه المعاهد بالآجر لقلة الحجر في سهل الفرات . ولما كتب عليها الدثور والعفاء لم يبق منها الا كوم من التراب والانقاض وقد عثر في المكان الذي كانت فيه بابل على بعض كتابات فعرفت هيئة المدينة . بيد ان هيرودتس اليوناني وصف مدينة بابل وصفاً مسهباً وكان زارها في القرن الخامس ق . م فاذا هي محاطة بسور مربع يشقه الفرات وكانت المدينة تشغل حيزاً من الارض مساحته ٥١٣ كيلومتراً مربعاً

(أي سبعة اضعاف مدينة باريز) ولم تكن كل هذه البقعة الفسيحة الارجاء عامرة بالدور والمساكن بل كان يتخللها حقول مزروعة تقوم باود السكان آونة الحصار . فكانت بابل من ثم اشبه بمعسكر حصين منها بمدينة . وفي جدرانها ابراج ولهامتة باب من النحاس الاصفر وكان سمكها صالحاً لمرور مركبة عليها وفي حيال السور خندق عريض عميق مليء ماء وسترت حافاته بالقرمد . وكانت دورها ذات ثلاث طبقات او اربع والشوارع وسطها زوايا قائمة . وما اعجب بناء جسر الفرات وارصفته والقصر الحصين والجنان المعلقة احدى عجائب الدنيا السبع . وهذه الجنان سطوح مغروسة بالاشجار قائمة على عمد وقباب مصفوفة طبقات الاولى بعد الثانية .

برج بابل - بنى بختنصر في طرف المدينة برج بابل وقال في احدى كتاباته «لقد جددت اعجوبة بورسيبا (من ضواحي بابل) ايمجب الناس منها وهو معبد السيارات السبع في الدنيا فاعدت تأسيسه على النحو الذي كان عليه في الازمان السالفة » . وهذا المعبد على شكل مربع مؤلف من سبعة ابراج بعضها على بعض وخص كل برج باحدى السيارات السبع وصور باللون الذي أختاره الدين لتلك السيارة . وهذه الالوان اذا بديء بها من أسفل فهي : زحل (سواد) والزهرة (بياض) والمشتري (ارجوان) وعطارد (ازرق) والمريخ (قرمزي) والقمر (فضي) والشمس (ذهبي) . وكان في أعلى الابراج مصلى ومنضدة من ذهب وفراش وثير تسكن اليه كاهنة .

اخلاقهم ودياناتهم

اخلاقهم — لانعرف هـذه الشعوب الا بمعاهدها ومعاهدها تكاد لاتتعدى اعمال ملوكها فلاترى الاشوريين أبداً الاوهم مصورون في حرب او في صيد او في احتفالات وما صور نساؤهم قط اذ كنّ حلس بيوتهن لايخرجن للناس . وعلى العكس في الكلدان فانهم كانوا أهل حراثة وتجارة ولكننا لانعرف شيئاً عن حياتهم . يقول هيرودتس ان هـذه الامة كانت تجمع البنات في مدنها مرة واحدة في العام لتزويجهن فيبيعون الجميلات منهن ويؤخذ ثمنهن ليعطى جهازاً الى مشوهات الخلقة . قال وعنـدي ان هذا القانون من احكم ماوضع من القوانين والشرائع .

دياناتهم — دين هاتين الامتين واحد فالاشوريون تمذهبوا بمذهب الكلدانيين وقد التبس علينا هذا الدين لانه نشأ كدين الشعب الكلداني من مزيج ديانات متباينة مشوشه كلها . فكان التورانيون يعتقدون على نحو ماتوهمه قبائل سبيريا الصفر ان العالم غاص بالشياطين (مثل الطاعون والحمى والاشباح والعفاريت) دأبها تربص البشر بالشر والاخذ بخنقهم ولذلك تراهم لايلجأون الى السحرة ليطردوا عنهم هاته الشياطين برقياتهـم . وكان الكوشيون يعبدون ربين ذوي اقنومين الذكر وكان القوة بزعمهم والانثى وهي المادة وكان الكهنة الكلدان وهم مجموع طوائف قوية من المنعة بحيث ساغ لهم ان يعنوا بتوحيد الدينين .

الارباب — الرب المتعال هو ايلوفي بابل واسورفي اشور وقلما يقيمون له معبداً ومنه يشتق ثلاثة ارباب وهم آنو رب الظلمة وصورته صورة رجل وذنب نسر معصب رأسه برأس سمكة . وبعل ملك الارواح مصور

كالملك على عرشه. ونواح وهو العالم المنظور هيئته هيئة جبار ذي اربعة اجنحة منتشرة . ولكل من هذه الارباب ربة انثى اشارة الى كثرة الاولاد والذراري . ثم ترد من اسفل صور القمر والشمس والسيارات الخمس والكواكب وفي هواء بلاد الكلدان الشفاف يضيء سناها اضاءة لم نعهدها فتتلألأ كالارباب . وقد اقام الكلدانيون معابدهم باسم هذه الارباب وما هي في الحقيقة الا مراصد يتمكن منها المتعبدمن مراقبة سير الافلاك .

علم التنجيم — ذهب الكهنة الى ان هذه الكواكب ارباب عظيمة تعمل عملها في حياة الانسان . فكل امرئ يولد في الدنيا في طالع كوكب من الكواكب فيتأتى التنبوء بسعده اذا علم الكوكب الذي ولد في طالعه . ومن هنا نشأ علم التنجيم والفأل فما يحدث في السماء علامة على ما سيحدث على الارض . فالنجمة المذنبة مثلاً تنبئ بحدوث ثورة . ويعتقد كهنة الكلدانيين انهم اذا رصدوا القبة الزرقاء وسياراتها يتنبأون بالحوادث وهذا أصل التنجيم .

علم السحر — للكلدان ضروب من الرقى والطلسمات يدمدمون بها لطرد الارواح أو استحضارها . وهذه العادة من بقايا ديانة التورانيين وهي أصل السحر . نشأ علم السحر والتنجيم في بلاد الكلدانيين وانتشر في أفق المملكة الرومانية ثم تعداها الى بلاد أوربا . عرف ذلك من تتبع القوانين السحرية في القرن السادس عشر وكان فيها اذ ذاك كلمات أشورية محرفة .

العلوم — نشأت علوم النجوم في بلاد الكلدان فنها عرفنا منطقة البروج وتألف الاسبوع من سبعة أيام اكراماً للسيارات السبع وتقسيم السنة الى اثني عشر شهراً واليوم الى أربعة وعشرين ساعة والساعة الي ستين

دقيقة والدقيقة الى ستين ثانية . وعنهم أخذنا طريقة الاوزان والمكاييل محسوبة على مقياس الطول مما ألف بالاستعمال عند الشعوب القديمة كافة

الصنائع

علم عقود الابنية — لا نعرف صنائع الكلدانيين حق معرفتها اذ قد سجل العفاء على معاهدهم . وقد حذا أهل الصنائع من الاشوريين ممن رأينا صنائعهم حذو الكلدانيين فصح الحكم على المملكتين جملة واحدة . كان الاشوريون يبنون كالكلدانيين بآجر مجفف بالشمس ويغشون ظواهر الابنية بالاحجار .

القصور — اقام الكلدانيون قصورهم على آكام صناعية جعلوها واطئة مسطحة تشبه سطوحاً كبيرة واقتضى جعل العلالي والغرف ضيقة واطئة واكتفي بتطويلها كثيراً لان الآجر لم يكن لينفع في بناء القباب المنبسطة العالية . فالقصر الاشوري يشبه سلسلة أروقة ودهاليز . والسقوف سطوح ممتدة ذات شرفات وفي الباب ثيران ضخمة مجنحة على هيئة الانسان . والجدران مغشاة من الداخل تارة بروافد من الخشب النفيس وطوراً من الآجر المزين بالمينا وأخرى بصفائح من الرخام الابيض المنقوش وآنات تزدان الغرف بالصور ويحلى الاثاث بالترصيع البديع

النقش — يعجب المرء من نقوش الصور الاشورية خاصة ومن المحقق ان التماثيل نادرة ولا اتقان فيها لان النحاتين يؤثرون نحت صفائح كبيرة من الرخام ونقوش ناتئة تشبه الصور ويرسمون مشاهد لانظام فيها احياناً وحروباً وصيوداً وحصارات مدن واحتفالات يخرج الملك بها في موكب حفل وهناك تتجلى التفاصيل الدقيقة . فترى بنات الخدام الموكلين بطعام

الملك وزمر العملة يبنون له بلاطه والحدائق والحقول والغدران والاسماك في الماء والطيور ترفرف على وكناتها أو تتطاير من شجرة الى أخرى . وترى صور الكبراء من جوانب وجوههم لان أهل الصناعة ما عرفوا تصويرها من الامام . ولكنك تقرأ في سحناتهم الحياة والشرف . وتظهر الحيوانات في الاحايين وخصوصاً في الرسوم البارزة في الصيد وفي العادة أن تنقل نقلا حقيقياً مدهشاً . وكان الاشوريون يتأملون الطبيعة ويرسمونها أصح رسم وبهذا تعرف قيمة صنائعهم حتى ان اليونان اقتدوا بمذهبهم في الصنائع بان قلدوا النقوش الاشورية ففاقوا مقلديهم وليس في الامم حتى ولا اليونان أنفسهم من أحسنوا تصوير الحيوانات كالاشوريين /

الفينيقيون

صور وقرطاجنة

وصفها — فينيقية من بقاع الارض الضيقة طولها خمسون فرسخاً وعرضها من ثمانية فراسخ الى عشرة وهي بين بحر سورية واعلى سلسلة في جبل لبنان . بل هي على التحقيق عبارة عن سلاسل أودية ضيقة ومجار حرجة متخللة بين هضاب وعرة ممتدة الى البحر ومسايل من الثلوج. تعبث بها العواصف الى آخر الربيع اما في الصيف فينضب ماؤها الا ما خزن منه في الآبار والصهاريج . ولقد كسيت جبال هذه الناحية بالاشجار فكان في القمم ارز لبنان المشهور وفي المنحدرات الصنوبر والسرو وفي السفوح اشجار النخيل بالغة شاطئ البحر وفي الاودية ينمو الزيتون والكرم والتين والرمان .

مدنها – تتألف عن بعد على طول الشاطيء الصخري رؤوس من البحر أو جزر منه تكون منها مرافئ طبيعية ففي هذه الموانى أقام الفينيقيون مدنهم. فقامت صور وارواد في جزيرة يزدحم فيها السكان في المنازل وكانت ذات طبقات ست وسبع وثمان . ويجلبون الماء لشفاههم في القوارب . أما مدينة جبيل وبيروت وصيدا فكانت في اليبس. ولم تكن أرض هذه البلاد لتقوم باود هذا العدد الدثر من الناس ولذلك مال الفينيقيون الى الملاحة والتجارة .

• الخرائب الفينيقية – لم يحفظ عن الفينيقيين كتاب فقد ضاعت حتى كتبهم المقدسة . ولقد جرى الحفر في مواضع مدنهم ولكن الخرائب على ما قال العالم المندوب الى ذلك لم تسلم إلا في البلاد المهملة المتروكة . على ان السوريين عنوا كثيراً بالخرائب فانتهكوا حرمة القبور واخذوا حلي الموتى وهدموا العمارات ليستعينوا باحجارها على البناء وحطموا النقوش وذلك لكراهة المسلم الصور المنحوتة بحيث لم يبق اليوم سوى شقيف من الرخام المحطم واحواض ومعاصر نحتت في الصخر وبضعة نواويس من الحجر . اطلال قلما تجدي نفعاً وتأتي العلم بفوائد . وليس ما عرف عن الفينيقيين إلا ما علمناه كتاب اليونان وانبياء اسرائيل .

حكومة الفينيقيين – لم تكن فينيقية مملكة قائمة برأسها بل كان لكل مدينة ناحية صغيرة تستقل بها ولها مجالس وملك تحكم نفسها بنفسها وتبعث بمندوبيها الى أعظم مدينة فينيقية لفض المصالح المشتركة وكانت صور محط رحال المندوبين منذ القرن الثالث عشر . واذ لم يكن الفينيقيون أمة حربية خضعوا لسطوة جماع الفاتحين من مصريين واشوريين وبابليين وفرس وادوا لهم الجزية عن يد وهم صاغرون .

صور - كانت هذه المدينة منذ القرن الثالث عشر من أهم المدن الفينيقية ضاقت على أهلها فاقيمت اذ ذاك مدينة جديدة قبالتها . ولقد أسس تجار صور مستعمرات في البحر الابيض كله يصيبون الفضة من مناجم اسبانيا وسلع العالم القديم أجمع . دعاهم أشعيا النبي الامراء ووصف حزقيال النبي تلك القوافل التي كانت تأتيهم من كل صوب وأوب وطلب سليمان النبي الى هيرام احد ملوك صور عملة يشغلهم في بناء القصر والمعبد في بيت المقدس .

قرطاجنة - كانت هذه المدينة مستعمرة صور ففاقت هذه بالعظمة وذلك ان الصوريين نبذتهم احدى الثورات فاسسوا مدينة قرطاجنة على شاطيء افريقية بالقرب من تونس بعثهم على ذلك امرأة اسمها ايليسار ونحن ندعوها ديدون (الفارة) ويحكى ان سكان البلاد ابوا ان يبيعوها إلا مسافة تكفي لتغطية جلد ثور ففصلت جلد الثور سيوراً رقيقة بحيث اقتضت مكاناً واسعاً يستوعبها فبنت القلعة اذ ذاك . ولقد اتسعت قرطاجنة لموقعها في منتصف البحر الرومي ولان فيها مرفأين فاقامت هي أيضاً مستعمرات وفتحت فتوحاً حتى آل امرها الى ان حكمت شاطيء افريقية باجمعه واسبانيا وسردينيا وكان لها في كل مكان مكاتب لتجارتها ورعايا يؤدون لها الجزية .

الجيش القرطاجني اقتضى لقرطاجنة ان تدرب لها جيشاً لتصون مكاتبها التجارية من حيف الوطنيين وترباً برعاياها عن الانتقاض . ومن ثم كانت حياة القرطاجني ثمينة لا يخاطر بها إلا عند الضرورة . آثرت قرطاجنة اكتراء الجند فجندت لها جنداً من البربر سكان بلادها ومن متشردي كل صقع وناحية فصارت صبغة جيشها مبرقشة ملونة يتكلم اللغات كلها ويدين بالاديان كافة . ولكل جندي بزته واسلحته الخاصة به تخالف بزة رصيفه

واساحته. فترى فيهم النوميديين يلبسون جلد الاسد يتخذونه وطاء كما يتخذونه غطاء يركبون خيلاً سريعة صغيرة بدون نظام ويطلقون القوس وخيولهم تعدو عدواً. كما كنت ترى فيهم الليبين وجلودهم سوداء مسلحين بحراب. وطائفة من الايبيريين في اسبانيا لباسهم بياض مزين بحمرة وسلاحهم سيف طويل محدد. وغاليين عراة الى الزنار يحملون تروساً كبيرة وسيفاً محدباً يمسكونه بكلتا يديهم. وجماعة من الباليارين مدربين من طفوليتهم على رمي الحجارة او كرات الرصاص بالمقاليع أما القواد فكانوا قرطاجنيين تخافهم الحكومة فتراقبهم عن أمم وربما صلبتهم اذا غلبوا ولم يحرزوا نصراً مؤزراً

القرطاجنيون - كان في قرطاجنة ملكان والامر والنهي لمجلس الشيوخ وهو مؤلف من أغنى تجار المدينة ولذلك كانت كل قضية ينهى بها الى الحكومة مسألة تجارية. كره الناس القرطاجنيين لقسوتهم وطمعهم وغدرهم ولما كان لهم أسطول منظم وعندهم مال يستأجرون به جنداً وحكومة باطشة تهيأ لهم توطيد دعائم ملكهم في غرب البحر المتوسط مدة ثلاثة قرون (من القرن السادس الى الثالث) بين ظهراني شعوب بربرية منشقة على نفسها مختلفة كلمتها

الديانة الفينيقية - للفينيقيين والقرطاجنيين دين يشبه الديانة الكلدانية فالرب الذكر ويسمى عندهم بعل هو الشمس والربة الانثى وتدعى بعلت هي القمر والشمس والقمر في نظر الفينيقيين قوى هائلة تحي وتميت. ولكل من المدائن الفينيقية ربان. فلصيدا بعل صيدون (الشمس) وعشتروت (القمر) ولقرطاجنة بعل عمون وتانيت ولجبيل بعل توز وباليت. ويختلف اسم الارباب في الاعتبارات ايجاداً وعدماً وهكذا يعبد بعل مثلاً في قرطاجنة باسم مولوش ويعتبر عدماً. وقد تنوب عن هذه الارباب أصنام ولها معابد ومذابح وكهنة

يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآدب والاعياد الحافلة باعتبار كونهم موجدين ويقدمون لهم ضحايا بشرية باعتبار كونهم مخربين وتعبد عشتروت ربة الصيد العظيمة في الغابات المقدسة ويصورونها على شكل هلال القمر والحمامة ويرسم بعل مولوش في قرطاجنة تمثالاً عظيماً من القلز باسطاً ذراعيه ومدليهما واذا ارادوا تسكين غضبه يرفعون على يديه اطفالا تسقط للحال في هاوية من نار .وقد قدم اعيان مدينة قرطاجنة مائتي طفل من اولادهم ضحايا للربة مولوش في خلال حصار اغاتوكل لقرطاجنة

هذا وان تلك الديانة على ما نشأت عليه من الشهوات وسفك الدماء لترهب الشعوب الاخرى ولكنهم يحاكونها ويأتمون بها فكان يذبح اليهود لبعل على الجبال ويعبد اليونان استارتيه وصيدون باسم افروديت وبعل ملخارت من صور تحت اسم هيراكليس

التجارة الفينيقية

اشغال الفينيقيين -- عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم في بقعة ضيقة من الارض ولم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين وكلدانيين واشوريين ولا قبائل الغرب البربرية (الاسبان والغاليين والطليان) عهد بركوب البحار وشق العباب والفينيقيون وحدهم جرأوا في تلك الايام على تجشم البحر فصح ان يدعوا من اجل هذا عملاء تجارة العالم القديم وقادة البيع والشراء يبتاعون من كل شعب سلعه ويتقايضون معه على غلات البلاد الاخرى تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق براً والغرب بحراً

القوافل -- اعتاد الفينيقيون ان يرسلوا في البر قوافل تتجه وجهات ثلاث حداها الى بلاد العرب لتأتي منها بالذهب والعقيق اليماني والبخور والصبر

وعطور بلاد العرب واللؤلوء والابازير والعاج والابنوس وريش النعام وقرود الهند. والقافلة الثانية ترحل الى بلاد اشور لتعود منها بانسجة القطن والكتان والخمر والاحجار الكريمة والماء المعطر وحرير الصين . وتقصد القافلة الثالثة انحاء البحر الاسود لتستجلب منها الخيل والرقيق والاواني النحاسية من مصنوعات سكان جبال قافقاسيا « القوقاز »

بحريتهم — بنى الفينيقيون بخشب ارز لبنان المتين قوارب باشرعة ومجاذيف حملوا عليها متاجرهم البحرية وما مست حاجتهم ان يكونوا ابداً على مقربة من الشواطئ في ركوبهم البحر اذ كانوا يتجهون حيثما ارادوا بجعل نجمة القطب قيد نواظرهم وكانوا يستدلون بها على الشمال . ولقد فطر الفينيقيون على الاستخفاف بركوب اليمّ فالفوا بانفسهم في مراكب صغيرة تغدو بهم وتروح في اطراف البحر الرومي بل جرأوا على اجتياز مضيق جبل طارق او كما دعاه القدماء « اعمدة هيركول » فيجتازون البحر المحيط الى شواطئ انكلترا وربما بلغوا بلاد النروج . سافرت عصابة منهم في خدمة احد ملوك مصر في القرن السابع وجازت البحر الرومي لتطوف حوالى افريقية ثم رجعت على ما قيل بعد ثلث سنين من البحر الاحمر وغادرت قرطاجنة حملة ضربت نحو شاطئ افريقية الى خليج غينة . وقد كتب القائد حانون قصة في هذه الرحلة

البضائع — كان الفينيقيون يبتاعون محاصيل صناعات الشعوب المتمدنة ويحثون في البلاد المتوحشة عما يقل الظفر به في المشرق من المحاصيل . يصطادون الصدف من شاطئ بلاد اليونان ومنه يستخرجون صباغاً احمر وهو الارجوان . وكانت الانسجة الارجوانية تستعمل عند الاقدمين كافة

ملابس للملوك والامراء ويجلبون الفضة التي يستخرجها أهل اسبانيا وسردينيا من مناجمهم وكان القصدير من ضرورياتهم يستعملونه في صنع النحاس الاصفر وهو مركب من نحاس وقصدير لا أثر له في بلاد الشرق ولذا كان الفينيقيون يرحلون في طلبه وينشدونه حتى في شواطئ انكلترا في جزائر القصدير المعروفة بجزائر كاسيتريد . وحيثما حلوا يتخذون الرقيق يبتاعونه تارة كما كان يبتاع النخاس العبيد في ساحل افريقية • اذ الشعوب القديمة كلها كانت تتجر بالرقيق • وينزلون طوراً في احدى السواحل فجأة فيختطفون النساء والاطفال وينقلبون بهم الى بلادهم او يبيعونهم في القاصية . واذا واتتهم الحال ينقلبون قرصاناً ولا يتحامون إطالة يد التعدي على الاغيار

سرّ اختص به الفينيقيون — لم يقاق الفينيقيون إلا من قيام تجارة الامم الاخرى الى منازعتهم السلطة على البحار ومجاراتهم في الملاحة والاتجار فمن ثم كانوا يكتمون الطريق التي يسلكونها لدن عودتهم من الاقطار النائية ولذا لم يعرف احد في القديم جهة جزائر الكاسيتريد المشهورة التي جلبوا منها القصدير . وقد رأت احدى المراكب بلاد اسبانيا التي كانت لها صلات تجارية مع فينيقية منذ قرون عرضاً بدون تمهل . وكانت قرطاجنة تغرق من تصادفهم من التجار الاجانب في سردينيا او في ناحية جبل طارق. حتى ان ربان احدى المراكب أغرق سفينته ذات يوم عند ما رأى سفينة غريبة تطارده مخافة ان تطلع على خطة سيره

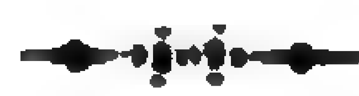
مستعمراتها — انشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في البلاد التي اتجروا فيها وهي مراكز للبرد حصينة واقعة على شاطئ بحر على مرفأ طبيعي يخرجون اليها بضائعهم وهي في العادة انسجة وفخار وحلي واصنام فيأتي أهل تلك البلاد

بغلاتهم فيقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الاوربيين زنوج افريقية . تقام أمثال هذه الاسواق في قبرص ومصر وجميع بلاد البحر الرومي التي كانت على همجيتها مثل اقريطش (كريت) وبلاد اليونان وصقلية وافريقية ومالطة وسردينيا وشواطئ اسبانيا (مالقة وقادس) وربما أقاموها في بلاد الغول (موناكو) وكان اهل البلاد يبنون اكواخهم حول بنايات الفينيقيين فيصبح السوق مدينة ويقتبس السكان ارباب الفينيقيين وقد دامت عبادة ربة على صورة الحمامة حتى بعد ان صارت المدينة يونانية كما في سيتير والرب ملخارت كما في كورنت ورب ذو جبهة ثور يفترس الضحايا البشرية كما في اقريطش

نفوذ الفينيقيين — لم يكن يخطر للفينيقيين شيء على بال لما أسسوا مكاتبهم التجارية إلا الاحتفاظ بمصلحتهم الخاصة ولكن حدث ان نفعت مستعمراتهم التمدن فان برابرة الغرب اخذوا عن أمم الشرق وكانت اكثر منها تمدناً كيفية صنع الإنسجة والحلي والماعون وتعلموا محاكاتها . مضى حين من الدهر واليونان لم يعرفوا غير الاواني والحلي والاصنام التي يأتيهم بها الفينيقيون وعلى منوال هذه البضائع نسجوا بعد فان الفينيقيين حملوا من مصر واشور الصناعة والبضائع معاً

الابجدية — حمل الفينيقيون ايضاً الى البلاد التي نزلوها ابجديتهم وحروف الهجاء ولم يخترعوا الخط اذ كان المصريون يعرفون الكتابة قبلهم بقرون وقد استعملوا حروفاً تدل كل منها على صوت كما هو الحال في حروف الافرنج . على ان خطهم كان مشوشاً بعلامات قديمة يدل بعضها على مقطع وآخر على كلمة برمتها . لا جرم انه اقتضى للفينيقيين اذ ذاك طريقة أبسط لكتابة

رسائلهم التجارية فاطرحوا العلامات كلها من مقاطع وصور ولم يبقوا سوى اثنين وعشرين حرفاً يدل كل منها على صوت او على لفظ باللسان فاقتبست الشعوب الاخرى هذه الابجدية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً. فقد كتب اليهود من اليمين الى الشمال كما كتب الفينيقيون وكتب غيرهم كاليونان من الشمال الى اليمين وكلهم بدلوا شكل الحروف إلا قليلاً . والخط الفينيقي على التحقيق أصل الابجديات كلها من يهودي وليسي ويوناني وايتاليكي واتروسكي وايبيرسكي وربما كان الخط النروجي ايضاً فالفينيقيون هم الذين علموا العالم الكتابة •



الاسرائيليون

العبرانيون

التوراة — جمع اليهود أسفارهم المقدسة باسرها في سفر واحد دعوه التوراة وهو اسم يوناني معناه الكتاب هذا هو سفر اليهود الجليل وقد صار لاهل النصرانية ايضاً كتاباً مقدساً •وفي التوراة ايضاً تاريخ الامة اليهودية ولقد استمدنا كل ما اتصل بنا عن الشعب المقدس من الكتب المقدسة

العبرانيون -- لما نزل الساميون من جبال ارمينية الى سهول الفرات أخذت احدى قبائلهم على عهد مملكة الكلدان الاولى تضرب نحو الغرب . فجازت الفرات فالقفر فسورية وبلغت بلاد الأردن وراء فينيقية وتعرف هذه القبائل بالعبرانيين يعني اهل ما وراء النهر وهم كمعظم الساميين شعب من الرعاة الرحالة لم يحرثوا الارض ولا سكنوا الدور والمنازل بل كانوا يتنقلون

من مكان الى آخر في ظعائن بقرهم وغنمهم وجمالهم منتجعين المراعي آوين الى الخيام على نحو ما يعيش العرب في البادية اليوم . وفي سفر التكوين وصف هذه العيشة البدوية

البطاركة — كان السبط منهم أسرة كبيرة مؤلفة من الرئيس ونسائه واولاده ومواليه وكان للرئيس على الجميع سلطة مطلقة فكان بهذا السبط اباً وكاهناً وقاضياً وملكاً . من اجل هذا دعونا هؤلاء الرؤساء البطاركة واعظمهم ابراهيم ويعقوب فالاول اب العبرانيين والآخر والد الاسرائيليين اظهرتهما التوراة في مظهر رجلين ارسلهما الله ليرأسا شعباً مقدساً وقد اعطى ابراهيم ربه ميثاقا ووعده الطاعة هو ومن يأتي بعده من قومه فبشر الله ابراهيم بذرية تفوق نجوم السماء عدداً واطمأنت نفس يعقوب بان تكون منه امة عظيمة وشعب جم

الاسرائيليون — سمي يعقوب باسم اسرائيل اي مدافع عن الله لرؤيا رآها ودعي سبطه بني أسرائيل او الاسرائيليون . وذكرت التوراة ان القحط حدا يعقوب ان يغادر بلاد الاردن ليسكن واهل بيته صغارهم وكبارهم على التخوم الشرقية من مصر وهي البلاد التي دعاه يوسف احد ابنائه الى هبوطها وقد صار وزيراً لعزيزها احد الفراعنة . وظلّ بنو اسرائيل في تلك الأرجاء قروناً كثيرة لجأوا وعددهم سبعون نسمة ونموا على قول التوراة حتى صار عددهم ستمائة الف رجل. خل عنك النساء والاولاد

نزول الوحي على موسى — افتتح عزيز مصر يسوم الاسرائيليين ضروب المظالم ويضطرهم الى صنع الملاط والقرمد لابتناء مدن حصينة فقام من بينهم اذ ذاك موسى احد ابنائهم وقد اوحى اليه ربه وعهد اليه ان ينقذهم من الجور

والسيف . وكان يرعى غنمه ذات يوم على الجبل فظهر له ملك وسط عليقة تتلظى ثم سمع هذه الكلمات : « انا رب ابراهيم واسحق ويعقوب رأيت مادهم شعبي في مصر من الحزن وسمعت شكواه ممن يظلمونه وعرفت ماينالة من العذاب ولذا نزلت لخلاصه مما ينتابه من المصريين لانزله بلاداً من ارض كنعان تفيض لبناً وعسلاً فتعال اذاً ارسلك الى فرعون تخلص شعبي ابناء اسرائيل وتخرج بهم من مصر » فقاد موسى الاسرائيليين . وهاجروا من مصر وهذا مايدعى بالخروج اوسفرالخروج واجتازوا بسفح جبل طورسيناء وهناك تلقوا شريعة الرب وأخذوا يتيهون جيلاً كاملاً في القفار جنوبي سورية

اسرائيل في القفر — وكثيراً ما كان الاسرائيليون يودون الرجوع الى البلاد التي تركوها فيقولون : « انا لنذكر ما كنا نطعمه في مصر من السمك والقثاء والبطيخ والكراث والبصل فخليق بنا أن تؤمر علينا زعيماً يقودنا الى بلادنا وكان موسى يدعوهم الى الطاعة ثم بلغوا الارض التي وعد الله بها ذراريهم

الارض الموعودة — دعيت أرض كنعان أو فلسطين فدعاها اليهود بلاد اسرائيل ثم دعيت بعد بلاد اليهودية ودعاها أهل النصرانية الارض المقدسة وهي بلاد جافة قاحلة في الصيف ولكن فيها جبال وآكام . وصفتها التوراة بما يلي : لقد ساقك ربك القيوم الى بلد طيب ذات أنهار وينابيع في الارض تنبجس من الوادي وعلى الجبل بلد البر والشعير والكرم والتين والرمان والزيتون والزيت والعسل بلاد تأكل فيها خبزك آمناً من القحط لا ترزأ في مال ولا ينقصك شيء من رفاهية الحال . وبلغ عدد الاسرائيليين بعد الاحصاء عندئذ ٦٠١٧٠٠ رجل يحمل السلاح منقسمين الى اثني عشر سبطاً عشر منها من نسل يعقوب واثنان من نسل يوسف هذا عدا عن اللاويين

أو الكهنة وعددهم ٢٣ الف رجل . وكانت تسكن البلاد التي نزلوها عدة شعوب صغيرة تدعى الكنعانيين فابادهم الاسرائيليون واستولوا على بلادهم

« ديانة الاسرائيليين »

الله الفرد — عبد سائر الشعوب القديمة اربابا كثيرة أما الاسرائيليون فاعتقدوا بوجود إلاهٍ منزه عن الهيولى برأ العالم ودبره . ففي سفر التكوين ان الله خلق في البدء السموات والارض . وقد خلق النبات والحيوان وخلق الانسان على صورته ومثاله فالبشر كلهم صنعة الله

شعب الله — بيد ان الله اختار من بين الناس جميعاً ابناء بني اسرائيل ليجعلهم شعبه وامته فدعا ابراهيم وقال له ساجعل بيني وبينك وبين ذريتك عهداً لاكون ربك ورب ذريتك من بعدك . وقد تمثل الله ليعقوب قائلا له : انا الله القادر اله آبائك فلا تحام نزول مصر فسأجعلك فيها امة عظيمة . ولما سال موسى ربه عن اسمه اجابه : تقول لابناء اسرائيل انني انا الله السرمد اله آبائك ابراهيم واسحق ويعقوب ارسلني ربي اليكم هذا هو اسمي على الدهر

العهد — فبين الاسرائيليين والمولى تعالى اذا اتحاد او عهد فالقيوم جل جلاله يحب الاسرائيليين ويدفع عنهم البوائق فهم والحالة هذه امة مقدسة « واعلى الشعوب كافة في نظره » وقد وعد ان يجعلهم سعداء اقوياء وتعهد الاسرائيليون ان يقابلوه على ذلك بان يعبدوه ويخدموه ويطيعوه فيما يريدهم عليه كما يطاع المشرع والقاضي والمعلم

الوصايا العشر — أوحى القيوم الصمد عز شأنه مشرع بني اسرائيل بوصاياه الى موسى على جبل طور سينا بين البرق والرعد وهي مسطورة في

لوحين وهما اللوحان اللذان كتب الله عليهما وصاياه العشر بما نصه : لا يكن لك آلهة اخرى امامي لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء من تحت الارض لا تسجد لهن ولا تعبدهن لاني انا الرب الهك إلهغيور افتقد ذنوب الآباءفي الابناءفي الجيل الثالث والرابع من مبغضي واصنع احساناًالى ألوف من محبي وحافظي وصاياي لاتنطق باسم الرب الهك باطلا لان الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا اذكر يوم السبت لتقدسه ستة ايام تعمل وتصنع جميع عملك واما اليوم السابع ففيه سبت للرب الهك لاتصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وامتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل ابوابك لان في ستة ايام صنع الرب السماء والارض والبحر وكل مافيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه اكرم اباك وامك لكي تطول ايامك على الارض التي يعطيك الرب الهك لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد على قريبك شهادة زور لا تشته بيت قريبك لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا امته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك

الشريعة — على الاسرائيليين ماخلاهذه الوصايا العشران يعملوا بكثير من الاوامر الالهية مما ذكر في اسفار التوراة الخمسة الاولى وهي التي تتألف منها شريعة اسرائيل . فالشريعة تنظم عندهم احتفالات العبادة وتعين الاعياد (السبت كل سبعة ايام والفصح ذكرى خروجهم من مصر وجمعة الحصاد وعيد المظال في موسم قطف العنب) والشريعة هي التي ترتب الزواج والاسرة والتملك والحكومة وتعين العقوبات على الجرائم وتحدد الاطعمة والادوية فالشريعة عندهم والامر على ماذكر مجلة الاحكام الدينية والسياسية والمدنية

والجزائية وللمولى الاسرائيليين تعالى أن ينظم أعمال حياتهم جميعها

(الديانة الفت الشعب اليهودي) لم يقبل الاسرائيليون بحكم الله قبول من خضع وخنع فقد قال موسى للاويين وهو على فراش الموت دافعاً اليهم كتاب الشريعة « خذوا هذا الكتاب ليكون شهادة عليكم يا اسرائيل لاني عارف بما أنتم عليه من شكاسة الخلق وقساوة القلب ولم تبرحوا طول حياتي تبدون نواجذ العصيان على المولى القيوم فليت شعري ماذا يكون من شأنكم بعد مماتي . وقد حدث أن مرت قرون ومن العبرانيين من يعبد الاصنام وربما كانت هذه الفئة هي السواد الاعظم من الامة على انهم أصبحوا أشبه بسائر الساميين في سورية وظل الاسرائيليون وحدهم على قدم الاخلاص للمولى جل شأنه فتألف منهم الشعب اليهودي وخرج الشعب المبارك بدين الله المتعال من قبيلة مجهولة على التدريج . نعم انها لامة قليلة الحصا والعدد ولكنها من الامم التي لها الشأن الاعظم في تاريخ العالم

« مملكة القدس »

القضاة — نزل العبرانيون أرض فلسطين ولكنهم ظلوا منشقين قروناً كثيرة . لم يكن لذلك العهد كما تقول التوراة ملك لاسرائيل بتة بل كل يعمل على شاكلته ويحكم بما يوحي اليه رأيه . وكثيراً ما كان الاسرائيليون ينسون ربهم ويعبدون أرباب القبائل المجاورة فاستشاط ربهم عندئذ غضباً من سيئات أعمالهم وأسلمهم الى أيدي أعدائهم يفعلون بهم الافاعيل حتى اذا ندموا على ما فرطوا في جنب الله وأصبحوا خاضعين خانعين يرسل ربهم اليهم قضاة يسعون في خلاصهم من أعدائهم المباغتين وربما مات القاضي وعاد دبيب الفساد يدب في نفوس الاسرائيليين فيسجدون لمعبودات أخرى . وكان

هؤلاء القضاة مثل جدعون ويفتاح وشمشون من الغزاة يحررون القبائل باسم القيوم الابدي ثم لا يلبث الشعب أن يعود الى عبادة الاوثان والتلطخ بحمأة العبودية

الملوك — سئم الاسرائيليون آخر الامر وطلبوا الى شمويل (سموأل) الكاهن العظيم أن يجعل لهم ملكاً فملك عليهم شاول على رغم ارادته وكان على هذا الملك أن يكون منفذاً خاضعاً لارادة الرب لكنه حاول الخروج عن الطاعة وشق عصا الجماعة فراح الكاهن العظيم يقول له : لقد نبذت كلام الله ظهرياً فسيبعدك ربك عن الحكومة وينزع السلطة من يدك . ثم ان داود وكان زعيماً جندياً خلفه وحمل على أعداء اسرائيل كافة واسترجع لهم جبل صهيون ونقل اليه عاصمته وهي القدس .

بيت المقدس — كانت القدس بالنسبة الى بابل ونينيه عاصمة بلاد فقيرة . وما كان العبرانيون يتعاطون البناء ويميلون الى العمران بل كانت ديانتهم تحظر عليهم اقامة المعابد وكان يقضى على مساكن الخاصة أن تشبه تلك المكعبات من الحجر التي لا تزال تشاهد الى اليوم في شواطيء لبنان وقد غشيتها الكروم والتين ولكن كانت القدس بلد اليهود المقدسة وكان فيها للملك قصر يسكنه ألا وهو قصر سليمان الذي دهش العبرانيون بعرشه المصنوع من العاج وهناك أقيم بيت الرب وهو أول معبد عبراني

المعبد — كان المعبد الذي أقيم على عهد سليمان كبيت القربان المقدس عند النصارى مقسوماً الى ثلاثة أقسام ففي داخله يقوم قديس القديسين حيث كان تابوت العهد ولم يكن يسمح لغير الكاهن العظيم أن يدخله مرة في السنة وفي وسطه المكان المقدس وكان فيه مذبح البخور ومسرجة ذات أغصان

سبعة ومائدة الخبز يدخل اليه الكهنة لحرق الغالية ووضع القرابين وفي المقدمة ساحة البيعة مفتحة أبوابها للناس تنذر فيها الضحايا على المذبح الكبير. وعليه فقد صار معبد القدس بعد واسطة عقد الامة يقصدونه من اقاصي فلسطين لحضور الاحتفالات وكان الكاهن الكبير الذي يرجع اليه أمر العبادة من أعاظم الرجال وربما كان في الاحايين اكبر سلطة من الملك

الانبياء

نكبات اسرائيل — ان سليمان آخر ملك عرف بالحول والطول وانفصل بعده عشرة اسباط ألفوا مملكة اسرائيل تلك المملكة التي عبد سكانها عجول الذهب وأرباب الفينيقيين ولم يخلص منها الدين لله وحده أو لملك بيت المقدس سوى سبطين ومنهما قامت مملكة يهوذا (٩٧٧) ولقد انتهكت قوى تينك المملكتين بما اضطرا الى دخوله من المعارك حتى اذا جاءتهما جيوش الفاتحين من الشرق خربت مملكة اسرائيل بايدي بختنصر ملك الكلدان (٥٨٦)

احساس الاسرائيليين - رأى المؤمنون من الاسرائيليين هذه المصائب عقوبة لهم وان الله عذب شعبه لخروجه عن طاعته على نحو ما جرى قديماً على عهد القضاة وأسلمه للفاتحين يمزقونه كل ممزق . وركب ابناء اسرائيل هواهم واجترحوا الآثام في جانب مولاهم فبنوا علالي وقصوراً في المدن كافة وحذوا حذو الامم المحيطة بهم فخالفوا بذلك أمر ربهم وما حرمه عليهم فصنعوا صوراً مسبوكة وسجدوا للكواكب وعبدوا الصنم بعل ولذا نبذ الله تعالى أصل اسرائيل وعاقبهم فجعلهم طعمة لمن يكتسح بلادهم ويسلب طارفهم وتلادهم

الانبياء — على ذاك العهد ظهر الانبياء وهم الياس وأرمياوأشيعيا وحزقيل وفي العادة أن يخرجوا من القفر بعد أن يقضوا زماناً في الصيام والصلاة

والاعتبار والتدبر يأتون باسم الله لا غزاة مثل القضاة بل منذرين ومبشرين يدعون الاسرائيليين الى الانابة وقلب الاصنام والتوبة الى باريء النسم وينذرونهم بالخطوب التي يبعثها الله عليهم بعد اذا لم ينيبوا اليه فكانوا من ثم يدعون ويتنبأون

التعليم الجديد — رأى هؤلاء الرجال المستمسكون بالامر الالهي أن العبادة الرسمية في القدس غثة باردة . وليت شعري لم يذبحون البقر ويحرقون البخور اجلالاً لله على نحو ما يفعل الوثنيون . يقول عيسو : « أصيخوا إليَّ باسماعكم وعوا ما يقوله تعالى : ما ذا أعمل بجموع قرابينكم فقد شبعت من ضحايا الغنم ومن دهن الحيوانات السمينة وماعاد يلذ لي دم الثيران ولا الخرفان ولا التيوس فكفوا إذاً عن أن تقدموا لي ضحايا هي من العبث فان نفسي عزفت عن استنشاق بخوركم ومتى ترفعون أيديكم أحول نظري عنكم لان أيديكم ملأى بالدم المهراق فقوموا وطهروا أنفسكم وارجعوا عن سيئات أعمالكم عودوا أنفسكم عمل الصالحات وخذوها بتوخي طريق الرشاد وحماية المظلومين واقسطوا اليتيم ودافعوا عن الايم وعند ما تصير خطاياكم كالقرمزي حمراء تبيض كالثلج » وبهذا رأيت ان الانبياء أرادوا الاستعاضة عن القيام بالنذور والضحايا بالعدل وصالح الاعمال

المسيح — استحق بنو اسرائيل ما دهمهم من المصائب ولكن لكل قصاص حد ينتهي اليه وغاية يقف عندها فقد قال عيسو باسم الحي القيوم أيها الشعب لا تخشى الاشوري أبداً فانه سينالك من عصاه مثل ما كان ينالك من المصري في الزمن الغابر ولكن ستفثأ سورة غضبي قريباً ويرفع عن كاهلك ذلك العبء الثقيل . وعليه فقد علم الانبياء الشعب اليهودي أن ينتظروا بعثة من يخلصهم وهيأوا السبل للمسيح

الشعب اليهودي

الرجوع الى بيت المقدس ــ جاء ابناء يهوذا من سهول الفرات ولم ينسوا وطنهم ولطالما حنقلوا به وتذكروه في اناشيدهم يقولون جلسنا على شاطئ انهر بابل وبكينا وقد ذكرنا صهيون . فعيداننا كانت معلقة في شجر الصفصاف على ضفة النهر وكان يقول لنا من تولانا : غنوا بعض النشيد من جبل صهيون وكيف انى لنا ان نغني نشيد الرب في ارض غريبة . وبعد سبعين سنة في العبودية اذن سيروس فاتح بلاد بابل ان يعودوا الى فلسطين فجددوا بناء البيت المقدس والمعبد وعادوا الى احياء الاعياد والاحتفاظ بالكتب المقدسة وجددوا العهد مع ربهم علامة على انهم عادوا الى طاعته وتابوا من اثمهم وهذا العهد عبارة عن ميثاق على الاصول كتبه اعيان الشعب ووقعوا عليه .

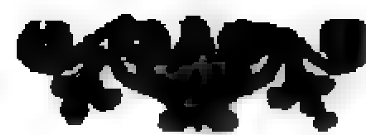
اليهود ــ دامت مملكة القدس الصغرى مدة سبعة قرون يحكمها الكهنة مرة وكاهن كبير اخرى وفي كثير من الاحيان كانت تؤدي الجزية الى ملوك ... جوارها الفرس اولا ثم المقدونيون ثم السوريون ثم الرومانيون . وقد ... اليهود ... كما ... رجوعهم ... مع ربهم ظلوا على عبادتهم الاولى من ... الاعياد وتقديم النذور في القدس وكان الكاهن الاكبر يحتفظ ... بطهارة ... والكتبة يتعلمون ... ويفسرونها للشعب وجمهور المؤمنين ... من واجباتهم ... وجليلة واشتهر الفريسيون خاصة بغيرتهم وتدقيقهم في تقيدهم بحروب الاعمال الصالحة

المدارس (الكنائس) ــ ومع هذا فقد كان اليهود يرحلون في التجارة وينتشرون خارج بلادهم في مصر وسوريا وآسيا الصغرى وايطاليا وكانت طائفة من اهل مذهبهم في المدن الكبرى جميعها كالاسكندرية ودمشق وانطاكية وافيس وكورنت ورومية وكانوا ابدا يجتمعون في صعيد واحد يحفظوا كيانهم ويجمعوا شملهم ... بين الوثنيين ولم يقيموا المعابد لان الشريعة كانت تحظر عليهم ذلك وليس لهم ان يبنوا سوى معبد يهودي واحد الا وهو معبد القدس حيث كان يحتفل بالاعياد وتقام المواسم والشعائر بيد انهم كانوا يجتمعون ليشرحوا كلام الله ويتلوه ودعيت هذه الاماكن باسم يوناني (الكنيس) ومعناه المجالس

خراب المعبد ــ ظهر المسيح في خلال تلك المدة فصلبه اليهود واضطهدوا حوارييه سواء كان في بلادهم او في المدن الكبرى التي حل فيها الجم الغفير منهم . ولقد شقت القدس عصا الطاعة عام ٧٠ على الرومانيين فاخذت عنوة وذبح سكانها كافة او بيعوا بيع الاماء والعبيد والقى الرومانيون النار في المعبد وقد حفل وطابه بالاعلاق المقدسة . ومن يومئذ لم يعهد اليهود بجمع شملهم

ما كتب على اليهود بعد تفرقهم ـ عاشت الامة اليهودية بعد خراب عاصمتها ولما تشتّت شملها تحت كل كوكبٍ في العالم انشأت تستغني عن المعبد وابقت كتبها المقدسة مكتوبة بالعبرية . والعبرية لغة بني اسرائيل الاصلية لم يتكلم بها اليهود منذ رجوعهم من بابل بل اقتبسوا لغات الشعوب المجاورة كالسريانية والكلدانية وخصوصاً اليونانية . على ان المتوسّرين في الدين من الربانيين ظلوا يعرفون العبرية وهم يشرحون التوراة و يفسرونها وهكذا حفظت الديانة اليهودية و بفضل اللغة العبرية ايضاً بقي الشعب اليهودي وكثر اشياع هذا الدين في الاغيار فكان في المملكة الرومانية اناس كثيرون ممن يدينون باليهودية وليسوا من العنصر اليهودي في شيء .

قويت شوكة الكنيسة المسيحية في القرن الرابع فطفقت تضطهد اليهود اضطهاداً دام الى يوم الناس هذا في البلاد المسيحية جمعاء . ومن العادة ان يتسامح مع اليهود في اجراء مراسيم دياناتهم لغناهم واستئثارهم بفروع الاعمال المالية ولكنهم يمنعونهم عن ممارسة الوظائف الادارية ولقد اكرهوا في معظم المدن ان يلبسوا ثياباً خاصة و ينزلوا في حي خاص مظلم وخيم و يبل وان يبعثوا احياناً باحدهم يصفع في عيد الفصح والناس يرمونهم بانهم يسممون الينابيع و يقتلون الاطفال و يدنسون القربان المقدس وربما يثورون بهم في الاحايين فيقتلونهم و يغنمون ما في دورهم و يسقيهم قضاة البلاد السمّ أو يعذبونهم او يحرقون لاقل حجة تافهة ولطالما نفتهم الحكومات زرافات من بلادها وصادرت اموالهم ولقد اجتث دابر اليهود من فرنسا واسبانيا وانكلترا وايطاليا ولم تبق منهم بقية الا في بلاد البرتغال والمانيا و بولونيا وفي البلاد الاسلامية ومن هذه الممالك رجعوا الى سائر قارة اوروبا منذ انتهت ايام اضطهاداتهم وكفّ الناس عن ارهاقهم واعناتهم



الفرس

دين زردشت

ايران — بين نهري دجلة والسند و بحر الخزر والخليج الفارسي صقع عظيم يعرف ببلاد ايران تبلغ مساحته خمسة اضعاف مساحة فرنسا او تزيد ولكن معظمه مجدب قاحل فهو يتألف من صحارى ورمال محرقة ومن انجاد باردة قارسة تشقها اودية عميقة شجراء وتحيط بها جبال شاهقة · واذ حيل بين الانهار وجريها فهي لا تسير الا ريثما تضيع في الرمال او في بحيرات مالحة · و يشتد هواء هذه البلاد و ينقلب فيكون حرًّا في الصيف وقرًّا في الشتاء وقد يجتاز من يهبط هذه البلاد من منطقة تبلغ درجة حرارتها نحو ٣٢ تحت الصفر الى منطقة حرارتها ٤٥ سنتغرادا يعني ان تلك البلاد جمعت الى بردسيبيريا حرارة السنيغال · وهناك تعصف الرياح الزعازع فتفعل في الاجسام فعل الحسام · بيد ان الاودية وضفاف الانهر مخصبة منبتة · وهذه البلاد هي ولا جرم مصدر الدراق وشجر الكرز ومستنبت الثمار والمراعي

الايرانيون — سكنت بلاد ايران قبائل من الآريين (١) (القاطنين ببلخ اي بكتريا وهي الوطن الاصلي للجنس الآري) كانوا كسائر ابناء هذه البلاد جنسا من الرعاة المسلمين المحاربين · ولقد كان الايرانيون يقاتلون على ظهور الخيل و يطلقون السهام و يلبسون البسة من الجلد يجعلونها وقاية على ابدانهم من هواء بلادهم الشديد ·

زردشت — عبد الايرانيون اولا ما عبده قدماء الآريين من قوى الطبيعة وخصوصا الشمس « ميترا » وقام بين اظهرهم حكيم اسمه زردشت (مه اباد وله كتب كثيرة منها ما له علاقة بالشريعة ثم ظهر زردشت واصلح هذا الدين) و يدعوه الافرنج زرواستر فاصلح ديانة الايرانيين بين القرن العاشر والسابع قبل الميلاد ولم يبلغنا من اخباره غير اسمه · الزاندافستا (الزندو بازندوافستا) — لم يبق شيء مكتوب يؤثر عن زردشت ولكن تعاليمه المؤلفة بعده بزمن طويل قد حفظت في الزاندافستا اي الشريعة والاصلاح وهو كتاب الفرس المقدس · وقد كتب هذا السفر بلغة قديمة لم يفهمها اتباع هذا المذهب انفسهم ودعوناها

---

(١) ما كان في هذا الفصل بين هلالين هو في الغالب من املاء العالم الدكتور مرزا مهدي خان زعيم الدولة ورئيس الحكماء صاحب جريدة حكمت الفارسية الغراء بمصر واليه رجعنا في تصحيح بعض الاعلام

اي الافرنج بازند » وكانت تنقسم على ماورد في اساطيرهم الى احدى وعشرين نسخة كتبت على اثني عشر الف جلد ثور ضمّ بعضها الى بعض باسلاك من الذهب وابادها المسلمون لما فتحوا بلاد فارس واحتفظت بعض اسرات ايرانية بتعاليم زردشت واخلصوا دينهم له فلجأوا الى بلاد الهند فحفظ فيها اخلافهم المدعوون بارسيس تلك الديانة القديمة. وقد وجد عندهم سفر تام من الزاندافستا وقطع من الكتابين الآخرين .

اورمزد « هرمز وهرمس » واهريمن « رمز الى العقل والنفس وعند العامة الهٓ الخير والشر »هذه ديانة زردشت على نحو ما ورد في تلك الكتب الا ان هرمز الذي يدعوه الافرنج اورمزد وهو الديان الذي لايخفى عليه شيء خلق العالم والقوم يصلون له بهذه الالفاظ: ادعو الخالق هرمز واحتفل بشعائره فانه النور والضياء عظيم رحيم كامل شهم ذكيّ جميل سام طاهر يعرف العلم الصحيح مصدر اللذة وهو الذي برأنا وصورنا واطعمنا » واذ كان على جانب من الصلاح لم يخلق الا ماهو كذلك وما يرى في العالم من شر فقد براْه رب الشر انكرامانيو اي روح العذاب وندعوه اهريمن (وديو اي شيطان)

الملائكة والشياطين ـ يقف اهريمن الشقي المخرب قبالة هرمز الباريء الحليم ولكل منهما طائفة من الارواح فجنود هرمز هم الملائكة المطهرون « يازاستا » وجنود اهريمن شياطين خبثاء (ديو) و يسكن الملائكة في الشرق في ضوء المشرق والشياطين في الغرب في ظلمات الشفق وكلا الجيشين لا يزالان في حرب دائمة والعالم ساحة قتالهما لان كليهما حاضر في كل مكان فيسعى هرمز وملائكته الى الاحتفاظ بالخلق واسعادهم وصلاحهم و يطوف اهريمن وشياطينه حولهم لاهلاكهم وسوء طالعهم وطلاحهم

خلائق هرمز واهريمن ـ كل حسنة في الارض هي من صنع هرمز وتستخدم للخير فالشمس والضياء اللذان يطردان الليل والكواكب والشراب المخمر الذي يتراءى كأنه ضوء سيال والماء المروي للانسان والحقول المزروعة التي تغذيه والاشجار التي يستظل بها والحيوانات الاهلية والكلب والطيور منها خصوصا ما يعيش منها في الضوء ولاسيما الديك لانه يبشر بالنهار هذه كلها براها هرمز. وعلى العكس ينبعث كل ما يفسر من اهريمن فيكون شراً مثل الليل والجفاف والبرد والقفر والنباتات السامة والشوك والحيوانات الكاسرة والافاعي والحلمات الطفيلية (كالبعوض والبراغيث والبق) والحشرات التي تعيش في الحجور المظلمة كالضبان والعقارب والضفادع والجرذان والنمل ـ وهكذا تنبعث الحياة والطهارة والحقيقة والعمل وكل ما حسن في عالم الاخلاق من هرمز. والموت والقذارة والكذب والكسل وكل ما خبث وساء ينبعث من اهريمن

العبادة ـ مصدر العبادة والاخلاق من هذا الاعتقاد فعلى المرء ان يعبد رب الخير (١) ويناضل عنه . يقول هيرودتس : ان من عادة الفرس ان لا يقيموا هيا كل ومعابد ومذابح للارباب و يعدُّ من أتى ذلك كافراً بالنعمة لان هذه الامة لا تعتقد اعتقاد اليونان من ان للارباب صورة على نحو صورة البشر . وان هرمزليبدو بهيئة النار او الشمس ولذا يحتفل الفرس بعباداتهم في الخلاء على الجبال امام موقد مشتعل فينشدون الاناشـيد تمجيداً لهرمز و يذبحون له الحيوانات (كذا) دليلا على عبادته

الاخلاق ـ ناضل الانسان عن هرمز محسناً لعمله مقبحاً لعمل اهريمن فيجاهد في الظلمات وهو يمد النار بالحطب الجاف والمطور و يجاهد في القفر بحرث الارض وابتناء البيوت ويجاهد حيوانات اهريمن بقتل الحيات والضباب والحلمات الطفيلية والحيوانات الكاسرة و يجاهد الدنس وذلك انه يتطهر و يدفع عنه كل ما مات وخصوصاً الاظافر والشعور وحيثما وجدت الشعور والاظافر المقصوصة فهناك يجتمع الشياطين والحيوانات القذرة . ويجاهد الكذب جارياً على قدم الصدق . قال هيرودتس ان الفرس يستقبحون الكذب وهو عندهم عار وسبة كما انهم يكرهون الاستدانة لان المديون يكذب بالضرورة . و يجاهد الموت وذلك بالزواج والاستكثار من الولد . جاء في الزاندافستا انما اقبح البيوت التي حرمت من النسل والذراري

الجنائز ـ متى مات الانسان تعود جثته الى رب الشر ولذلك ينبغي انقاذ الدار منها لا باحراقها فانها تنجس الدار ولا بدفنها فانها تنجس الارض ولا باغراقها فانها تنجس الماء ومن فعل ذلك فيكون قد تلطخ بحمأة القذارة ابد الدهر وطريقة الفرس في دفن موتاهم تختلف عن غيرهم من الامم فيجعلون الجثة في مكان عال مكشوفة جبهتها نحو السماء مثقلة باحجار ثم يركنون الى الفرار خشية من الشياطين لانها تجتمع بزعمهم في اماكن الدفن حيث مأوى المرض والحمى والقذارة والرعب والشعور القديمة وعندما تجيء الكلاب والطيور وهي من الحيوانات الطاهرة فتطهر الجثة بافتراسها

مصير الارواح ـ تنفصل روح الميت عن جسده وفي اليوم الثالث من موتها يؤتى بالروح على الصراط (شنيواد) المؤدي الى الجنة ماراً فوق هاوية جهنم فيسأل هرمز الروح عندئذ عن حياتها السالفة فان كانت محسنة تعضدها الارواح الطاهرة وارواح الكلاب وتأخذ بيدها لاجتياز الصراط و يدخلنها الى مقام السعداء (برودس اي فردوس)

---

(١) ان بعض زنادقة الفرس لعهدنا (هم في ارض الجزيرة) يعبدون رب الشر على عكس ذلك و يذهبون الى ان مذهب الخير لما كان في ذاته صالحا ورحيماً لا حاجة ان يخضع له و يتقرب اليه بانواع القربات وتدعى هذه الطائفة اليزيدية (عبدة الشيطان) قاله المؤلف

فيهرب الشياطين لانها تتجافى عن روح الارواح النقية اما روح الشرير فتصل على العكس من ذلك الى الصراط ضعيفة مرتجفة لا يأخذ احد بيدها ويلقي بها الشياطين في الهاوية ويتناولها روح الشر ويقيدها في قعر الظلمات .

طبيعة الديانة الهرمزية او الهرمسية المزدية ـ نشأت هذه الديانة في بلد يستند فيه الاختلاف والتناقض ففيها الاودية الباسمة بزرعها والاراضي البائرة المحزنة والواحات الرطبة والقفار المحرقة والحقول والسهول الرملية بحيث تتراءى قوى الطبيعة فيها كأنها في حرب عوان ابداً . وهذا الجهاد الذي يمثل للفارسي فيما يحيط به قد اتخذه شريعة للعالم . وهكذا تألفت ديانة خالصة من الشوائب تدفع بالانسان الى العمل والفضيلة على حين قد انتشر هذا الاعتقاد بالشيطان والجن في الغرب وشغل شعوب اوربا كافة بالاوهام ،

المملكة الفارسية

الماديون (١) ـ سكنت بلاد ايران عدة قبائل ولم يشتهر من بينها سوى الماديين والفرس خيم الماديون في غرب بلاد فارس وهم اقرب الى الاشوريين ولذلك كان على ايديهم خراب نينوى وبلادها « ٦٢٥ » ولكن لم يلبثوا ان استغرقوا في الترف وانشأوا يتخذون ثياباً مسدولة ويألفون البطالة ويعتقدون اعتقادات خرافية شأن الاشوريين الساقطين وما زالوا على ذلك حتى امتزجوا معهم اي امتزاج .

الفرس ـ اما الفرس فكانوا في الاخلاق الشرقية (واجنبيسة) واحتفظوا باخلاقهم وديانتهم وشدتهم . يقول هيرودتس : ان الفرس لا يعلمون اولادهم الى سن العشرين غير ركوب الخيل ورمي النشاب وقول الصدق .

قورش اوسيروس اوكيخسرو ـ قام رئيسهم قورش حوالى سنة ٥٦٠ وخلع ملك الماديين (الذي هو جده لامه) وجمع تحت لوائه شعوب ايران كافة فتح بهم ليديا وبابل وجميع بلاد آسيا الصغرى . ويروى لهذا الملك قصة فصلها هيرودتس في تاريخه تفصيلاً شافياً قال انه دعا نفسه في بعض مآثره على الاحجار بقوله انا قورش ملك الكتائب والعظمة والاقتدار انا ملك بابل وسومير واكاد ملك الاقاليم الاربعة وابن كمبيز (كيكاوس)وسلطان سوز يان رسوم بيستون ـ اهلك كمبيز بكراولاد قورش اخاه سمرديس وفتح مصر (على قول اليونان) علمنا ذلك مما اتصل بنا من الرسم الذي مثل فيه ذلك ولا تزال ترى الى اليوم في تخوم الفرس

---

(١) (بلاد مادي يسميها العرب بلاد الجبل والعراق العجمي وازربايجان واسترا باد اي ولايات فارس وكرمان ومكران اي بلوجستان وخراسان)

وسط سهل افيح صخرة هائلة نحتت نحتاً عمودياً علوها ٤٥ متراً وهي صخرة بيستون وهناك حروف ناتئة على الحجر تمثل ملكاً متوجاً و يده اليسرى على قوس وهو يدوس اسيراً وتسعة اسرى آخرون واقفون امامه وقد قيدهم بنفسه . وكتبت ترجمة حياة الملك في رسم بثلاث لغات فقد اعلن الملك دار يوس « دارا » ذلك فقال :هذا ما قمت به قبل ان اغدو ملكا فقد كان كمبيز بن قورش من بني جنسنا يحكم هنا قبلي وكان له اخ لابيه وامه واسمه سميرديس فقتل ذات يوم كمبيز اخاه سمرديس ولا علم للقوم بما جنته يداه . ثم وجه كمبيز وجهته نحو مصر و بينا هو نازل فيها ثار به الشعب وكان قد اصبح الكذب مألوفا اذ ذاك في تلك البلاد وفي بلاد مادي وسائر العمالات فقام موبذان « ١ » كان حاضراً اذ ذاك اسمه غوماتا وخدع الامة بقوله : انا سميرديس بن قورش وعندئذ انتقض الشعب اجمع وانصرفوا نحوه متخلين عن كمبيز . ثم قضى كمبيز نحبه بجراح جرح نفسه به و بعد ان اتى غوماتا ما اتى من هذه الحيلة واستلب من كمبيز بلاد الفرس ومادي وسائر الاقطار جرى في الخطة التي شاءها فصار ملكاً على هذه البلاد وحاكما متحكما في اهلها. فخافه الشعب لظلمه وكان لا يستنكف من قتل الامة عن بكرة ابيها لئلا تنكشف حيلته و يعرف القوم انه لصيق بسمرديس بن قورش ودعي في نسبه وقد اظهر الملك دار يوس هذه الخديعة ولم يكن احد في بلاد الفرس ومادي يجرأ على استرجاع تاج الملك من هذا الموبذان غوماتا . قال دارا بعد ان قدم ما سلف وعندئذ تقدمت ودعوت الرب هرمز فاعانني بالتوسل به وكان في صحبتي ناس ذوو اخلاص وصدق فاعانوني على قتل غوماتا وخاصة رجاله فاصبحت ملكاً بمشيئة هرمز واستعدت الملك الذي كان بنو قومنا سلبوه وارجعته الى حوزتي واخذت اعيد المذابح التي طوى بساطها الموبذان غوماتا وذلك لاني كنت مخلصاً للامة واعدت الاناشيد والاحتفالات المقدسة الى سابق عهدها. واضطر دارا بعد ان ضرب ذاك الدخيل غوماتا ضربة قاضية ان يقاتل عدة زعماء ثائرين فقال لقد قاتلت تسع عشرة مرة وغلبت تسعة ملوك .

المملكة الفارسية — علم بما مضى ان دارا اخضع المملكة المختلسة واعاد مملكة الفرس وقد وسع نطاقها بفتح تراس « تراقيا وهي اليوم بلاد البلغار والروملي » وولاية من الهند. وكان ينضم تحت لوائه شعوب الشرق اجمع من ماديين وفرس واشوريين وكلدانيين و يهود وفينيقيين وسوريين وليديين ومصريين وهنديين فكان سيف سطوته يحمي الاصقاع الواقعة بين نهر الدانوب « الطونة » غرباً ونهر الاندوس (السند) شرقاً و بين بحر الخزر شمالاً الى شلالات النيل جنوباً . مملكة لم يعهد لها مثيل في الفخامة (١٢٠ مملكة) بيد ان قبيلة جاءت بعد

(١) (موبذ موبذان اي رئيس الكهنة)

قال كبيز وقد استشاط غضباً من هذا : اعلم اذا كان الفرس يقولون حقاً وصدقاً . فاذا انا رميت بسهمي قلب ابنك الذي تراه واقفاً امامك في هذا البهو فذلك ان الفرس لا يعرفون ما يقولون . وما هو الا ان اعد قوسه وضرب ابن بريكستاسب نخرّ الفتى صريعاً فجاءه الملك ينظر اين اصابه سهمه فرآه قد اصماه ومزق حشاه . فاستفز السرور الملك وقال لوالد الغلام وهو ضاحك : لقد رأيت بهذا ان الفرس قد اضاعوا رشدهم فقل لي هل عهدت احداً يطلق السهم اطلاقي له فيصيب الغاية على ما رأيت من الرشاقة . فقال بريكستاسب لا اعتقد ايها المولى انه في وسع الرب نفسه ان يرمي النبال مثلك في الدقة والاعتدال

اعمال الفرس — ادى شعوب آسيا في كل دور من ادوارهم جزية للفاتحين وخضعوا للظالمين والغاشمين فنفعهم الفرس كثيراً بان كفوا بعضهم عن مقاتلة بعض وازالوا من بينهم اسباب الشحناء وذلك لانهم اخضعوا كل الشعوب لرئيس واحد . وكان عهدهم عهد سلام لم تعهد فيه مدن تحرق ولا ديار تخرب ولا سكان تذبح او تؤخذ زرافات وافواجاً لتستعبد

مدينتا سوس وبرسو بوليس(١) — عني ملوك الماديين والفرس باقامة القصور على نحو ما كان يقيم ملوك اشور . واحسن ما اتصل بنا خبره من تلك القصور قصور دارا في سوس وبرسو بوليس وقد حفر المسيو ديولافوا الافرنسي خرابات سوس فعثر فيها على نقوش وقرامد مزينة بالمينا تبين ارتقاء الصنائع اذ ذاك وبقيت من قصر البرسوبوليس خرائب عظيمة وقد نحت في صخر الجبل سطح عظيم قام عليه القصر وهو يوصل اليه بسلم واسع بانحدار قليل بحيث كان يتأتى لعشرة فرسان ان يصعدوه معاً

النقش الفارسي — حذا نقاشو الفرس حذو الاشوريين في اقامة قصورهم فتجدها في برسو بوليس كما تجدها في بلاد اشور سقوفاً متسعة السطوح يحرسها اسود من الحجر والنقوش الناتئة تمثل صيوداً واحتفالات . وقد احسن الفرس في اتمام نموذجاتهم في ثلاثة اشياء وذلك بان استعملوا الرخام عوضاً عن القرميد وجعلوا في الردهات سقفاً بالخشب المصور وانشأوا اعمدة خفيفة على شكل جذوع الاشجار في اقصى ما يعلم من الحذاقة واللطف وهي اعلى من محيطها باثنتي عشرة مرة . ولذلك جاءت نقوشهم اجمل اثراً واوقع في النفوس من نقوش بلاد اشور . وقلما نجح الفرس في الصنائع ويظهر انهم كانوا احشم شعوب ذاك العصر واطهرهم واشجعهم وكانت وطأة حكمهم في آسيا مدة قرنين اقل جوراً مما عرف من ضروب الحكومات وكانوا اميل الى الرفق بمن يحكمون

---

(١) (سوس في ولاية شُشتر هي التي ظهرت فيها شريعة حمورابي و برسو بوليس هي اصطخر في ولاية فارس بالقرب من مدينة شيراز)

واستولت على تركة الممالك الآسياوية باجمعها

اقيال الفرس — قلما يعنى ملوك الشرق بامر رعاياهم الا ليستنزفوا اموالهم و يمتهنوا في سبيل سلطانهم ابناءهم و ينالوا مديحهم وثناءهم وما قط اخذوا انفسهم بالنظر في شؤون من يحكمونهم. وكان شأن دارا (١) في هذا المعنى شأن سائر ملوك الشرق ترك كل قبيل في بلاده يحكم نفسه على ما يشاء و يشاء هواه محتفظاً بلغته ودينه وشرائعه واحياناً برؤسائه وسادته من قبل . على انه كان يعنى بتنظيم دخل المملكة الذي يتقاضاه من رعاياه فقسم بلاده الى عشرين(١) حكومة سماها امارة . وكان في كل حكومة شعوب مختلفة كل الاختلاف سواء كان بلغتها او بعاداتها ومعتقداتها وكان على كل حكومة ان تؤدي مسانهةً خراجاً معينا بعضه نقد« ذهب وفضة»و بعضه غلات ونواتج« قمح وخيل وعاج»فيتقاضى حاكم كل مقاطعة او قيلها ممن وسد اليه امرها الخراج و يبعث به الى مولاه الملك

دخل المملكة — بلغ مجموع دخل الملك ثمانين مليونا بسكة زماننا ما عدا خراج الغلات . واذا اعتبرنا قيمة النقود في ذاك العصر فانها تعادل ستمائة مليون جنيه (٢) في ايامنا . وكان الملك ينفق هذا على حكومته وجيشه وخاصته و بذخ قصره و يبقي عنده كل سنة مبالغ عظيمة من العين يدخرها في صناديقه وكان ملك الفرس مثل سائر المشارقة يرى امتلاك الكنوز العظيمة من دواعي الابهة والتمجد

السلطان الاعظم — لم يكن في العالم اغنى ولا اقدر من ملك الفرس فقد كان اليونان يدعونه السلطان الاعظم . (ملك الملوك شاهنشاه) وكان له كسائر ملوك الشرق سلطة مطلقة على رعاياه كافة فرساً كانوا ام غيرهم من سائر الشعوب الخاضعة لعرشه . وانت ترى فيما ذكره هيرودتس كيف كان كمبيز يعامل اعظم سادات قصره : سأل يوماً بريكستاسب (ري كشتاسب اي روح العظمة)وكان ابنه يسقيه ماذا تقول الامة في امري ؟ فاجابه : مولاي انهم يثنون على محامدك اطيب الثناء ولكنهم يذهبون الى ان لك ميلاً قليلاً للخمر

---

١ (هو ابتدع طريقة البريد وتجنيد العشرة والمئات والالوف الخ وجعل لكل مملكة حاكماً مدنياً وحاكماً عسكرياً وجعل كلا عيناً على صاحبه يرسلان اليه بتقاريرها كل اسبوع)

٢ قال المؤلف ذكر هيرودتس عشرين حكومة وقد عثر في الرسوم المزبورة على احدى وثلاثين حكومة قال مرزا مهدي خان الظاهر ان هذا الالتباس في تقدير الاعداد جاء من ان ممالك هذا الفاتح العظيم كانت منقسمة ثلاثة اقسام منها مملكتا مادي والفرس الخاصة وما بقي منها قسمان قسم استعماري وقسم استملاكي

اليونان

العناصر اليونانية

صورة هذه البلاد — ارض يونان من الاقاليم الضيقة المضطرب (هي ٥٧٠٠٠ كيلومتر مربع) لا تكاد مساحتها تزيد عن مساحة سويسرا ولكنها بما فيها من اختلاف الاهوية وما يتخللها من الجبال و ينقسمها من الخلجان اقليم غريب في شكله خلق ليؤثر تأثيرًا كبيرًا في اخلاق ساكنيه . وتقطع ارض اليونان من وسطها سلسلة من الجبال (البند) فيناوح الجبل فيها جبلاً مثله ويقوم الصخر الى جانب الصخر حتى اذا بلغ ترعة كورنت ينخفض وترتفع مقاطعة المورة في الجانب الآخر من الترعة فيعلو عن سطح البحر ستمائة متر كأنهُ حصن احاطت بهِ سلاسل عالية وعرة مثلجة تنزل في البحر على خط قائم وتمتد الجزر على طول الشاطئ وما هي الا جبال مغمورة يبرز راسها فوق الماء . وتقل في هذه الارض ذات الوهاد والنجاد التربة الزراعية وتكاد لا ترى حيثما القيت ناظرك غير صخور جرداء مرداء اما الانهار فتشبه سيولاً ليس فيها غير طريدة ضيقة من التربة المنبتة بين مجراها ونصفه جاف وبين صخور الجبال الجرداء . وكان في هذه البلاد الجميلة بعض غابات واشجار سرو وغار ونخيل وكروم غرست في مواضع من التلال ولكن قلما اتت بغلات جيدة او بمراعي خصيبة . فبلاد هذا شأنها طبيعتها ينشأ ابناؤها متشوقة قدودهم قوية اجسادهم قانعة نفوسهم .

البحر — تعد بلاد يونان من البلاد الساحلية وهي اصغر من البرتغال وشواطئها تكاد تقرب من شواطئ اسبانيا بكثرتها ينساب فيها البحر من عدة خلجان ووقائع (١) وتخاريم . ومن العادة ان يحيط باليم صخور تتقدم او جزر تتقارب يتألف منها مرفأ طبيعي . وهذا البحر اشبه بحيرة لامدّ فيها ولا جزر ولذلك سلمت شواطئه من الضرر وليس لونه كالبحر المحيط ابيض كامدًا كئيبًا وهو في العادة هادي، صاف ولونه كالبنفسج كما يقول هوميروس ولا اكثر استعدادًا من هذا البحر للسفر فيهِ سفرًا قصيرًا . ولقد تهب ريح الشمال صبيحة كل يوم فتسير بها قوارب مدينة آثينة نحو آسيا وتقذفها ريح الجنوب في المساء الى المرفاء والجزر من بلاد اليونان الى آسيا الصغرى قائمة مثل صخور الكمين واذا صحت السماء تقطع السفينة المسافة وهي بقربة من اليابسة تراها كل حين . ولذلك كان لسكان هذه البلاد من سكون بحرهم باعث على ركوبه واجتيازه فاصبح اليونان من ثم بحارة وتجارًا وسياحًا

(١) في القاموس الوقيعة نقرة في جبل او سهل يستنقع فيها الماء جمعه وقاع ووقائع .

ولصوص بحر ومتشردين على نحو ما كان الفينيقيون فانتشروا في العالم القديم اجمع وجلبوا الى بلادهم سلع مصر وبلاد الكلدان وآسيا واختراعاتها .

هواؤها — لطف هواء بلاد اليونان حتى ان الجليد في آثينة لا يحدث الا في كل عشرين سنة والحر معتدل في الصيف بما يهب عليها من نسيم البحر والى اليوم لا يزال الشعب فيها ينام في الطرقات منذ شهر مايو « ايار » الى اواخر سبتمبر « ايلول » والهواء فاتر جاف وكان يُرى على بضعة فراسخ في القلعة المطلة على آثينة ريش تمثال بالاس وليست دوائر الجبال القاصية مستورة بالضباب كما هو الحال عندنا معاشر الفرنسيس بل انها تنجلي بأسرها في السماء الصافية . هذه البلاد بجمالها تدفع المرء ان يتخذ الحياة عيداً فيرى كل شيء يبسم حواليه فمن نزهة في الحدائق بالليل واستماع اصوات الصراصير ومن الجلوس في ضوء القمر والضرب بالشباب وقصد الجبال للشرب من مائها واستصحاب الراح وشربه على النغمات والاغاني وقضاء الايام في الرقص هذه هي ملاذ اليونان وما هي الا ملاذ جيل من الناس فقير مقتصد فتيّ لا يعرف الهرم ابداً .

بساطة العيشة اليونانية — لا يتعب المرء من حرارة هذه البلاد ولا يشقى ببردها بل يعيش في الهواء الطلق مسروراً قليل النفقة ولا تقتضيه البلاد غذاء غزيراً ولا ثياباً ثقيلة ولا داراً مرفهة . فقد كان اليوناني يتبلغ بحفنة من الزيتون وسمك السردين ويلبس نعلاً وقميصاً ورداء كبيراً . وكثيراً ما كان يخرج حافياً مكشوف الرأس وداره بناية منيعة ليست من المتانة بحيث يدفع اللصوص عن دخولها بثقب حائطها ولا له من الاثاث غير فراش وبعض لحف وبضع اوان جميلة ومصباح وكانت الجدران خالية من الزينة مبيضة بالجير « الكلس » ولا يأوي الى الدار الا آونة النوم فقط .

بلاد اليونان الاصلية

اصل اليونان — كان اصل الشعب الساكن في هذه البلاد الجميلة الضيقة النطاق من الجنس الآريّ انسباء الهنود والفرس جاؤا مثلهم من جبال آسيا . ولقد نسي اليونان تطواف اجدادهم الطويل فكانوا يقولون انهم ولدوا من التراب كالصراصير . بيد ان لغتهم واسماء اربابهم لم تترك مجالاً للشك في اصلهم . وكان اليونان الأول كسائر الآريين يقتاتون باللبن ولحوم القطعان ويسيرون مدججين باسلحتهم وهم ابداً على قدم القتال ينضمون قبائل وفصائل تحت إمرة بطاركتهم .

اساطيرهم — جهل اليونان اصولهم كسائر الشعوب القديمة فلم يكن لديهم علم بمنشإ اسلافهم ولا بالزمن الذي توطنوا فيه ارض يونان ولا بشيء من اخبارهم واعمالهم فيها . وان حفظ

ذكر الحادثات الطارئة كما وقعت ليتوقف على اعداد الاسباب لها ومن اسبابها الكتابة . غير ان اليونان لم يعرفوها الاَّ حوالى القرن الثامن (ق . م) ولم يكن لهم واسطة لحساب السنين ثم اتخذوا بعدُ طريقة حساب السنين اعتباراً من المهرجان العظيم الذي كانوا يحتفلون به في اولمبيا كل اربع سنين وتدعي هذه المدة الدورة الاولمبية وقد وضعت الاولمبية الاولى عام ٧٧٦ فتسلسل تاريخ اليونان منذ ذاك الحين ولم يتصل بما وراء ذلك . ومع هذا فقد نقلت اساطير كثيرة عن هذه المدة الاولى في البلاد اليونانية وخصوصاً قصص قدماء الملوك والابطال الذين كانوا يعبدونهم كأنهم نصف ارباب وهذه الاقاصيص مشوبة بحكايات يتعذر الالمام بما فيها من حق وصدق فقد ذكروا في آثينة ان الملك الاوَّل المدعو سكروبس كان نصفه ملكا ونصفه حية وذكروا في ثيبة ان كادموس مؤسس المدينة جاء من فينيقية للبحث عن اخت اوروبا التي خطفها ثور وكان قبل تنيناً وزرع اضراسه فنبتت منها مقاتلة ومنهم تناسلت الامرات الشريفة في ثيبة وزعموا في مدينة ارغوس ان اصل الامرة المالكة من بيلوبس وكان اعطاها المعبود زيوس كتفاً من العاج للاستعاضة عن كتفه التي اكلتها احدى الارباب . وهكذا كان لكل بلد اساطير يتلونها و يتناقلونها وظل ابناء يونان يذكرونها الى ما بعد و يثبتون لابطالهم القدماء نصيباً من روح الربوبية مثل ابطالهم برسي و بيليروفون وهيراكليس وتيزي ومينوس وكاستورس وبولوكس وميلياكرس واديبس ومعظم اليونانيين بل ان الطبقة المنوَّرة منهم اتخذوا هذه التقاليد حقائق لا نزاع فيها الاَّ قليلاً . تلقوها على نحو ما تؤخذ الحادثات التاريخية اخبار الحرب بين ابني اديبس ملك ثيبة وحملة الارغونوت التي سافرت في طلب جزة الكبش التي قام بحراثتها ثوران لها ارجل من قلز تقذف النار من افواهها ..

حرب طروادة — اشهر هذه الاقاصيص كلها حروب طروادة وهي اوسعها بياناً وتفصيلا فيروى انه كان نحو القرن الثاني عشر مدينة غنية ذات سطوة اسمها طروادة وكانت الحاكمة المتحكمة على شاطيء القارة الآسياوية فجاء احد امراء هذه المدينة واسمه باريس الى ارض يونان وسبي هيلانة حليلة منيلاس ملك اسبارطة فاتفق اغاممنون ملك ارغوس مع سائر ملوك اليونان وانفذوا لحصار طروادة جيشاً يونانياً على اسطول مؤلف من الف ومائتي سفينة فدام الحصار عشر سنتين اذ كان الرب زيوس راضياً عن الطرواديين عاقداً النصر بالويتهم . ولقد اشترك مقاتلة اليونان كافة في هذا الحصار فقتل هكتور رئيس المدافعين عن حياض طروادة بيد اشيل وكان اجمل اليونانيين خلقة واشجعهم نفساً وجرَّ جثته حول المدينة . وقاتل اشيل بسلاح الهي وهبتهُ اياهُ امهُ ربة البحر ثم هلك بسهم اصابهُ في عقبه . حتى اذا

يئس اليونان من الاستيلاء على المدينة بالقوة عمدوا الى الحيلة فاوهموا انهم ازمعوا الرحيل وتركوا وراءهم حصاناً ضخم الجثة من خشب اختبأ فيه زعماء الجيش فاخذ الطرواديون هذا الحصان وادخلوه مدينتهم فلما جن الليل خرج القوَّاد منه وفتحوا ابواب المدينة لليونان فخرقت طروادة وذبح الرجال واستعبد النساء ·

ولما قفل زعماء اليونان من غزاتهم هبت عليهم العاصفة فغرق بعضهم في البحر وقذفت الانواء بفريق منهم الى شواطيء بعيدة وكان من حظ عولس اكثر هؤلاء الزعماء جربزة ودهاء واطولهم يداً في كيد المكايد ان قضى عشر سنين تتقاذف به البلاد حتى ادت به الحال ان فقد سفنه جمعاء ونجا من الغرق برأسه ·

وبعد فقد كان الاعتقاد بحرب طروادة شائعاً في القرون القديمة شيوع الاخبار الثابتة · فزعم القوم ان غاية الحصار كانت سنة ١١٨٤ وحددوا مركز تلك المدينة · وقد خطر للمسيو شيلمان من علماء الآثار سنة ١٨٧٤ ان يحفر محل هذه المدينة فاقتضى له ان يزيل انقاض عدة مدائن منضدة بعضها فوق بعض فعثر على عمق خمسة عشر متراً في اعمق طبقة من تلك الانقاض على آثار مدينة حصينة استحالت رماداً وظفر في خرائب اهم تلك الابنية بصندوق مليء بالحلي من ذهب سماه كنز بريام · وكان ثمت نقش وكانت تلك المدينة التي ظهر سورها كله صغيرة حقيرة وعثروا فيها على عدد كثير من الاصنام الصغيرة الرديئة الصنع والوضع وهي تمثل ربة لها رأس بومة (وعلى هذه الصورة كان اليونان يمثلون الربة بالاس) ومع كل هذا فليس ثمت دليل يقوم على ان هذه المدينة الصغيرة دعيت باسم طروادة قديماً ·

ميسينيا — ورد في الاساطير اليونانية ان الملك اغاممنون الذى كان قائد الحملة اليونانية على مدينة طروادة كانت عاصمته مدينة طروادة وان زوجته قتلته عند عودته من هذه الغزاة ودفن بالقرب من قصره · ولقد عرف اليونان مكان مدينة ميسينيا لانها كانت مأهولة الى القرن الخامس قبل المسيح ولا يزال الى اليوم حول الجبل سور من الصخور الضخمة مصفوفة بعضها فوق بعض بدون ملاط يلحم بين اجزائها وثخنها خمسة امتار وكان اليونان يدعون هذا السور الحيطان السيكلونية اعتقاداً منهم بان الجبابرة سيكلون قد اقاموا بنيانها ورفعوا قواعدها · ويدخل الى هذا السور من باب علوه زهاء ثلاثة امتار مؤلف من ثلاثة صخور هائلة وفوقها عمود بين اسدين منقوشين وهذا هو باب الاسود

ولما اكتشف شيلمان سنة ١٨٧٦ مدينة طروادة عزم ان يبحث عن قبر اغاممنون في ميسينا وكان الحفر قد جرى فيها غير بعيد عن سطح الارض فحفر شيلمان في التراب

حتى وصل الى الصخر فلما كان على عشرة امتار من العمق عثر على ستة قبور فيها سبع عشرة جثة مع كمية كبيرة من الحلي الذهبية واساور وعقود ودبابيس وتيجان وسبعمائة سفيقة« ورقة ذهب» و زهاء مائتي سيف وخنجر مع نصال مموهة بالذهب والفضة . وكان على وجوه بعض الجثث برقع من السفيقة وكانت هذه القبور على ما ظهر مدافن امراء ميسينا .

ومنذ ذاك العهد اكتشف الباحثون في كثير من انحاء اليونان اشياء كثيرة ومنها اواني خزفية وحلي تشبه خزف ميسينا وحليها وقد عثر في بعض الاحيان بين هذه الدفائن على حلي مصرية من عهد الدولة التاسعة عشرة فاستنتجوا من ذلك بانه كان في يونان منذ الزمن العريق في القدم (بين القرن الثامن عشر والخامس عشر ق . م) ملوك اصحاب شوكة يستطيعون معها انشاء مدن حصينة ذات غنى متوسط وتيسر لهم به ان يكنزوا الكنوز و يستصنعوا الآثار النفيسة وهذا ما دعي بالتمدن الميسيني .

• اشعار هوميروس - ان القصيدتين المنسوبتين للشاعر هوميروس وهما الالياذة التي ذكرت فيها حروب اليونان ورجولية اشيل امام طروادة والاوذيسية التي جاءت فيها حوادث عولس بعد سقوط طروادة . هاتان القصيدتان هما اللتان اذاعتا في اطراف العالم اجمع سقوط مدينة طروادة . وقد حفظتا قروناً دون ان يكتبا فكان المغنون الذين ألفوا الترحل يستظهرون ابياتاً طويلة منهما و ينشدونها في الاعياد . وفي القرن السادس امر احد امراء آثينة واسمه بيزيسترات ان تجمع القصيدتان وتكتبا فاصبحتا بعد وما زالتا ابداً اجمل الآداب اليونانية المحببة المطربة . يقول اليونان ان مؤلفهما هوميروس كان احد ابناء يونان من مدينة ايونية وعاش نحو القرن التاسع او العاشر ويمثلونه على صفة شيخ ضرير فقير يهبط ارضاً و يصعد ارضاً وتنازعت سبع مدن شرف نسبته اليها تدعي كل منها انها مسقط رأسه وقد وقع التسليم بذلك تقليداً بدون مناقشة فيه . وفي اواخر القرن الثامن عشر قام احد علماء الالمان واسمه فولف وا ان بعض تناقض في هاتين القصيدتين اداه ان يجزم بانهما ليستا من نظم شاعر واحد ولكنهما كتاب مؤلف من مقاطيع لشعراء مختلفين وقد حمل اهل العلم على هذه القضية حملات منكرة وهم بين مثبت لها تماماً ومنكر لها تماما وظلوا مدة نصف قرن يتنازعون في وجود هوميروس او عدمه وما زال فريق اهل العلم الى اليوم على ان هذه المسألة متعذر حلها . ومن المؤكد ان هاته القصائد قديمة العهد جداً و ربما كانت من القرن التاسع . الفت الالياذة في آسيا الصغرى وربما ألفت من مجموع قصيدتين خصت احداهما بحروب طروادة وثانيتهما بحوادث اشيل اما الاوذيسية فانها على ما يظهر من نظم شاعر واحد . ولكن ليس ثمت من دليل يقوم على انها من نظم مؤلف الالياذة بعينه .

اليونان على عهد هوميروس — يتعذر علينا ان نوغل في تاريخ اليونان الى قرون بعيدة . واشعار هوميروس اقدم مستند بشأنهم . ولما نظم هذا الشاعر منظومته نحو القرن التاسع قبل المسيح لم يكن لبلاد اليونان اذ ذاك اسم يطلق على سكان اليونانية قاطبة فسماهم هوميروس باسم قبائلهم الاصلية و يظهر انهم كما وصفهم قد نجحوا منذ غادروا آسيا فعرفوا حرث الارض و بناء المدن الحصينة وتألفوا شعوباً صغيرة . واطاعوا ملوكاً لهم وكان لهم مجلس شيوخ ودار ندوة وقد فاخر اليونان بحكومتهم واحتقروا الشعوب النازلة بقربهم لانهم كانوا دونهم فدعوهم البرابرة . ولقد صرح عولس بخشونة السيكوليس بقوله : (ليس لهم قواعد في العدل ولا اندية يتشاورون فيها وافرادهم يحكمون نساءهم واولادهم بالذات ولا يعنى بعضهم ببعض) ومع هذا فقد كان اليونان الى ذاك العهد نصف برابرة فلم يعرفوا الكتابة ولا النقود ولا تطريق الحديد وقلما كانوا يجرأون على ركوب البحر وتجشم اخطاره و يزعمون ان الغول سكن جزيرة صقلية . .

غارات على ارضهم ورحلات اليها

تاريخ اليونانية — لم يسكن جميع شعوب يونان منذ الزمن الاطول البلاد التي كانوا فيها في القرن السابع اي في العصر الذي اخذ اهل العلم يعرفون عنهم شيئاً يوثق به . وقد حفظ كثير من هذه الشعوب ذكرى نزولهم في تلك البلاد وامتازوا عن الشعوب العريقة في القدم النازلة في تلك البلاد . جاءت امم كثيرة فاحتلت ارض يونان بقوائم سيوفها وتشتت شمل غيرهم امام المغيرين عليهم . و يقول اليونان ان بدء هذه الغارات الشعواء والرحلات كانت من القدم بحيث لم تصلنا اخبارها مسطورة ونقلت وشاع ذكرها تقليد او يقولون انها كانت في القرن الثاني عشر (اي بعد اخذ طروادة بثمانين سنة) ولا عبرة بهذا التاريخ اذ لم يكن لليونان وسائط يحسبون بها في ذاك العهد المتطاول على ان هذا التاريخ أخذ قضية مسلمة بدون جدال ولا نزاع فيه .

دعي اقدم سكان يونان بالبيلاسج (ولعل معناه القدماء) ولم يعرف عنهم شيء ولا فيما اذا كانوا من جنس يوناني او من جنس آخر . ومن هؤلاء السكان لا يعرف غير اليونان ولا يعلم ايضاً كيف ابدل اسم بيلاسج بالهيلانيين اذ لم يرد في اشعار هوميروس ايضاً ذكر لهذا الاسم . ومن المقرر ان بضعة بلاد حفظت أثراً من آثار فاتحيها وغزاتها . فقد جاء قوم برابرة من البلاد المشهورة ببلاد الالبانيين « الارناؤط اليوم» وهاجموا سهل بينيه الفسيح فدعي بعد باسم تساليا وتألفت من هؤلاء المهاجين عصابة من الفرسان الاشراف وامسى سكان البلاد الاصليون عملة يزرعون ويحرثون ليس الا . وقد رحل الى وادي سيفيز الذي سمي باسم (بيوسيا) كل من لم تخضع نفسه لهذا الحكم

وبعد ردح من الدهر خرج الدوريون من جبال البندواجتازوا برزخ كورنت واغاروا على بلاد المورة واستوطنوا من اقاليمها ماامرعت تربته وغنيت رباعه وبقاعه مثل لاكونيا ومسينيا وارغوليديا وسيكيونيا وكورنت وميكار . ويروى ان قدماءملوكهم دعوهم الميرا كليديين (اي نسل المعبود هيرا كليس) ليغلبوا رعاياهم الثائرين ويعيدوهم الى عروشهم وكان ملوك اسبارطة يرون انهم من نسل قدماء السكان لا من الدوريين وقد استحال الشعب الذي احتل البلاد التي اغار عليها الدوريون الى زراع واهل فلاحة

واستولت عصابة من الايتوليين الذي صحبوا الدوريين في تلك الحملة على مقاطعة ايلديا في الغرب . وانهال الاشيائيون ممن ابت نفوسهم الخضوع على شاطئ شبه جزيرة المورة الشمالي وطردوا منها الايونيين واسسوا الاثنتي عشرة مدينة الآشيائية فلجأ الايونيون المطرودون الى مقاطعة اتيكيا وامتزجوا بسكانها الاقدمين ومن ذاك العهد عرف الاثينيون اي سكان اتيكيا شعباً ايونياً . ثم انفصلت عصابات من عدة شعوب وراحوا يؤسسون مستعمرات في السيف الآخر من البحر . والايوليون اقدم هذه العصابات النازلة في آسيا ثم سكنوا بعدُ ذاك الشاطئ بعينه . واحتل الدوريون جزيرة اقريطش (كريت) وبعد زمن استعمر اليونان صقلية وايطاليا الجنوبية . .

الدوريون — يراد بالدوريين نسل سكان الجبال النازلين من الشمال ممن طردوا او اخضعوا سكان السهول وشاطئ بلاد اليونان الجنوبية المعروف ببلاد المورة ويذكر هؤلاء المغيرون ان ملوكاً من اسبارطة من نسل البطل هيرا كليس قد طردهم رعاياهم فجاؤا يبحثون عنهم في جبالهم فتبع الدوريون اخلاف هذا البطل حباً بهِ ونصبوهم على عروشهم ثم اغاروا على السكان واستصفوا ارضهم وديارهم . وكان هذا العنصر جيلاً من الناس اشتهر بجماله وقوته وصحة اجسامه وتعود البرد وشظف العيش وحياة الفقر والفاقة فترى رجالهم ونساءهم يلبسون ثياباً قصيرة لا تصل الى ركبهم . والدوريون امة حربية دعاها الاضطرار الى ان تكون ابداً على قدم الدفاع تحمل عدتها وعتادها وهم اقسى اهل يونان لبعد اقليمهم عن البحر ولذلك احتفظوا باخلاق الاجيال المتوحشة وهم اعرق في اليونانية من غيرهم من سكان تلك الامصار لانهم كانوا على وحدتهم لا يستطيعون الامتزاج بالغرباء ولا تقليدهم في منازع اخلاقهم .

الايونيون — يدعى شعوب ايتكيا والجزائر وشاطئ آسيا بالامة الايونية . ولا يعلم من اين جاءتهم هذه التسمية وهم على عكس الدوريين جنس من التجارة او التجار . ومن اكثر شعوب اليونانية تهذيباً لانهم استفادوا من الاحتكاك بامم مشارقة اعرق منهم في الحضارة

واقتبسوا من النظر اليهم وهم ضعاف في صبغتهم اليونانية لامتزاجهم بالآسياويين ولانهم نحوا نحو هؤلاء في عاداتهم الا قليلاً يميلون الى السلم و يولعون بالصناعات و يعيشون عيش الترف يضغون الكلام و يرققونه و يلبسون ثيابًا ضافية الاذيال على مثال المشارقة

الهيلانيون — هذان العنصران او الجنسان المتباينان المعروفان بالدوريين والايونيين هما اشهر عناصر اليونان واقدرها . فاقليم اسبارطة للدوريين واقليم اثينية للايونيين وليس السواد الاعظم من اليونان دوريين ولا ايونيين و يعرفون بالايوليون وهو اسم مجهول يطلق على شعوب مختلفة في تلك الاصقاع من ايوليين واكرنانيين وفوسيديين و بيوسيين من اهل البلاد اليونانية الوسطى والاشانيين من اهل المورة . وكل من تقدم ذكرهم يسمون باسم الهيلانيين الذين عرفوا به منذ ذاك العهد وهم لا يعرفون وجه تسميتهم هذه كما نجهل نحن ذلك على انهم يقولون ان دوروس وعولس كانا اولاد هيلانة وايون حفيدها

مستعمرات اليونان (١)

الاستعمار اليوناني لم يقتصر الهيلانيون على سكنى بلاد اليونان فقط بل قام منهم طوارئ من اهل المدن انشؤا بلدانًا في جميع الانحاء المجاورة وكانت عدة من هذه الممالك الصغيرة اليونانية في جميع جزائر الارخبيل وعلى جميع شاطئ آسيا الصغرى واقريطش وقبرص وفي كل ما احاط بالبحر الاسود الى بلاد القافقاس والقريم على طول البلاد العثمانية في اوربا (المعروفة اذ ذاك بتراسيا) وعلى شاطئ افريقية وفي صقلية وايطاليا الجنوبية الى شواطئ فرنسا واسبانيا

اخلاق هذه المستعمرات — يبدأ تاريخ المستعمرات اليونانية من قرون كثيرة اي من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس وهذه المستعمرات اشتقت من كل المدن ونتجت عن كل جنس دوريًا كان او ايونيًا او ايوليًا . ولطالما قامت المستعمرات في اماكن قفرة تارة وفي بلاد مأهولة اخرى أُسست حينًا بالفتح وآونة بالاتحاد مع السكان وانشأها تجارة او تجار او منفيون او متشردون . وتمتاز هذه المستعمرات على اختلاف زمانها ومكانها وجنسها واصلها بخلق عام وانها نشأت دفعة واحدة بمقتضى قواعد ثابتة . وما كان الطوارئ او المستعمرون من اليونان يحلون في بلد واحدًا بعد واحد عصابات صغيرة ولم ينزلوا بقعة عرضا فيقيمون لهم مساكن تصبح بالتدريج مدينة على نحو ما يفعل الطوارئ من الاوربيين في اميركا اليوم بل كان الطوارئ منهم يسافرون قضهم وقضيضهم دفعة واحدة ورئيسهم واحد فنؤسس

---

(١) جاء هذا الفصل متأخرًا عن هذا بضعة فصول في الطبعة الاخيرة

البلدة الجديدة في يوم واحد . وكان تاسيس احدى المدائن يعدُّ احتفالاً دينياً في
المؤسس لها سوراً مقدساً ويجعل بيتا مباركاً يوقد فيه ناراً مقدسة

تقاليد المستعمرات — يتضح مما نقل من القصص القديمة في تأسيس بعض
المستعمرات وجه الاختلاف بينها وبين المستعمرات الحديثة . واليك كيفية استعمار مد
مرسيليا والبداءة به فقد جاء الى بلاد الغال (فرنسا اليوم) اوكسينس احد اهالي مد
فوسي في آسيا الصغرى على سفينة تجارية فدعاه احد زعماء الغاليين الى عرس ابنته و
عادة هذا الشعب ان تدخل العروس بعد الطعام حاملة كأساً تقدمها لرجل تختاره من الج
فوقفت امام اليوناني ومدت الكأس نحوه . فظهر للقوم ان هذا العمل كان بالهام من ال
اذ لم يكن متوقعا . فما كان من الزعيم الغالي الا ان زوج اوكسينس من ابنته وسمح له
يؤسس ورفاقه مدينة على خليج مرسيليا ثم لما رأى اهل فوسي ان الجيش الفارسي يحا
مدينتهم قاموا يعدون لهم سفناً تقلُّ عيالهم واثقالهم واصنامهم وحليّ معابدهم وغادروا بر
ماخرين في سفنهم واقسموا عند منصرفهم ان لا يعودوا اليها الا اذا عامت على وجه
الحديدة المحماة التي القوها في البحر . وقد نكث كثير منهم هذا العهد وعادوا الى مس
رؤوسهم اما الباقون فظلوا يشقون العباب بعد العباب حتى وصلوا الى مرسيليا بعدان تجشم
اهوالاً كثيرة . واسس الايونيون مدينة ميلت تاركين نساءهم وراءهم واست
على بلد يقطنها ناس من آسيا فذبحوا الرجال وتزوجوا بنسائهم وبناتهم قسراً . وي
ان هؤلاء النساء اقسمن ان لايتناولن الطعام مع ازواجهن وان لايناديهم بيا ازواج
عادة بقيت قرونا يعمل بها عند نساء ميلت . اما مستعمرة برقة في افريقية فقد أسس
بامر صريح من المعبود ابولون ووحي منه . فلم يكن سكان مدينة تيرا الذين أمروا بذ
يحاذرون من نزول بلد مجهول ولم يعملوا بهذا الامر الا بعد سبع سنين وكانت جزير
عرضة للجفاف فاعتقدوا ان ابولون ساقهم الى تلك الجزيرة عقاباً منه لهم . وحاول الطوار
الذين انفذوهم ان يرجعوا فداهمهم مواطنوهم واكرهوهم على السفر . وبعد ان قضوا عا
في احدى الجزر وقد خانتهم فيها اسباب النجح انتهى بهم الحال ان يستوطنوا ابد الدهر مدينة
فكان منها مدينة عامرة راقية .

خطورة المستعمرات — من شأن هذه الطواريء ان تؤسس حكومة جديدة في
مكان تنزله ولا تخضع لأم القرى التي انفصلت عنها بتة . وهكذا بلغت الحال بان
البحر المتوسط محاطاً بمدن يونانية كل منها مستقلة تمام الاستقلال . فاصبح كثير من ا
المدن آية في غناه وقوته لم تضاهه بهما المدن التي خرجت منها وكان لها اصقاع او

وخصب وسكان او فر واكثر . ويقال انه كان في مدينة سيباريس في ايطاليا ثلثمائة الف رجل يحمل السلاح وان كروتون جيشت جيشاً مؤلفاً من مئة وعشرين الف مقاتل وذاقت سيراكوزه في صقلية وميلت في آسيا بقوتهما مملكتي اسبارطة وآثينة وكان يدعى جنوب ايطاليا يونان الكبرى . وما كانت المملكة الاصلية غير بلاد صغرى بالنسبة لتلك المملكة المأهولة كلها بالطواريء من اليونان . وحدث ان كان الهيلانيون اوفر عدداً في البلاد المجاورة منهم في بلاد اليونان نفسها . وترى بين رجال تلك المستعمرات طائفة صالحة من المشاهير مثل هوميروس والسيوس وسافوس وطاليس وفيثاغورس وهيراقليطس ودموقريطس وانفيدكلس وارسطوطاليس وارخميدس وتيوكريتس وغيرهم

المدن - ظل اليونان منقسمين الى طوائف صغيرة في كل البلاد التي نزلوها كما كانوا على عهد هوميروس . وغير خاف ان ارض يونان وايطاليا الجنوبية متقطعة بالبحر والجبال ولذلك انقسمت بالطبع الى عدد كثير من المقاطعات الصغيرة كل منها منفردة عن جارتها برأس من البحر او بجدار من الصخر بحيث يسهل الدفاع عنها وتصعب المواصلات فكانت تتألف من كل مقاطعة حكومة على حدتها تدعى مدينة وقد بلغت اكثر من مئة مدينة . واذا احصيت المستعمرات بلغت زهاء الالف (١) وليست مملكة اليونانية الا صورة مصغرة بالنسبة الينا فان ايتكيا كلها لا تساوي نصف اصغر مقاطعات فرنسا لهذا العهد اما اراضي كورنت او ميكار فقد صارت ريفا ومزارع . ومن العادة ان يكون ما يعبرون عنه بمملكة عبارة عن مدينة وساحل ومرفأ أو بضع قرى مبعثرة في الفلاة حول قلعة فترى من المملكة الواحدة قلعة المملكة الثانية وجبالها اومرفأ المملكة المجاورة وكثير من هذه الممالك لا يسكنه اكثر من بضعة ألوف من الناس واعظمها لا يكاد يكون فيه مئتان او ثلثمائة الف نسمة . وبعد فلم يؤلف الهيلانيون او اليونانيون أمة برأسها ولا انفكوا من التقاتل والتقاطع على انهم تكلموا لغة واحدة على حد سواء وعبدوا آلهة واحدة وعاشوا عيشة واحدة منذ شطوط اسبانيا الى طرف البحر الاسود . فكانوا بهذه العلامات يتعارفون كما يتعارف ابناء نبعة واحدة ويمتازون عن سائر الامم التي يدعونها البرابرة فينظرون اليها نظر الاستخفاف والامتهان .

الديانة اليونانية

تعدد الارباب - اعتقد اليونان اعتقاد سائر قدماء الآريين بارباب كثيرة ولم يكن لهم شعور باللانهاية ولا بالازلية ولم يؤمنوا برب واحد تكون السماء سرادقه والارض مملكه

---

(١) في الطبعة الاخيرة حذف المؤلف هذه الفقرة الطويلة كلها الى آخر الفصل

ومرتقاه . واعتقد اليونان ان كل قوة في الطبيعة من هوائها وشمسها و بحرها هي قوة الهية ونسبوا كلاً من هذه القوى الى رب خاص اذ لم يدركوا ان علة واحدة تنتج كل هذه الاكوان ولذا عبدوا عدداً عديداً من هذه الآلهة فكانوا وثنيين على هذا النحو .

نسبة الشهوات البشرية ودعوى تجسد الرب -- كل رب هو قوة من الطبيعة وله اسم خاص به ولشدة تصوّر اليونانيين وسعة خيالهم مثلت لهم اذهانهم تحت هذا الاسم كائناً حياً في ابهى المظاهر من الصور البشرية وكانوا يتمثلون المعبود او المعبودة على صورة رجل جميل الطلعة وامرأة وسيمة المحيا وعندما كان عولس او تيليماك يصادفان رجلاً عظيماً وسيماً يبدآن بسؤاله عما اذا كان رباً من الارباب . وقد صوّر على ترس البطل آشيل صورة جيش . قال هوميروس في وصفه له : ان اريس واتينيه كانا يقودان الجيش وكلاهما متشح بالذهب وكانا من الجمال والاعتدال على صورة تليق بالارباب اذ البشر اقزام قصار القامات وكان الارباب اليونانيون بشراً يلبسون ثياباً ولهم قصور واجساد كاجسادنا وهم ان لم يموتوا يجرحون . وذكر الشاعر هوميروس كيف ان احد المحاربين جرح الرب اريس فراح يصرخ من الالم . وهذا الضرب من اختيار الارباب على مثال البشر هو ما يدعى « انتروبومورفيسم » اي تجسيد الارباب .

علم الميثولوجيا - - للارباب اقرباء واولاد ورهط واسرات لانهم ناس كالآدميين فامهم ربة واخوتهم ارباب واولادهم ارباب غيرهم او ناس هم نصف ارباب . وتدعى انساب هذه الارباب تيوغونيا . وللارباب تاريخ وحوادث ولهم قصص في مواليدهم واخبار شبيبتهم واعمالهم . فالرب ابولون مثلاً ولد في جزيرة ديلوس وكانت لجأت اليها امه لاتون وقتل غيلاناً كان قد خرب تلك البلاد في سفح جبل البارناس . وهكذا كان لكل مقاطعة يونانية اخبار تعزوها لاربابها سموها الخرافات ومن مجموعها تتألف الميثولوجيا اي تاريخ الارباب .

الارباب الحليون -- بقي الارباب اليونانيون وهم على صفتهم البشرية على ما كانت عليه اولاً كوائن طبيعية فكان القوم يتخيلونها كما يتخيلون البشر وقوى الطبيعة فقد كانت النايادا فتاة جميلة ونبعاً منبجساً في آن واحد . وتخيل هوميروس الشاعر ان نهر جزيرة الزانت هو رب وقال فيه (لقد تدفق نهر الزانت على البطل آشيل وهو يزيد غيظاً ويرغي حنقاً ويخر طافحاً بالزبد والجثث) وظلت الامة تقول ان الرب زيوس ينزل المطر ويرسل الرعد . وكان اليوناني يعتقد ان الرب عبارة عن مطر وسيل وسماء او شمس لا السماء والشمس والارض على الجملة . وكان ربه مسامتاً للسماء التي تظله والارض التي تقله والنهر الذي يعله . فمن ثم كان لكل مدينة ارباب ومعبودات كثيرة فمن رب الشمس الى ارباب الارض الى رب

البحر وكانت تلك الارباب منفصلة عن شمس البلد المجاورة وارضها وبحرها يعني انه كان لاهل كل مقاطعة ربها ومعبوداتها الخاصة بها . فليس رب اسبارطة زيوس ربًا لآثينة زيوس بعينه وربما كان يذكر في قسم واحد ربان تحت اسم اتينيه او ربان تحت اسم ابولون. ذكر احد من طائف بلاد اليونان من السياح انه شاهد الوفًا من الارباب كانت تدعى ارباب المدينة ولم يكن هناك سيل ماء ولا غابة غبياء ولا اكمة شماء الا وهي مؤلهة (١) ولها صفة لا يشاركها فيها غيرها وربما كان هذا المعبود صغيرًا لا يعبده الا ناس من اهل الجوار وما مزاره غير مغارة في الصخر .

الارباب الكبيرة -- وهم اليونان ان فوق طوائف الارباب الكثيرة الصغيرة المنبثة في كل مقاطعة بضعة ارباب كبيرة كالسماء والشمس والارض والبحر المدعوة بهذا الاسم ولها في كل مكان معبد خاص او مزار يتقرب فيه اليها وكانت تمثل كل من هذه الارباب اهم القوى الطبيعية وما اكثر عدد هذه الارباب التي اشتركت امم يونان كافة في التقرب اليها فانك لو احصيتها لاتكاد تصل في عدها الى العشرين . ومن سوء عاداتنا معاشر الافرنج ان ندعو هذه الارباب باسماء ارباب لاتينية واليك حقيقة اسمائهم :

زيوس (المشتري) هيرا(جونون) اتينيه (منرفا) ابولون ارتيمس (ديان) .. هرميس (عطارد) - هيفز توس (فولكين) هيستيا (فيستا) اريس (المريخ) افروديت (الزهرة) بوزيدون (نبتون) انفيتيريت بروته - كرونوس(زحل)- ريهيا (سيبيل) ديميتير (سيريس) برسيفونه (بروزربين) هاديس (بلوتون) ديوينزوس (باخوس) . وهذه الزمرة من الارباب هي التي كانت تعبد في كل المعابد على الجملة ويتوسل اليها في الصلوات

خصائص الارباب -- لكل من هذه الارباب هيئته وهندامه وادواته المدعوة خصائص هكذا تصورها المؤمنون من ابناء يونان وهكذا مثلها النقاشون منهم . ولكل خلقه المعروف به بين عابديه ولكل منها عمله الخاص به في العالم ويقوم بوظائف معينة وذلك بمعونة ارباب ثانوية تطيعه في العادة ويتصرف فيها بامره . فالرب اتينه مثلاً هو على صورة عذراء ذات عينين براقتين مثلث قائمة وهي تحمل رمحًا وعلى رأسها خوذة وعلى صدرها سلاح لامع وهي عندهم ربة الهواء النقي والحكمة والاختراع وعلى جانب من الهيبة والشراسة .

ومثل هيفيزتوس رب النار حاملاً بيده مطرقة على صورة حداد اعرج قبيح الهيئة وزعموا انه ينزل الصاعقة . وان الربة ارتيمس كانت عذراء متوحشة تحمل قوسًا وكنانة

(١) يقول الشاعر از يودس اليوناني انه كان في بلاده ثلاثون الف رب

وهي تطوف الغابات تتصيد مع زمرة من الجنيات وهي ربة الغابات والصيد والموت . اما هرميس الذى قثلوه لابسًا نعالاً مجنحة فهو رب المطر المخصبة وله اعمال اخرى وهو رب الاسواق والاماكن ورب التجارة ورب السرقة ورب الفصاحة يسري بارواح الموتى ويمشي في السفارات بين الارباب ويقوم على تربية الحيوانات . وللرب اليوناني ابداً عدة وظائف في الغالب هي في نظرنا متخالفة غير ان اليونان تخيلوا ان بينها تشابهاً ويرتأون لها صلة وعائداً

الاولمب وزيوس — كل من هذه الارباب اشبه بملك في مقره ومع هذا فقد لاحظ اليونان ان جميع قوى الطبيعة لاتسير بالتصادف وانها تعمل يداً واحدة فكانوا يطلقون اللفظ الواحد للتعبير عن النظام والعالم ففرضوا ان الارباب اتحدت على تسيير نظام العالم وانه كان لهم شرائع وحكومة كما للبشر . وكنت ترى في شمالي اليونان جبلاً ذا قمم مكسوة بالثلج لم يصعد اليه بشر واسمه الاولمب وعلى هذه القمة المستورة عن اعين الناس بما يتراكم عليها من الضباب توهم اليونان ان الارباب يعقدون جلساتهم فيجتمعون مستنيرين بنور سماوي يتفاوضون في شؤون العالم وعظيمهم زيوس (المشتري) يرأس تلك الجلسات لانه رب السماء والنور والرب الذي يؤلف السحاب ويرسل الصواعق وصوروه على مثال شيخ مهاب ذي لحية بيضاء جالس على عرش من ذهب وهو الذى خص بالزعامة دون سائر الارباب ولذلك تراها تخضع له فاذا بدرت من احدها بادرة المقاومة في امر يتهددها زيوس واليك ما ذكره هوميروس على لسانه « اعقدوا في السماء سلسلة من ذهب وتعلقوا بها انتم معاشر الارباب ذكوراً كنتم او اناثا ولو بذلتم الجهد كلكم لا تجرون زيوس الى الارض وهو الملك الآمر وعلى العكس اذا اردت ان اجذب السلسلة الي فانا جاذب الي الارض والبحر ثم اعلقه بقمة الاولمب ويبقى العالم كله معلقاً مصلوبا ما دمت اعلى منزلة من الارباب والبشر »

آداب الميثولوجيا اليونانية -- وهم اليونان ان معظم اربابهم من القسوة والسفك والخداع والسفاهة على جانب فاخترعوا لهم اخباراً سفيهة واعمالاً نابية عن طور اللياقة . فكان هرميس بزعمهم لصاً واشتهرت افروديت بغنجها وخفرها واريس بقسوته وكانوا كلهم من العجب بحيث لاينفكون عن اضطهاد من تساهل في تقديم الضحايا لهم . ولما أعجبت نيوبي ملكة ثيبة بكثرة أسرتها لم يصعب عليها ان رأت الرب ابولون يصمي اولادها بالسهام ويمزقهم كل ممزق . وكان من حال تلك الارباب في الحسد بحيث لا تتمالك من رؤية انسان بلغ غايات السعادة . فاليونان رأوا السعادة من اعظم الاخطار لانها تجلب غضب الارباب حتماً ولذلك ابتدعوا ربة للغضب والانتقام سموها نميزيس ويذكرون ذا قصصاً كالآتية مثلاً : ذلك ان بوليكراتس الظالم من اهل جزيرة سيسام خاف يوماً حسد

الارباب اذ غدا ذا طول وحول وكان يملك خاتم ذهب له موقع كبير من نفسه فالقاه في اليم لئلا تكون سعادته مشوبة بالشقاء ثم ان صياداً احضر لبوليكراتس ذات يوم سمكة عظيمة وجد خاتمه في جوفها فكان ذلك بنظره شؤماً دالاً على وقوع المصيبة الاكيدة. فحوصر بعد في مدينته وأخذ وصلب وعاقبه ارباب يونان على سعادة نالها وحظ من النعم اصابه .

عرف بهذا ان الميثولوجيا اليونانية كانت عارية عن الاخلاق اذ كان الارباب قدوة سيئة للناس قال ذلك فلاسفة اليونان وضيقوا على الشعراء الذين نشروا هذه الحكايات وذكر احد تلاميذ فيثاغورس ان معلمه اطلع على الجحيم فرأى فيه روح هوميروس الشاعر مصلوبة في شجرة وروح ازيودس الشاعر مدلاة في دعامة عقوبة لهما على اهانتهما الارباب وقال كسينوفان ان هوميروس وازيودس قد نسبا للارباب اعمالاً من شأنها ان تكون عاراً بين البشر وشناراً عليهم وهناك إله واحد لا يشبه البشر باجسادها ولا بعقولها وكان يزيد على ذلك قوله : لو كان للبقر والاسود ايدٍ واستطاعت ان تصور كالناس لصنعوا للارباب اجساداً تشبه اجسادهم ولجعلت الخيل للارباب اجساداً كالخيل والبقر. والناس يذهبون الى ان للارباب احساساً وصوتاً وجسداً . هذا قول كسينوفان وهو من الحق والعدل بمكان اذ قد جعل اليونان الأول اربابهم على صورهم مثل ما كانوا عليه في ذاك العهد سفاكين غدارين حسودين معجبين وكذلك كان اربابهم . ثم صاروا على نسبة التحسين في اخلاقهم ينشأ اخلافهم متبرمين من هذه المبادي، كلها عازفين عنها ولكن تاريخ الارباب واخلاقهم كانت مقررة بحكايات قديمة اخذها اهل الاجيال الحديثة ولم يجرأوا على تغيير ارباب اجدادهم الفظة السفيهة بغيرها

ابطالهم

البطل — البطل في بلاد اليونان رجل معروف يغدو بعد موته روحاً ذات سلطان ولا تتم لهُ الربوبية بل ينال منها نصفها فمن ثم لا يسكن الابطال في الاولمب في سماء الارباب ولا يدبرون شؤون العالم اجمع ولهم مع هذا ايضاً سلطة فوق كل سلطة بشرية يغيثون بها احبابهم ويهلكون اعداءهم . ولذا عبدهم اليونان عبادتهم للارباب واستغاثوا بهم وتضرعوا اليهم . وما من مدينة او قبيلة او أسرة الاَّ ولها بطل خاص بها وهو عبارة عن اشباح متخيلة تحميها فتعبدها وتتقدم اليها بانواع القربات .

ضروب الابطال — ومن هؤلاء الابطال فئة اشتهرت في الاساطير وعدت من الاعيان مثل اشيل واوليس واغاممنون ولا شك في ان بعضهم لا حقيقة لهم قط مثل هيراكليس واديب . وليس بعضهم إلاَّ اسماء لا مسميات لها مثل هيلين ودوروس وعولس

غير ان عبدتهم ينظرون اليهم نظرهم الى اشخاص قدماء وقد عاش معظم هذه الارباب وبعضهم من الاعيان قد ذكرهم التاريخ وكانت لهم اعمالهم مثل لبونيداس وليزاندر وكانا من القواد وديمقراط وارسطو وكانا فيلسوفين وليكورك وصولون وكانا مشرعين . وعبد اهل مدينة كروتون احد مواطنيهم فيلبس لانه كان اجمل اهل زمانه في بلاد اليونان . وكان الزعيم الذي يقود الطواريء ويؤسس مدينة يعد بين السكان البطل المؤسس فيقيمون له معبداً وينقربون اليه كل عام بانواع النذور والقربات . وهكذا كان ملتياديس الآثيني يعبد في مدينة من اعمال تراسيا وبرازيداس الاسبارطي الذي قتل في دفاعه عن امفيبوليس كما يعبد في هذه المدينة اذ اعتبره السكان مؤسسا لبلدهم .

حضور الابطال -- يظل البطل ساكناً في البلد التي دفن فيها جسده سواء كان في قبره او في الجوار . وقد وصف هيرودتس هذا المعتقد فكانت مدينة سيسيون تعبد البطل ادراتس فاقامت في الساحة العامة مصلى اكراماً له . ولقد ارتأى كليستين جبار سيسيون ان يتخلص من هذا البطل فراح يسأل هاتف دلفيس عما اذا كان يفلح في طرد ادراتس . فاجابه الهاتف بقوله : ان ادراتس كان ملك السيسونيين وانه لص وقاطع طريق فلما لم يستطع كليستين ان يطرد ذاك البطل عمد الى الحيلة فبعث الى ثيبة يبحث عن عظام بطل آخر اسمه ميلانيبس وجعلها في مقبرة المدينة باحتفال حافل . قال هيرودتس انه عمل كذلك لان ميلانيبس كان من ألد اعداء ادراتس قتل له صهره واخاه . ثم جعل تلك الاعياد والنذور تقدم الى ميلانيبس بعد ان كانت تقدم الى ادراتس زمناً وراح يقنع وسائر اليونانيين ان البطل المتناظر يركن الى الفرار .

مداخلة الابطال -- للابطال قوة الاهية ففي وسعهم كما في وسع الارباب ان يفعلوا الخير والشر كما يشاؤون . ولقد اخطأ الشاعر ستيزيشور في كلامه على هيلانة المشهورة (تلك التي جيء بها الى طروادة على نحو ما ورد في الاساطير) فكف بصره للحال حتى اذا رجع عن كلامه عاد بصيراً . ويزعمون ان هيلانة صارت نصف ربة بعد موتها فارسلت الشاعر بالداء باديء بدء ثم اتبعته بالدواء . ويدعون ان الابطال الحامية لبلد تدفع عنها الادواء والمجاعة وتذب عن حياضها من غارة الاعداء . وقد زعم الجند الآثيني انهم رأوا بين صفوفهم في حرب ماراثون تيزيه بطل آثينة ومؤسسها وقد تدجج بسلاح لامع في حرب سلامينة وظهر البطلان اجاكس وتيلامون اللذان كانا فيما مضى ملكي جزيرة سلامينة في اعلى ذروة منها باسطين ذراعيهما نحو الاسطول اليوناني . قال تيموكلس (وما قهرنا الفرس اذ قهرناهم ولكن الارباب والابطال قهروهم) وفي احدى روايات سوفقلس

(اديب الى تولون) بينا كان اديب مشرفاً على الموت زاره ملك آثينة وملك ثيبة واراده كلاهما على الرضا بترك جثته تدفن في ارضها ليكون بطلاً حامياً لها فاجاب طلبهما في ان يدفن في بلاد الآثينيين وقال للموكب : اني لا اكون بعد موتي خالياً من النفع في هذا القطر بل اكون ركناً ركيناً لا تقاويه الوف الالوف من المحاربين . وكان يرى ان بطلاً واحداً يساوي جيشاً برمته ويرهب بأس هذا الشيخ ولا رهبة الاحياء اجمعين .

العبادة

بدء عبادة الارباب — كان الارباب والابطال على ما لها من الحول والطول ينشرون في الناس جماع الخيرات والسيئات كما يشاؤون فكان من الخطر ان يكونوا على المرء إلبًا ومن العقل ان يكونوا واياه يداً واحدة . ولقد ذهب القوم الى انهم كانوا اشبه بالبشر يسخطون اذا تركوا وشأنهم ويرضون اذا عني بهم . وعلى هذا الفكر نشأت العبادة فكانت عبارة عن اتيان صالح الاعمال مع الارباب لنيل رضاهم . وقد صرح افلاطون بالرأي العام كما يلي قال : (ان الاضطلاع بالقول والقيام بصالح الاعمال مع الارباب سواء كان في الصلوات او في النذور هو من التقوى التي بها نجاح الخاصة والبلاد وعكسها هو الشقاء الذي به تثل عروش الممالك وتندك معالم العمران) يقول كسينوفان في آخر كتابه الفروسية ان الارباب لا يرضون عمن يفزعون اليهم في حاجاتهم فقط بل يرضون عمن يكرمهم في بحبوحة النجاح . فالديانة كانت باديء بدء عهداً وميثاقاً فكان اليوناني يسعى في استرضاء الارباب وينال من لدنهم مقابلة ذلك منافع ومغانم قال احد كهنة ابولون لمعبوده « اني قد احرقت من اجلك ثيراناً سمينة منذ زمن طويل فاقبل الآن تضرعاتي وادم بسهام غضبك اعدائي »

الاعياد العظيمة — زعم اليونان ان لاربابهم احساساً وعواطف كعواطف البشر ولذلك عنوا بالقيام بكل ما يسترضي به الانسان فكانوا يقدمون لهم لبناً وخمراً وحلواء وفاكهة ولحماً وينشئون لهم قصوراً ويحتفلون اكراماً لهم باعياد اذ كانت تلك المعبودات ارباباً سعيدة تحب الفرح والمناظر الجميلة . وما كان العيد كما هو الحال عندنا اليوم عبارة عن افراح بل كان احتفالاً دينياً يضرب في خلاله عن الاعمال وتأخذ الامة في ابداء مظاهر المسرة على رؤوس الاشهاد امام المعبود . فمن ثم كان اليوناني يسر بهذه الاعياد ويحتفل بها اجلالاً لاربابه ومعبوداته لا قياماً باهوائه الخاصة وشهواته . جاء في نشيد قديم اكراماً للمعبود ابولون ان الايونيين يدخلون السرور عليك بما يقومون به من مطاعنتهم المعهودة وغنائهم ورقصهم .

الالعاب الاحتفالية -- نشأت الالعاب الاحتفالية من هذه المسليات التي كانت تقام اعظاماً للارباب فكان لكل مدينة ضرب من ضروبها تكرم بهامعبوداتهاوما كانت في العادة تقبل لمشاركتها بها غير ابناء وطنها ومع هذا فقد كانوا يقومون بالعاب يشترك بها جماع ابناء يونان ويحضرونها وذلك في اربعة اماكن من البلاد اليونانية . وتدعى الالعاب الاربعة العظيمة واخص تلك الالعاب العاب اولمبيا . يحتفل بها كل اربع سنين اكراماً للمعبود زيوس وتدوم خمسة ايام او ستة فيأتي دهماء اليونان من اطراف البلاد تغص بهم الملاعب والمشاهد ويأخذون في تقديم الضحايا والتقرب بالصلوات الى المعبود زيوس (الشمس ؟) وسائر الارباب ثم يتبارى القوم في الاعمال الآتية : عدو على الاقدام حول الملعب . قتال يعرف عندهم بالبانتاتل لانه كان عبارة عن خمسة العاب فيقفز المتبارون ويركضون من طرف الملعب الى طرفه الآخر ويقذفون الى بعد بطارة من معدن ويرمون الحراب ويتقاتلون بالايدي والابدان . ثم ملاكمة بجمع الاكف يتقاتلون فيها واذرعهم مستورة بسيور من جلد . ومسابقة عجلات كانت تجري في الميدان والعجلات خفيفة يجرها اربعة جيادو يتصدرالقضاة في الالعاب بالبستهم القرمزية وقد تتوجوا باكاليل الغارفينادي المنادي بعد القتال باسم الظافر واسم بلده على رؤوس الاشهاد ويكافأ بتاج من الزيتون جزاء ما وفق له ويستقبله مواطنوه استقبال الظافر الفاتح وربما خرقوا خرقاً في حائط ليمروا به منه فيقبل نقله مركبة تجرها اربعة من الجياد لابسا القرمزي والشعب كله يخفره . كان يعدهذا النصر الذي نعده اليوم من اعمال المصارعين في المحال العامة من احسن الاعمال واولاها على ذاك العهد يحتفل بها اعظم الشعراء ولم يكن هم بينداراشهرشعراء الاغاني القدماء غير نظم المقاطيع في سباق المركبات . ويروى ان احدهم واسمه دياكوراس رأى في يوم واحد ولدين له وقد توجا فحملاه على اعين القوم حمل الظافرين فلما شاهد الشعب ان امثال تلك السعادة عظيمة جداً بالاضافة الى الميت ناداه : مت يادياكوراس اذ ليس في وسعك ان تكون بعد معبوداً . فضاق ذرع دياكوراس من الاضطراب ومات بين ايدي ولديه وفي نظره ونظر ابناء يونان ان رؤية ولديه واكفهما قوية شثنة وسوقهما سريعة كان ذلك منتهى السعادة الارضية . وعلى هذا يحق لليونان ان يعجبوا بالقوة الطبيعية فقد كان اقوى المصارعين من احسن الجند في الحروب التي يتقاتلون فيها جسداً لجسد .

الفأل -- كان اليونان يرجون من آلهتهم اعمالاً كبيرة لقاء تلك الواجبات والاعياد والاحتفالات فكانت المعبودات تحمي عبدتها وتسبغ عليهم برود العافية والغنى والنصر وتقيهم المصائب والنوائب التي يتوقعون نزولها ترسل علامة من لدنها يفسرها الناس . وهذا ما كان

يدعى بالفأل · قال هيرودتس كان اذا اقتضى لاحدى المدن ان تمتحن ببعض الخطوب يتقدمها على ذلك علامة في العادة · ولقد تفاءل اهل شيو (صاقز ؟) تفاؤلاً دلهم على ما ينالهم من الهزيمة فلم يرجع من مئة فتى بعثوا بهم الى دلفيس يترنمون و ينشدون سوى فتيين وهلك سائرهم بالوباء · وعلى ذاك العهد انقض سقف مدرسة المدينة على اطفال كانوا يتعلمون القراءة فلم ينجُ منهم سوى طفل واحد وكان عددهم مئة وعشرين · هذه هي الامارات التي قدم الارباب ارسالها على ابناء يونان تنذرهم وتبشرهم · ولقد كان اليونانيون يرون الاحلام والطيور التي ترفرف في السماء واحشاء الحيوانات التي يتقربون بها لاربابهم بل وكل ما يقع نظرهم عليه من الزلزال والكسوف الى عطسة يعطسها المرء - يرون كل هذه الامور الطبيعية امارات الهية فيها سعادتهم وشقاؤهم ففي حملة صقلية بينا كان نيسياس القائد الآثيني يركب جيشه المنهزم في السفن اوقفه خسوف القمر فظن ان الارباب بعثت بهذه العجيبة تنذر الآثينيين ان لا يتموا ما بداوا به من الاعمال الحربية فاضطر نيسياس الى الانتظار سبعة وعشرين يوما وهو يقدم القرابين تسكيناً لغضب الارباب · فسد الاعداء في هذه الفترة ميناء المدينة وحطموا اسطولها و بددوا شمل جيشها · ولم يرَ الآثينيون لما بلغهم هذا النبأ سوى امر واحد نجوا من اجله نيسياس وذلك انه كان عليه ان يعرف ان اختفاء القمر بالنظر الى جيش منهزم علامة حسنة · وفي غضون العودة المعروفة بعودة العشرة آلاف خطب القائد كسينوفون في جنده فلما انتهى الى هذه العبارة : « لنا الامل الوطيد ان نرجع والمجد اليفنا بمعونة الارباب » عطس احد الاجناد على الاثر فاخذ الجيش يصلي و يضرع الى الرب على ان بعث لهم هذا الفأل فهتف كسينوفون : الا فننذر بتقديم ضحايا لزيوس اذ بعث الينا ما نتفاءل به بينا نحن نتفاوض في سلامتنا ·

هاتف الغيب — كان الرب في الاحايين يجيب سؤل من يدعوه و يستشيره من المؤمنين لا باشارة صماء بل على لسان احد الملهمين من علية الناس فيأتي القوم مزار رب ينشدون اجوبة يتلقونها ونصائح يستنصحون بها وهذا هو معنى الهاتف بالغيب · وانك لترى في اماكن كثيرة من بلاد اليونان وآسيا جملة صالحة من الهاتفين بالغيب واشهرهم في دودون من بلاد ابيروس ودلفيس في سفح جبل البارناس فكان الرب زيوس في دودون يجيب دعوة المضطرين بدوي اشجار البلوط المقدسة والرب ابولون كان المستنصح في دلفيس وكان يسري في مغارة من معبده من شق التراب مجرى نسيم ظن اليونان ان الرب بعث به لانهُ ما استنشقه انسان الا وخرف وجن ولذا وضعوا اثفية على شق الارض وهي عبارة عن امرأة (بيسيا) فتجلس على تلك الاثفية بعد ان تستحم في حمام مقدس وتقبل الالهام

فما هو الاَّ ان يأخذها شيءٌ من البحران العصبي حتى تبدأ تصرخ اصوات وتتفوَّه بكلمات منقطعة فيتلقاها منها كهنة يجلسون حولها فينظمونها شعرًا ويقصونها على من جاء يستنصح فكان هتاف الغيب من بيسيا هذه مشوّشاً ملتبساً . ولما سألها كريزوس عما اذا كان يجب عليه ان يشهر على الفرس حربًا اجابته بقولها (ان كريزوس يدمر مملكة عظيمة) ثم ان مملكة عظيمة تقوّضت اركانها ولكنها كانت مملكة كريزوس . وكان للاسبارطيين ثقة عظمى بالبيثيا ولم يكونوا يسيرون حملةلهم دون استشارتها وقد اقتدى بهم سائر اليونانيين وهكذا اصبحت دلفيس مبعث الهاتف الوطني .

الامفكتيونيا — ألف اثنا عشر رجلاً من اعيان الشعوب اليونانية جمعية سموها الامفكتيونيا حبًا بحماية قبر دلفيس فكان يجتمع نوّاب هذه الشعوب كل سنة في دلفيس للاحتفال بعيد ابولون وللنظر فيما اذا كان المعبد يخشى عليه من مدّ يد الاذى لانه كان فيه ثروة عظيمة ربما تدعو اللصوص ان ينهبوه . وقد صادر اهل سيرا وهي المدينة القريبة من دلفيس هذه الكنوز الثمينة في القرن السادس فاعلن عليهم اولئك الاعيان المشار اليهم حرب من استباح الامور المحظورة وخرق سياج المقدّسات فأُخذت سيرا وهدمت من اساسها و بيع سكانها بيع الرقيق واصبحت ارضها كأن لم تغن بالامس .

ومع هذا فلا ينبغي ان يذهب ذاهب الى ان مجمع الامفكتيون اشبه في وقت من الاوقات مجلسًا يونانيًا . بلى انهُ لم يعن الاَّ بمعبد ابولون لا بالشؤون السياسية وما قط ضرب على ايدي شعوب الامفكتيون حتى لا يثيروا بينهمْ دواعي الشقاق فالهاتف الغيبي والامفكتيونيا في دلفيس كان لهما من السطوة حظ اوفر من سطوة الهاتفين والامفكتونيين ولكنهُ ما ضم قط اشتات اليونانيين وجعلهم امة قائمة برأسها

اسبارطة

شعبها

لاكونيا — لما هاجم اهل الجبال من الدوريين شبه جزيرة المورة نزلت اعظم عصابة منهم في مقاطعتي اسبارطة ولاكونيا ومقاطعة لاكونيا وادٍ ضيق يشقه نهر عظيم يعرف بالاوروتاس يحيط بهما جبلان عظيمان غطيت قممها بالثلوج وقد وصفهما احد الشعراء بقوله : « ايتها الارض الغنية التربة المخصبة الرباع المتعذر استنباتها واستثمارها ايتها البلدة الجوفاء المحصورة بين جبال قائمة الكثيبة في منظرها المنيعة على هجمات المهاجمين » وقدعاش الدوريون من الاسبارطيين في هذه البلاد الحصينة بين ظهراني سكانها القدماء فاصبح بعضهم

رعايا لهم وفريق منهم عبيدهم ومواليهم وبهذا انقسم سكان لا كونيا الى ثلاث طبقات وهم الهيلوتيون والبيريكيون والاسبارطيون .

الهيلوتيون — سكنت هذه الطبقة من السكان اكواخاً منتشرة في الفلاة واقاموا على حرث الارض وزراعتها وما ملكوا الاراضي التي كانوا يعملون فيها ولم يكونوا مطلقين في مغادرتها وما كان حالهم في ذلك الا حال عبيد القرون الوسطى مستأجرين تابعين للارض خلفاً عن سلف عاملين لمالكها الاسبارطي وكان يتناول منهم افضل قسم من غلاتهم . ولطالما احتقرهم الاسبارطيون وحاذروا بأسهم واساءوا معاملتهم واضطروهم الى لبس ثياب غليظة وضربوهم بلا داع ليذكروهم انهم عبيد وارقاء . وربما اسكروهم في الاحايين لينفروا ابناءهم من السكر . وقد شبه احد شعراء اسبارطة الهيلوتيين « بحمر موقورة تكبو وتنوء تحت اعباء الاحمال واعياء الضرب »

البيريكيون — سكنت هذه الفئة مئات من القرى في الجبال او على الساحل وألفوا الاسفار البحرية واتجروا وصنعوا المواد الضرورية للحياة فكانوا احراراً يديرون شؤون مزارعهم بيد انهم كانوا يؤدون ضريبة لحكام اسبارطة ويخضعون لهم .

حالة الاسبارطيين — ابغض الهيلوتيون والبيريكيون ساداتهم الاسبارطيين . يقول كسينوفون لم يكن لاحدهم عند ما تكلم في شأن الاسبارطيين ان يكتم مبلغ سروره لو تسنى له ان يأكل الاسبارطيين احياء . زلزلت اسبارطة ذات يوم وكادت تتداعى اركانها فما كان باسرع من البرق حتى انهال الهيلوتيون من اطراف الفلاة ليقتلوا الاسبارطيين الناجين من الهلاك . ثم انتقض البيريكيون وابوا الخضوع . على ان الاسبارطيين كانوا من سوء السلوك بحيث يستحقون سخطهم . ولقد امر الاسبارطيون عقيب حرب اشترك فيها كثير من الهيلوتيين في معسكراتهم ان ينتقوا من اشتهر منهم بالشجاعة ووعدوهم ان يعتقوهم وكان هذا الوعد منهم حيلة ليعرفوا بها اشجعهم نفوساً واجرأهم على ابداء نواجذ الثورة فانتخب الفان منهم طافوا بهم ارجاء المعبد متوجة رؤوسهم اشارة الى الحرية ثم ادخلهم الاسبارطيون في خبر كان ولم يعرف احد كيف هلكوا على حين كان المضطهدون عشرة اضعاف مواليهم وما قط ربا الاسبارطيون على تسعة آلاف رب أسرة يقابلهم مائتا الف من الهيلوتيين ومئة وعشرون الفاً من البيريكيين واقتضى ان يعادل واحد من الاسبارطيين عشرة من مواليهم في مسائل القتال واذ اعتادوا المصارعة قضت الحال بان يكون افرادهم اقوياء اشداء فكانت اسبارطة معسكراً لا جدار له وكان شعبها جيشاً على قدم الدفاع ابداً

التربية

الاولاد — يؤخذ اطفال هذه الامة منذ ولادتهم ليكون منهم اجناد فكل مولود يؤتى به امام المجلس فاذا وجد انه ضعيف اشوه يعرضونه على مجلس لان احوالهم اوجبت ان لا يكون جيشهم مؤلفاً الا من ارباب القوة والجلادة ثمن يستحيونهم يؤخذون من اهلهم في السابعة من عمرهم و يربون مع اقرانهم كأنهم اولاد جماعة فيروحون عارية اقدامهم وليس على ابدانهم غير رداء واحد هو وقايتهم صيفاً وشتاء و ينامون على كدس من القصب و يغتسلون في المياه الباردة من نهر الاوروتاس ويقللون من الطعام ويزدردون كثيراً واطعمتهم غليظة ليعتادوا ان لا يملأوا معدهم . ويقسمون الى سرايا كل سرية مئة رجل ولكل منها زعيم . وكثيرا ما يريدونهم على التطاعن بالارجل والاكف . و يساطون في عيد ارتيميس حتى تسيل دماؤهم امام هيكله وربما مات بعضهم متأثراً من الضرب على انهم قلما يستغيثون فيرون الشرف ان لا يرفعوا اصواتهم يريدون بذلك تدريبهم على ان يقتتلوا ويحتملوا العذاب والالم . وكثيراً ما يمنعون عنهم الطعام بتاتًا فيسرقون ما يقتاتون به فاذا خدعوا يضربون بالسياط ضربًا مبرحًا . وكان من احد اولاد الاسبارطيين كما قيل وقد سرق ثعلبًا صغيراً وخبأه تحت ثوبه ان آثر جعل بطنه فريسة للثعلب ينهشه على افتضاح امره واظهار فعلته . وكان يراد تدريب هؤلاء الاطفال على حسن التخلص في الحروب فيسيرون غاضين ابصارهم ساكتين وايديهم تحت ثيابهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة كأنما على رؤوسهم الطير امام الهياكل وكان عليهم ان لا يتكلموا على الطعام و يطيعوا كل من يلقونهم وذلك لكي يخضعوهم للنظام .

البنات — اما سائر اليونانيين فيحجبن بناتهم في البيوت ويشغلنهم بحياكة الصوف . اراد الاسبارطيون ان يقووا اجسام نسائهم ويجعلنهم من المقدرة بحيث يلدن الاقوياء من الاولاد فمن ثم كانوا يربون البنين على غرار البنات الا قليلاً . ولقد كانوا يمرنون في رياضاتهم على الركض والقفز ورمي الاطر والطعن بالحراب . وقد وصف شاعر ألعابا كانت فيها البنات كالمهارى مسترسلة شعورهن والغبار ثائر وراءهن وقد اشتهر من امرهن انهن كن اصح نساء يونان واشجعهن .

التهذيب — حياة الرجال منظمة ايضاً كحياة الجند اذ قضت الحال ان لا تنثني عزائمهم امام جمهور الاعداء فيكون الاسبارطي في السابعة عشرة من سنه جنديًا ويظل كذلك الى الستين . فكانت الازياء وساعة القيام والمنام والطعام والرياضات محددة معروفة بنظامات كما هو الحال في ثكنة الجند اليوم . فاذا لم يحارب الاسبارطي يستعد للحرب فيمرن نفسه

على العدو والقفز وحمل السلاح و يروض كل حين عامة اطراف جسمه من عنقه وذراعيه وكتفيه وساقيه . ولا يحق لهُ ان يتجر ولا ان يحترف ولا ان يحرث ارضاً فهو جندي وليس عليه ان يحيد عن مهمته بمعاطاة اي عمل كان . وليس له ان يعيش في أسرته على هواه فان الاسبارطيين يتناولون الطعام زمراً زمراً ولا يخرجون من بلادهم الا باذن وهذا يعد من باب تنظيم جيش في ديار العدو

الايجاز في الكلام — قاسى هؤلاء المحاربون شظف العيش فكانت سحناتهم صفيقة تقرأ فيها العجب والخيلاء وكانوا يختزلون الكلام اختزالاً . وهذا ما يسمى بالكلام الموجز وبالافرنجية (لا كونيك نسبة لمقاطعة لا كونيا وقد بقي منها هذا التعبير) . فكانت الحكومة تبعث الى حامية على خطر من مباغتة العدو لها برسالة لا تكتب فيها سوى كلمة (الحذر) ولقد اخطر ملك الفرس جيشاً اسبارطياً ان يطرح سلاحه فاجابه القائد « تعال خذه » ولما استولى لزاندر على آثينة لم يكتب سوى هذه الجملة « سقطت آثينه » .

الموسيقى والرقص — كانت الاشغال الاسبارطية صنائع حربية بجيش . حمل الاسبارطيون معهم ضرباً من الموسيقى خاصة بهم كانت على جانب عظيم من الوقار والحماسة والكراهة في الاسماع وهي من ضروب الموسيقى العسكرية . فيروح الاسبارطيون الى ساحة الوغى على نغمات المزمار و يسيرون على الايقاع . ورقصهم عبارة عن استعراض قائد الجند فيرقص الراقصون الرقص العسكري المألوف ببلاد يونان المدعو بالبيريك مسلحين و يتابعون عامة حركات القتال و يشيرون بالضرب والكر والفر والطعن بالحراب .

بأس النساء — عرف النساء بتحميس الرجال على القتال واشتهرت آثار شجاعتهن في يونان فكتبت فيها المصنفات . وقد قتلت امرأة اسبارطية ولدها لفراره من الزحف قائلة « ان نهر الاوروتاس لا يجري ليشرب منه الوعول » ولما علمت احدى نساء تلك البلاد ان خمسة اولاد لها هلكوا قالت ليس هذا ما اسألكم عنه فهلا كتب النصر لاسبارطة فلما اجيبت بالايجاب قالت اذاً فلنحمد الآلهة ولنشكر لهم » .

الترتيبات

الملوك والمجلس — للاسبارطيين اولاً كما لسائر ابناء يونان ملوك ومجلس شيوخ ودار ندوة وقد حفظت كل هذه الترتيبات ولكن من حيث الصورة فقط . فالملوك وهم من نسل المعبود هيراكليس يشرفون ويكرمون ولهم حق التصدر في المواضع الاولى في المآدب ويقدم لهم من الطعام ما يكفي اثنين واذا مات احدهم يلبس جميع الرعايا عليه الحداد . بيد انهم لم يتركوا لهم ادنى حكم بل يراقبونهم كل المراقبة . وكان مجلس النواب مؤلفاً من

ثمانية وعشرين شيخاً منتخبين من العيال الغنية القديمة يقومون بما ندبوا اليه مدى الحياة ولكنهم لا يحكمون ·

المفتشون — ان المفتشين (ايفور) هم السادة الحقيقيون في اسبارطة وهم خمسة حكام يتجدد انتخابهم كل عام و يناط بهم تقرير السلم والحرب وفصل القضايا · وهم يرافقون الملك في قيادة الجيش فيديرون حركة الاعمال الحربية وكثيراً ما يريدونه على الرجعة من الحرب وهم في العادة يستشيرون اعضاء مجلس الشيوخ ويقررون ماينبغي باتفاق آرائهم ثم يجمعون الاسبارطيين في احدى الساحات و يطلعونهم على ما تم من القرار ويطلبون اليهم ان يصدقوا عليه اما الامة فانها تستحسن ما تم بالهتاف دون ان تناقش في اقل مسألة · ولا يعلم فيما اذا كان للامة الحق ان ترفض ما قرر وهي التي علمت الخضوع وان لا تعاند اصلاً · وكانت هذه الحكومة حكومة اشراف مؤلفة من عدة أسرات حاكمة · فمن ثم لم تكن اسبارطة بلاد مساواة وكان فيها اناس يدعون اهل المساواة وذلك لانهم كانوا سواء فيما بينهم اما غيرهم فيدعون المرؤوسين ولم يكن لهم شيء من الحكم البتة ·

الجيش — بفضل هذه الطريقة في الحكم احتفظ الاسبارطيون باخلاقهم الجبلية القاسية فلم يكن عندهم نقاشون ولا مهندسون ولا خطباء ولا فلاسفة بل انهم انصرفوا كلهم الى الحروب وحذقوا علم الكر والفر ايما حذق وغدوا من المقننين لغيرهم من اليونانيين واتوا العالم بعملين عظيمين احسن طريقة في القتال واحسن طريقة في التدريب ·

المسلحون — كان اليونان قبلهم يسيرون الى القتال بغير انتظام فيمتطي الزعماء صهوات الخيول او عجلات خفيفة ويتقدمون صفوف الحملات والناس يتبعونهم مشاة وقد تسلح كل منهم كما اراد وقد تفرقوا طرائق قدداً وليس في وسعهم ان يكونوا يداً واحدة في العمل او المقاومة · وما هو الا ان يستحيل القتال الى مبارزات ثم الى مذابح · اما في اسبارطة فللمقاتلة باجمعهم سلاح واحد وكانت وسائل دفاعهم درعاً يغطي النصف الاعلى والخوذة تقي الرأس والمسامي (الطاقات) تقي الساق والتروس تحمل في مقدمة الجسد · اما وسائل هجومهم فسيف قصير ورمح طويل · ويسمى المسلح على هذه الصورة باسم ايبوليت · والمسلحون من الاسبارطيين مقسومون الى كتائب وسرايا وفرق وشراذم على مثال ترتيب جيوشنا لهذا العهد الا قليلاً · فكان الضابط يقود احدى هذه العصابات و يبلغ رجاله اوامر الرئيس بحيث انه يتأتى للقائد العام ان يوحد حركة الجيش كله · وهذه الطريقة التي نراها سهلة هي بالنسبة لليونان ابداع عجيب ·

مصاف الجيش — متى بلغ الجند مقدمة الاعداء يأخذون مصافهم ويكون في العادة

على ثمانية صفوف متقاربين بعضهم من بعض مؤلفين من جموع متكاثفة تدعى جحافل ومصافًا ويقدم الملك وهو قائد الجيش عنزة على سبيل النذر للارباب واذا تفاءلوا باحشاء الذبيحة تفاؤلاً حسنًا يبدأ جماعة من الجند يرددون لحنًا وعندئذٍ تهتز صفوفهم فيباغتون اعداءهم مسرعين على الايقاع ونغمات المزمار والرمح يعلو والترس على الجسد فيحملون عليهم وصفوفهم متراصة فينكسون اعلامه بجموعهم ووثوبهم و يهزمونه و يقفون حالاً لئلا يقطع مصافهم وانه لينبغي لكل جندي ان يحمي اخاه مادام سير الجيش كتفًا الى كتف فيكون بذلك كالبنيان المرصوص يتعذر على العدوّ ان يجد الى خرقه سبيلاً . ثم ان هذه التعبئة كثيفة في ذاتها ولكنها تكفي لغلبة جيش مشوش وقلما يقاوم ناس منفردون مثل تلك الجموع ولقد فهم سائر اليونان هذا الامر فاقتدوا جميعهم بالاسبارطيين ما ساعدتهم المكنة فكان جندهم حيثما حلوا مدججين بالسلاح وقاتلوا جحافل وكتائب متراصة .

الرياضة الجسمية — اقتضى تدريب رجال خفاف اقوياء لتتسنى مهاجمة العدوّ في مثل تلك الصفوف وتنكيس اعلامه لاوّل وقعة فكان على كل جندي ان يحسن البراز والصراع فمن ثم رتب الاسبارطيون الرياضات البدنية واقتدى بهم سائر اليونانيين فاصبحت الرياضة عملاً من اعمال الامة كافة . واكثر اعمالها اعتبارًا ما يكلل صاحبه في الاعياد العظيمة . عرفت احدى المدن في البلاد النائية بين برابرة الغول او البحر الاسود وثبت انها يونانية اذ كان لها ملعب للاعمال الرياضية . وكان هذا الملعب قطعة مربعة عظيمة تحيط بها اروقة او دهاليز وهي في الاغلب على مقربة من نبع وله حمامات وقاعات للتمرين . فيحضر السكان الى ذاك المكان للنزهة والمحادثة فهو اشبه بنادٍ وكان الفتيان يقضون في هذا الملعب عامين على الاقل يختلفون اليه كل يوم يتعلمون القفز والركض ورمي الإطار وضرب الحراب ويتصارعون بوسط الجسد لتقوية العضلات والجلد وينغمسون في الماء البارد ويطلون ابدانهم بالزيت ويتمسحون بمسحة .

المصارعون — معظم الاسبارطيين يقضون عامة حياتهم في ممارسة هذه التمرينات لإباء ومروءة فلا يعتمون ان يصبحوا مصارعين وقد وفق بعضهم الى ان تمت على ايديهم خوارق ويقال ان ميلون من مدينة كروتون في ايطاليا كان يحمل ثورًا على كتفيه ويوقف عجلة وهي راكضة بان يمسكها من خلفها . ولقد كان هؤلاء المصارعون يخدمون في الحروب خدمة الاجناد وكثيرًا ما يقومون بقيادة الزحوف وبهذا صح قولنا ان الرياضات البدنية بمثابة تدريب على الحروب .

اعمال الاسبارطيين — تعلم الاسبارطيون من اليونانيين التروّض والقتال وجاءهم

مصارعون اقوياء اشداء وجند منظم وعرفوا بهذه المزية في بلاد اليونان وكانوا من اجل ذلك يحترمون في كل مكان . ولما قضي على سائر الشعوب اليونانية ان تقاتل الفرس مجتمعة تحت راية واحدة لم يستنكفوا من اتخاذ الاسبارطيين زعماءهم . قال خطيب آثيني وكان هذا الامر بحجة صحيحة واستحقاق تام .

آثينه

الشعب الآثيني

اتيكيا — فاخر الآثينيون لسكناهم ابداً بلاداً واحدة وادعى اجدادهم انهم ولدوا من الرمل كالزيزان . وقد اجتاز الفاتحون من سكان الجبال بالقرب من بلادهم ولم يهاجموها وقلما دعتهم اتيكيا الى قتالها . هذه المقاطعة مؤلفة من جبال شاهقة صخرية نائتة في البحر على شكل مثلث الاضلاع . وهذه الصخور المشهورة بقطع رخامها وبعسل نحلها جرداء مرداء بينها و بين البحر ثلاثة سهول صغيرة قاحلة لا تروي (لجفاف سواقيها في الصيف) ولا تقوم بتغذية امة كبيرة .

آثينة — على فرسخ من البحر في اعظم تلك السهول قامت صخرة عظيمة وحيدة منتصبة وقد أنشئت آثينة في سفحها . اما المدينة القديمة التي كانت تدعى الاكروبول (المدينة العالية) فانها كانت في قمة الجبل . وقد اخذ سكان اتيكيا ينفرقون الى ممالك عديدة فكانت كل قرية تحكم نفسها بنفسها ولها ملك فجمع جميعها تحت زعامته وهو ملك آثينة فيتألفون بذلك مدينة واحدة وليس معنى ذلك انهم كلهم يحطون رحالهم في المدينة . بل يظل كل منهم يسكن قريته و يزرع ارضه . بيد انهم كلهم عبدوا ارباباً واحدة وهي آثينة معبودة آثينة وخضعوا باجمعهم للملك واحد .

ثورات آثينة — قد رجعت آثينة فنزعت السلطة الملكية واستعاضت عنها بتسعة زعماء (اركون) يتبدلون كل عام . واننا لنجهل هذا التاريخ كل الجهل اذ لم يبلغنا عن ذاك الوقت اقل كتابة نستند اليها . و يروى ان الآثينيين عاشوا قروناً في شقاق يضطهد اشراف اصحاب الاملاك (او باتريد) العملة من اصحاب المياومات في اراضيهم و يبيع الدائنون مديونيهم بيع الارقاء . ولقد عهد الآثينيون حباً بتوطيد الراحة الى صولون احد حكمائهم ان يسن لهم قوانين يسيرون عليها فقام بثلاث اصلاحات : اولاً تقليل قيمة السكة وهو مما سهل على المدينيين ان يوفوا ما عليهم من اهون سبب . ثانياً جعل الفلاحين ملاكاً للاراضي التي يزرعونها ومن ذاك الحين صار في اتيكيا كثير من صغار اصحاب الاملاك مما لم يعهد مثله في بلاد يونانية . ثالثاً قسم السكان عامة الى اربع طبقات بحسب مداخيلهم وقضى

على كل منهم ان يؤدي الضرائب ويقوم بالخدمة العسكرية على نسبة ثروته · اما الفقراء فاعفاهم من الضرائب والخدمة · ولقد خضع الآثينيون بعد صولون الى بيزيستراس احد ابنائهم العالمين العارفين ثم بدأ الاضطراب سنة ٥١٠

اصلاح كليستين — استفاد كليستين احد زعماء الاحزاب من هذه الاضطرابات فقام بثورة عظيمة · ولقد سكن كثير من الغرباء في اتيكيا وكان معظمهم ملاحين وتجاراً يقطنون مدينة بيرا بالقرب من المرفإ · فاعطاهم كليستين حقوق الوطنيين وساواهم بالسكان الاقدمين فصار من ثم في تلك المقاطعة شعبان مختلفان سكان اتيكيا وسكان بيرا وكانا يتميزان احدهما عن الآخر بعد ثلاثة قرون من هذا الاختلاط باختلاف سحناتهم فيشبه اهل اتيكيا سائر اليونانيين ويشبه اهل بيرا الآسياويين · وهكذا زاد الشعب الآثيني فاصبح امة جديدة ومن اكثر سكان بلاد اليونان حركة ونشاطاً حتى اذا كان القرن الخامس تألفت الهيئة الاجتماعية في آثينة تأليفها الاخير فكان ثلاث طبقات من السكان يقطنون اتيكيا الا وهم الموالي والاجانب والوطنيون ·

الموالي — الموالي هم السواد الاعظم من اهل البلاد فلم يكن ثمت رجل مهما بلغ من الفقر المدقع الا ويملك مولى اما الاغنياء فيملكون منهم كتيبة وملك بعضهم نحو خمسمائة مولى وكان من شأن هؤلاء الموالي ان يبقوا في الدور وشغلهم الطحن والعجن وحياكة الثياب ونسجها وطبخ الطعام وخدمة ساداتهم · ويعمل بعضهم في المعامل حدادين وصباغين او يشتغلون في المقالع والمناجم الفضية · ويقوم سيدهم باودهم ولكنه يبيع لنفسه كل ما تنتجه ايديهم ويأتي ثمرة اعمالهم ولا يعطيهم من جميع ذلك الا الطعام · فكان عامة الخدمة والعاملين في المناجم ومعظم الصناع عبيداً وارقاء · يعيشون في المجتمع دون ان يعدوا منه بل لا يتصرفون بانفسهم وهم ملك مواليهم جسماً ومادة · ولم يعتبروا الا اعتبار عروض تملك وربما دعوهم « اجساداً » وليس لهم من شريعة غير ارادة سيدهم · ولسيدهم عليهم كل حق وسيطرة فان شاء شغلهم وان شاء حبسهم وان شاء حرمهم من طعامهم وان شاء ضربهم واذا نشأت لاحد الوطنيين قضية يتأتى لخصمه ان يطلب تعذيب مواليه ليقروا بما يعملون · وقد امتدح عدة خطباء آثينيين هذه العادة وعدوها ضرباً من ضروب الحذق لاخذ شهادة صحيحة · قال الخطيب ايزيه ان التعذيب احسن واسطة لنيل البراهين ولذلك متى كان عليك ان توضح مسألة متنازعاً فيها فاياك ان تعمد الى الاصرار بل انك تصل الى كشف القناع عن محيا الحقيقة بجعل العمدان في العذاب الشديد ·

الاجانب — هم ناس من اصول مختلفة يقيمون في اتيكيا وهم الذين يدعون الميتيكيين

(اي المتساكنين) . ولم يكف الرجل كما هو الحال عندنا ان يولد في ارض آثينية ليعد وطنياً بل يجب ان يكون ابن وطني . وعبثاً استوطن الطراء في اتيكيا اجيالاً كثيرة وماعدت قط أسراتهم آثينية . فالميتيكيون والحالة هذه لم يكن لهم ان يشتركوا في الحكومة ولا ان يتزوجوا وطنية ولا ان يقتنوا ملكاً على حين كانوا احراراً في اشخاصهم ولهم حق السفر في البحر وان يكونوا صيارف وتجاراً على شرط ان يتخذوا لهم زعيماً ومولى يمثلهم امام القضاء . وكان في آثينة زهاء عشرة آلاف أسرة من الميتيكيين ومعظمهم صيارف وتجار

الوطنيون — اقتضت الحال ان يكون الانسان ابن وطني او وطنية ليكون وطنياً آثينياً ومتى بلغ الفتى الثامنة عشرة من عمره يعد عندهم راشداً فيقف امام جموع الشعب ويدفع اليه السلاح الذي يقضي عليه حمله ويقسم يميناً فيقول : أقسم بانني لا أهين هذا السلاح المقدس ولا أغادر موقفي في صفوف الاعداء وان اخضع للحكام والقوانين وأشرف دين وطني . فيكون بهذا الحلف وطنياً وجندياً معاً ويقضى عليه بعدُ ان يخدم في الجندية الى من الستين وله لقاء ذلك حق الجلوس في مجلس الامة والقيام بوظائف الحكومة وربما رضي الشعب الآثيني بجعل رجل وطنياً على حين ليس هو ابن وطني ولكنه يرضى بذلك على صفة استثنائية وتوسعاً في المكرمة العظيمة . فيوافق المجلس على قبول الغريب وينبغي ان ينتخبه على الاقل ستة آلاف وطني بعد تسعة ايام من هذا الاقتراع وفي جلسة ثانية وذلك في انتخاب سري . والشعب الآثيني هو كدائرة مطبقة لا يدخل فيه اعضاء جدد الا اذا رضي الاعضاء القدماء بقبوله على انهم لا يقبلون غير ابنائهم .

المجلس — يلقب الآثينيون حكومتهم بالحكومة الديمقراطية (اي حكومة الشعب) وليس هذا الشعب ما نعني به عندنا من جمهور السكان بل هو جماعة الوطنيين وخلصاء الاشراف وعددهم بين خمسة عشر الفاً الى عشرين الف رجل وهم زعماء الامة بأسرها . ولهؤلاء الجماعة سلطة مطلقة وكلمة عليا وهم على التحقيق ملوك آثينة فان مجلسهم يلتئم ثلاث مرات في الشهر للمفاوضة والاقتراع . يجتمعون في الهواء الطلق في ساحة البينكس فيجلس الوطنيون على مقاعد من حجر ذات درجات ويقعد الحكام بازائهم على مصطبة ويفتتحون الجلسة باحتفال ديني وصلاة يصلونها ثم يعلن المنادي بصوت جهوري بالمسألة التي يتناقش فيها المجلس قائلاً من منكم يشرع في الكلام اولاً . ولكل وطني الحق ان يطلب ذلك . وعندها يصعد الخطباء المنبر بحسب تفاوت اعمارهم ومتى تكلموا كافة يضع الرئيس المسألة المطلوبة على بساط البحث فيقترع المجلس بان يرفع اعضاؤه ايديهم ثم ينصرفون .

الحاكم — لما كان الشعب حاكماً فهو يقضي في القضايا لذاته بذاته ولكل وطني بلغ

الثلاثين من عمره ان يكون من اعضاء مجلس الحكم فيجتمع الحكام في القاعات الكبرى فرقاً كل فرقة مؤلفة من خمسمائة نسمة . وفي كثير من القضايا يلتئم فرقتان او ثلاث فرق من الحكام فتتألف المحكمة من جمهور يبلغون ألفاً او ألفاً وخمسمائة قاضٍ ولم يكن للاثينيين حكام كما هو الحال عندنا لرفع القضايا بل كانت هذه المهمة من وظيفة الوطني الذي يعهد اليه تجريم المجرمين . فيتمثل المدعي والمدعى عليه امام المحكمة ويخطب كل منهما خطبة لا تزيد على وقت 'حدّد' بساعة دقاقة مائية . ثم يبدأ القضاة بالموافقة على وضع حصاة بيضاء او سوداء فاذا توفر للمدعي بضعة آراء (اصوات) زيادة على خصمه يحكم عليه و يجرّم .

الحكام — كان الشعب الحاكم في حاجة الى مجلس لوضع المسائل موضعها من البحث والى حكام ينفذون ما يقرره و يتألف المجلس من خمسمائة وطني تصيبهم القرعة حولاً كاملاً . واذ كثر عدد الحكام خص عشرة منهم لتعبئة الجيش وقيادته وثلاثون لادارة الشؤون المالية وستون منهم يعهد اليهم خطة الحسبة من النظر في الشوارع ونظافتها والاسواق و بياعاتها والاوزان والقياسات وما يتبعها .

منعة هذه الحكومة — لم تكن السلطة في آثينة في ايدي الاغنياء والشرفاء كما كانت في اسبارطة بل كانت تقرر كل مسألة باكثرية الآراء وتتعادل الآراء فيجري انتخاب الحكام واعضاء المجلس والعمال بالقرعة . الا القواد فانهم لا ينتخبون كذلك . والوطنيون يتساوون لا من حيث الامور النظرية بل من حيث الامور العملية . ولقد قال الحكيم سقراط لاحد اهالي آثينة المتنورين وكان لا يجرأ على الكلام امام الشعب « ياهذا ممن تخاف ? امن القصارين ام من السكافين او المعمارين او الحراثين ام من السوقة والمرتزقين فمن هاته الطبقات يتألف المجلس » وكثيرون من هؤلاء الحكام مضطرون الى الاحتراف ليعيشوا ولم يكن في وسعهم ان يخدموا الحكومة بالمجان ولذلك عينت لهم مشاهرات واجوراً فيتناول كل وطني اجرة جلسة واحدة في المجلس او المحكمة ثلاثة فلوس او خمسة واربعين سانتيماً من سكتنا وهو القدر الذي يتأتى لرجل ان يعيش به في ذاك العصر . من اجل هذا كثر الاعضاء الفقراء في هذه المجالس وجلسوا على دكات المحاكم مع الاغنياء كتفاً الى كتف ووجهاً لوجه .

الفوضويون من الشعب — لما كانت تفصل المسائل برمتها في المجلس او المحاكم بالمناقشة فيها والقاء الخطب في مضامينها كان فصحاء القوم هم ارباب المكانة المكينة في الامة . فاعتادت هذه ان تسمع لاصوات الخطباء وان تعمل بنصائحهم وتعهد اليهم في السفارات وان تعينهم قواداً اوزعماء . ويدعى هؤلاء الرجال الفوضويين « او زعماء العصاة » . اما

حزب الاغنياء فيضحك منهم . وقد مثل اريستوفان الشعب في احدى الروايات الهزلية في صورة شيخ سخيف فقال : انت غبي تصدق كل ما تسمع تستسلم لاهل النفاق والدسائس يتلاعبون بك على هواهم وتغتبط بالسعادة متى خطبوا فيك . وقال احدهم خطاباً لاحد نزاع الآفاق : انت يا هذا شقي فظ غليظ وصوتك شديد وفي بلاغتك من القحه وفي حركاتك من السرعة ما يؤهلك على ما ارى الى كل ما يلزمك لحكم آثينة .

الحياة المنزلية

اخترع الآثينيون وظائف كثيرة عهد القيام بها الى فئة من الوطنيين . فكان الوطني الآثيني كالموظف والجندي في ايامنا مهتماً بالانصراف الى الاعمال العامة يصرف ايام حياته في اشهار الحرب والحكم على الشعب ويقضي ساعاته في المجلس او في المحكمة او في الجيش وفي محال الرياضة او في السوق وكان له ابداً امرأة واولاد لان الدين يأمره بذلك ولكنه ما كان يعيش عيش البيوت .

لاولاد — يحق للوالد عند ما يولد له مولود ان يطرحه ويطارده خارج بيته فيموت طريحاً اذا لم يلتقطه احد ابناء السبيل و يربيه ليجعله مولى له . وانت ترى ان آثينة اتبعت في هذا خطة جماع الشعوب اليونانية . والبنات كن يُنبذن في العراء ويُطرحن خارج المنازل اكثر من البنين قال احد الخطباء الهزليين ان الابن يُربى في الغالب ولو كان ذووه في اقصى دركات الفاقة اما الابنة فتهمل ولو كان اهلها من الغنى على جانب . فان قبل الوالد الولد يعد من الأسرة و يترك اولاً في مساكن النساء بالقرب من الام حيث يظل البنات الى ان يتزوّجن اما البنون فينفصلون عن تلك البيوت في السابعة من عمرهم فيسلم الطفل الآثيني الى المربي الذي يعهد اليه تعليمه وتحسين هيئته والخضوع والطاعة وكثيراً ما يكون المعلم من طبقة الموالي الان والد الطفل جعله في حل من ضرب ابنه . وهذه كانت عادة عامة في القديم . ثم يذهب الولد الى الكتاب يتعلم القراءة والكتابة والحساب وانشاد الاشعار والتغني مع جماعة الموسيقيين على نغمات المزمار ثم يأخذ في تعلم الالعاب الرياضية وهذه غاية ما يتعلمه الولد فيجيء من هذا التعليم من ابناء الآثينيين رجال صحيحة اجسامهم هادئة افكارهم يدعوهم اليونانيون اهل الصلاح والجمال . اما الفتاة فتظل بالقرب من امها لا تتعلم شيئاً . ويذهبون الى انه يكفي الابنة الآثينية ان تحسن الخضوع وتتشبث باهداب الطاعة . وقد مثل كسينوفان احد اغنياء الآثينيين المهذبين وهو يخاطب الحكيم سقراطاً في شأن زوجه قال : لم تكد تبلغ الخامسة عشرة حتى تزوّجتها وقد كان ذووها جعلوها الى ذاك العهد تحت المراقبة الشديدة وارادوا ان لا تبقى وتعيش ولا تسمع

شيئاً على التقريب مما اهلها لان تكون امرأة تحسن نسج الصوف وتصنع منها ثياباً ورأت باي الطرق يستخدم الاماء والخادمات . ولما اقترح عليها زوجها ان تكون شريكة في حياته اجابته مدهوشة : على اي امر أعينك وهل انا قادرة على شيء ؟ فلطالما قالت لي أمي ان شأني الخاص بي ان اكون عاقلة . فمعنى كون المرأة عاقلة ان تخضع وهذه هي الفضيلة التي تطلب الى المرأة اليونانية .

الزواج — تتزوج الفتاة في الخامسة عشرة من سنها واهلها يختارون لها زوجها فيكون تارة شاباً من أسرة قريبة او رجلاً طاعناً في السن من اصدقاء والدها ولا يعدو ابداً ان يكون وطنياً آثينياً وقد تعرفه الفتاة من قبل في بعض الاحوال وما قط أخذ رأيها في معنى زواجها . ولما تكلم المؤرخ هيرودتس عن احد ابناء يونان قال : ان كالياس هذا جدير بان يتكلم المتكلمون في امره للخطة التي يسلكها مع بناته فانهن متى صلحن للزواج يخولهن من المال شيئاً كثيراً ويسمح لهن باختيار ازواج لهن من ابناء الامة ويزوجهن بمن ينتخبنهم

النساء — كان في داخل كل بيت آثيني مسكن منعزل خاص بالنساء يدعى الحرم ولا يختلف الى هذا المسكن غير الزوج والانسباء وتبقى فيه ربة البيت دائماً مع صويحباتها واماثها تراقب اعمالهن وتلقنهن اصول تدبير المنازل وتوزع بينهن الصوف يحكنه وهي تشغل نفسها بحياكة الثياب ايضاً . وقلما كانت تخرج من دارها الا في الاعياد الدينية ولا تظهر في مجتمعات الرجال قط . قال الخطيب ازيس : حقاً انه لم يكن لاحد ان يجرأ على الغداء عند امرأة مزوجة فان النساء المزوجات لا يخرجن لتناول الطعام مع الرجال ولا يسمحن لانفسهن ان يأكلن مع الغرباء وغير المحارم . وما كانت المرأة التي تخالط الرجال معدودة في جملة النساء المحتشمات المهذبات . وهكذا لم تكن المرأة وهي على حالها من الاعتزال والجهل ذات عشرة مقبولة فيتزوج بها الرجل لا لتكون شريكة حياته بل لتقوم بأمر بيته وتلد له اولاداً ولان العادة والدين عند اليونانيين يقضيان بان يكون للمرء حليلة . وقال افلاطون اذا تزوج المتزوج فليس برضاه وذوقه السليم بل لان الشريعة تقضي عليه بذلك . وقال مياندر الشاعر الهزلي هذه العبارة : اذا شئت التحقيق فقل ان الزواج شر ولكنه شر لا مناص منه . ولذا كان ابداً للنساء في آثينة كما في معظم المدن اليونانية مقام وضيع في المجتمع .

الحروب المادية

سببها — بينا كان اليونان آخذين في تنظيم مدنهم كان ملك الفرس يجمع شتات بلاد الشرق كافة تحت لواء واحد . ولقد تقابل اليونان والمشارقة وكان المصاف بينهم لاول

الامر في آسيا الصغرى · وكان على شاطيء آسيا مستعمرات يونانية غنية ماهولة فطمع قورش ملك فارس في ضمها الى بلاده فبعثت تلك المستعمرات تستنجد بالاسبارطيين وقد اشتهروا بانهم اجرا ابناء اليونان وانذروا بذلك قورش فاجابهم بقوله : انني ما خشيت قط هذا الضرب من الناس الذين يجتمعون في ساحة وسط مدنهم ليخدع بعضهم بعضاً بالايمان والعهود (كلامه على ساحة السوق) فغلب ابناء اليونان في آسيا واصبحوا رعاياذاك الخاقان الاعظم · وبعد ثلاثين سنة تقابل الملك دارا مع يونان اوربا ولكنهم ظهروا عليه هذه المرة فارسل الآثينيون عشرين سفينة على الايونيين العصاة فدخل جندهم في ليديا واستولوا عنوة على مدينة ساردس عاصمة ليديا واحرقوها · فانتقم دارا عن ذلك بان خرب المدن اليونانية في آسيا ولم يُبق على يونان اوربا · وقيل انه امر ان يمثل لديه ضابط في كل مأدبة يكرر على مسامعه قوله : مولاي تذكر الآثينيين · وقدبعث الى المدن اليونانية يطلب تراباً وماء · وهذه الاشارة الشائعة عند الفرس كانت دلالة على ان شعباً يخضع بلاده لسلطة الخاقان الاعظم فاوجس معظم اليونانيين خيفة واستسلموا خاضعين باخعين فطرح الاسبارطيون المندوبين من الفرس في بئر قائلين لهم ان يأخذوا منها ماء وتراباً يحملونها الى ملكهم · وهذه كانت فاتحة الحروب المادية ·

مبادلة الخصمين — ان التباين بين هذين العالمين المتحاربين قد اشار اليه هيرودتس احسن اشارة في صورة محاورة بين كسيركيس ملك الملوك وديمارات احد المنفيين من الاسبارطيين فقال هذا : اتجاسر ان أؤكد لك ان الاسبارطيين يعلنون عليك حرباً حتى ولو انحاز سائر ابناء يونان كافة الى حزبك ولولم يبلغ جيشهم الف رجل · فاجاب كسيركيس ضاحكاً وليت شعري هل في وسع الف رجل ان يشهروا حرباً على هذا الجيش الكثير العدد والعدد واني لاخشى ان يكون في كلامك تحذلق كثير · وهب ان عددهم خمسة آلاف فنحن زهاء الف لقاء واحد · فلو كان لهم زعيم مثلنا فان الخوف يحمسهم ويزيد نفوسهم مضاء فيزحفون بضرب السياط على جيوش اكثر منهم حصاً وعدداً · واذ انهم احرار لا علاقة لهم باحد فليس لهم من الشجاعة اكثر مما خصتهم به الفطرة · يقول ديمارات ان ليس الاسبارطيون دون غيرهم في حرب يتلاقى فيه المتحاربون جسداً لجسد حتى اذا انضموا بعضهم الى بعض صاروا جيشاً برأسه ومن اشجع الناس وامضاهم · وقصارى القول فانهم وان كانوا احراراً في الظاهر ليسوا كذلك في سائر شؤونهم فلهم حاكم مطلق ألا وهو « القانون » فهم يخافونه كثيراً ويرهبون بأسه اكثر من رهبة رعاياك لك · يطيعونه والقانون يأمرهم ان يثبتوا في مصافهم ابداً الى ان يغلبوا او يموتوا — اليك حال هذين

الحزبين احدهما مع الآخر فترى من جهة عدداً عديداً من الرعايا تضمهم القوة بزعامة رئيس ذي هوى وشهوات . ومن جهة ثانية جمهوريات صغرى محاربة يحكم ابناؤها انفسهم بانفسهم بقوانين يحتفظون بها و يرعونها .

الحرب المادية الاولى — نشبت حربان ماديتان كانت الاولى بمثابة حملة على آثينة فارسل دارا ستمائة سفينة أنزلت جيشاً فارسياً في سهل ماراثون الصغير على سبع ساعات من آثينة . ولقد كان دين الاسبارطيين يحظر عليهم ان يسيروا قبل ان يكون الهلال بدراً وكان القمر اذ ذاك في الربع الاول فقضي على الآثينيين ان يحاربوا وحدهم فجاء عشرة آلاف من الوطنيين مسلحين سلاح الابطال واقاموا لهم معسكراً امام صفوف الفرس بقيادة عشرة قواد يتناوبها كل منهم يوماً حتى اذا كانت نوبة القيادة لملتيادس عبى جيشه للحرب فهاجم الآثينيون صفوف الاعداء على صفوف مشتبكة فلما رآهم الفرس اقتربوا منهم ولم يجعلوا في مقدمتهم فرساناً ولا دارعين فظنوهم جُنوا واضاعوا رشدهم . وهذه هي المرة الاولى التي جسر فيها اليونان على اقتحام صفوف الفرس في حرب منظمة . فطفق الآثينيون يحملون على جناحي الجيش و يمزقونه كل ممزق ثم رجعوا الى القلب وحملوا الفرس على الهزيمة نحو البحر واضطروهم الى معاودة ركوبه وكان من نصرة اليونان في حرب ماراثون ان انقذتهم واطارت صيتهم في ارض يونان كلها (٤٩٠)

حرب مادي الثانية -- نشبت الحرب بعد عشر سنين بغارة فجمع كسيركيس بن دارا شعوب بلاده كلهم و يقال ان جيشه البري بلغ مليوناً وسبعمائة الف مقاتل مؤلفاً من ماديين وفرس لابسين قمصاناً ذات اكمام مسلحين بدروع من حديد واتراس واقواس وسهام ومن اشوريين يلبسون دروعا من كتان مسلحين بدبابيس محددة الرؤوس ومن هنود يلبسون ثيابا قطنية يحملون اقواساً ونبالاً من خيزران ومن زنوج يلبسون جلد النمور ومن قبائل رحالة ليس لهم سلاح الا ما كان من حبل ذي أنشوطة ومن فريجيين مسلحين بحراب قصيرة واتراس صغيرة ومن ليديين مجهزين على الطريقة اليونانية ومن تراكسيين يحملون حراباً ومُدى وقد شغل تعداد صفات هذا الجيش عشرين فصلاً في تاريخ هيرودتس . وكان هؤلاء المحاربون يجرون وراءهم جموعاً توازي الجموع المدربة على القتال من خدمة للجيش وموالي من النساء وكثير من البغال والخيل والجمال والعجلات المشحونة بالاثقال ولقد اجتاز هؤلاء الاخلاط هيلسبون على جسر قائم من مراكب في ربيع سنة ٤٨١ وظلوا يتابعون سيرهم سبعة ايام بلياليها تحت ضرب السياط ثم اجتازوا تراكسيا وساروا على بلاد يونان يجرون بالقوة وراءهم من يصادفونه من الشعوب فكان الاسطول الفارسي وهو مؤلف من الف ومائتي

سفينة حربية يمشي على شواطي، تراكسيا مجتازاً ترعة جبل اتوس الذي خرقه كسيركيس عمداً . فدخل الرعب في قلوب اليونانيين وخضع معظمهم لخاقان الفرس فضموا جندهم الى الجيش الفارسي . وراح الآثينيون يستشيرون هاتف دلفيس فاجابهم اولاً ان آثينة تخرب ويكون عاليها سافلها حتى اذا تضرعوا اليه ان يجيبهم بجواب يبعث على الطمأنينة رد عليهم بقوله : ان زيوس يمنح بالاس (حامية آثينة) جداراً من خشب لا يتأتى الاستيلاء عليه وحده وانكم تجدون فيه سلامتكم انتم وبنوكم . ولقد حث العرافون الذين طلبوا اليهم ان يفسروا كلام هذا الهاتف جماعة الآثينيين على مغادرة اتيكيا وان يذهبوا ليستوطنوا مكاناً آخر . وفسر تمستوكلس جدار الخشب بالمراكب. فقضت الحال اذاً ان يرجعوا على الاسطول ويحاربوا الفرس في البحر.

واذ قد عزم اهل آثينة واسبارطة على المقاومة اخذوا يبحثون في تأليف عصابة من اليونان للحكم على الفرس فاجترأت بعض المدن على الدخول في هذه العصبة وانضموا تحت قيادة اسبارطة ولما نشبت اربع حروب في عام واحد قرروا القتال فسحق الفرس ليونيداس ملك اسبارطة في الترموبيل وكان معسكراً لسد في احد المضايق وضرب الاسطول اليوناني الاسطول الفارسي في سلامينة وكان هذا مجتمعاً في خليج يزحم بعضه بعضاً (٤٨٠) وبدد ابطال اليونان في بلاتيه الجيش الفارسي الذي بقي في بلاد اليونان ولم ينج من ثلثمائة الف رجل سوى اربعين الفاً ونزل في ذاك اليوم جيش يوناني في ميكال على شاطيء آسيا وهزم الفرس (٤٧٩) وهكذا غلب اليونان الخاقان الاعظم صاحب فارس .

سبب نصرة اليونان — لم تكن حرب مادي حرباً وطنية بين يونان وبرابرة بل كان يونان آسيا ونصف يونان اوروبا يقاتلون في الجيش الفارسي ولم يجسر كثيرون من ابناء جنسهم على ابداء اقل حركة . وكان الخاقان الاعظم ورعاياهم الذين حاربوا اسبارطة وآثينة ومن حالفهما في الحقيقة . فكان من خوارق العادات ان يغلب هذان الشعبان الصغيران ذاك الخليط العظيم من الفرس . وزعم اليونانيون ان الآلهة قاتلوا عنهم ومتى درست احوال الخصمين عن أمم بطل عجبك . فقد كان الجيش الفارسي جسيماً فظن كسيركيس على سذاجة قلبه ان النصر معقد اللواء بكثرة العدد بيد ان هذه الجموع كانت مرتبكة من نفسها ولم تدر من اين تأخذ ذخيرتها وتنقدم تقدماً بطيئاً ويضيق ذرعها من اول يوم الحرب حتى ان السفن المزدحمة كانت تغرز طرف مقدمها في السفن المحيطة بها وتحطم لها مجاذيفها ثم ان في ذاك الجماء الغفير كما يقول هيرودتس كثيراً من الناس وقليلاً من الجند . ولم يكن غير الفرس والماديين وهم خيرة الجيش يقاتلون بشدة اماغيرهم فلم يكونوا

يزحفون الى العدو الا اذا انهالت السياط عليهم وقدجاؤا بسيف القوة والقهر الى حرب لا يهمهم امرها ولا سلاح لديهم ولا نظام في مصافهم فهم لا يلبثون ان يركنوا الى الفرار بمجرد ان تغيب اعين الحراس عنهم . وتقاتل الماديون والفرس وحدهم في بلاتيه وميكال ونجا الرعايا . وكان الجند الفارسي سيء النظام والعدة يلبس ثياباطويلةوقدوقيت رؤوسهم بقلنسوة من لباد وحفظت اجسامهم اتراس من شجر الصفصاف والخلاف وسلاحهم قوس ومدية وحربة قصيرة جداً ولم يكونوا يستطيعون القتال الا باميدين ويقاتل الرجل رجلاً مثله . اما الاسبارطيون والمتحدون معهم بعقد المحالفة فكانوا على عكس ذلك تقيهم التروس العظيمة والخوذ ووقايات السوق ويسيرون جموعاً مشتبكة لا تقاوم يخرقون صفوف العدو بحرابهم الطويلة وما هو باسرع من رد الطرف حتى تصير الحرب ملحمة كبرى ومذبحة تباع فيها الارواح بيع السماح .

نتائج الحروب المادية — قادت اسبارطة الجيوش ولكن كما قال هيرودتس كانت آثينة هي التي انقذت اليونانية بان كانت لها مثالاً في المقاومة . فالفت اسطول سلامينة وقد استفادت آثينة من هذه النصرة اما المدن الايونية من الجزر وشاطيء آسيا جملة واحدة فقد ثارت ومردت والفت عصابة تبايعت فيها على الموت في سبيل الذود عن اوطانها من مهاجمة الفرس . واما الاسبارطيون وهم شعوب جبلية فلما لم يستطيعوا ان يديروا حرباً انصرفوا راجعين ادراجهم فاصبح الآثينيون اذ ذاك زعماء العصابة . وفي عام ٤٧٦ جمع اريستدس قائد اسطولهم نواب المدن المتحالفة فقر رأيهم على متابعة حرب الخاقان الاعظم وتآمروا بينهم على تقديم سفن ومحاربين وان يؤدوا كل سنة قطيعة من المال قدرها ٤٦٠ تالانا (اي مليوناً وسبعمائة الف فرنك) وجعلت الخزانة بمدينة ديلوس في معبد ابولون معبود الايونيين وكان عهد الى آثينة ان تقود الجيوش وتجبي القطائع . وقد القى اريستدس في البحر قطعة من الحديد المحمى واقسموا كلهم ان يحتفظوا جميعاً بالعهود الى يوم تطفو هذه الحديدة على سطح الماء وذلك حباً بتأكيد العهد وتفادياً من نقض يمين الاخلاص .

وقد حدث مع هذا ان الحرب وقفت وعقد اليونان — وكان النصر اليفهم — ولم يتم ابداً — معاهدة سلمية او هدنة مع الخاقان الاعظم فابى الملك ان يعد يونان آسيا من رعاياه (نحو سنة ٤٤٩) . وهنا سؤال يورد في هذا الباب وهو كيف انتهت معاهدة اريستديس وهل كان على المدن المتحدة ان تؤدي القطائع على حين ليس عليها ان تقاتل بعد فابى بعضها ذلك حتى قبل ان أطفئت نار الحرب . وزعمت آثينة ان المدن كانت أخذت على انفسها العهد على الدهر فاضطرتها الى ان تؤدي ما يطلب اليها . حتى اذا وضعت الحرب

اوزارها لم تجدِ خزانة ديلوس فتيلاً ولذلك نقلها الآثينيون الى مدينتهم واستخدموها في ابتناء المصانع والمعاهد . ولطالما كانوا يقولون ان المتحدين يؤدون مايتقاضونه من الضرائب للخلاص من ايدي الفرس فمن ثم لم يكن لهم ما يطالبون به بتة ما دامت آثينة تدفع عنهم عادية الخاقان الاعظم . وهذا مما غير حالة المتحالفين فصاروا ملزمين بدفع الضرائب لآثينة وما عتموا ان امسوا رعاياها فزادت آثينة في قسوتهم واكرهت مواطنيهم على المثول امام المحاكم الآثينية بل قد انفذت بطواريء من قبلها ليستعمروا جانبًا من ارضهم وبهذا النظر اصبحت آثينة ام القرى تحكم زهاء ثلثمائة مدينة متفرقة في الجزر وشواطيء الارخبيل وتجبي قطيعة قدرها ستمائة تالان في كل سنة .

الصنائع في بلاد اليونان

آثينة على عهد الامبراطور بيركليس

بيركليس — كانت آثينة في منتصف القرن الخامس من اقدر المدن اليونانية يدير امرها بيركليس احد ابناء الأسرات العظيمة وكان مقلاً من الكلام غير متبذل في شخصه ولم يكن يتوقع في اعماله رضى الامة بل كان الآثينيون يحترمونه ولا يجرون الا على نصائحه وهو معروف بانه متمكن من شؤون الادارة ومعرفة البلاد ولذلك دخلوا تحت سيطرته وحكمه فادار سياسة آثينة كلها اربعين سنة كما قال معاصره توسيديس المؤرخ : ان الحكومة الديمقراطية كانت موجودة بالاسم بل كانت تلك الحكومة حكومة الوطني الاولى على التحقيق

آثينة ومصالحها — كانت منازل القوم الخاصة في آثينة كما في معظم المدن اليونانية ضيقة واطئة متراكمة بعضها على بعض يكون منها ازقة ضيقة منعطفة سيئة التبليط . وقد جعل الآثينيون عظمتهم في معالمهم العامة . فمنذ اخذوا يجبون من محالفيهم قطائع لتصرف في سبيل الحروب كانوا ينفقون النفقات الطائلة في اقامة ابنية جميلة فعمروا في ساحة احد الشوارع رواقًا مزينًا بالصور (الفيسيل) وانشوا في المدينة دار تمثيل ومعبدًا اكرامًا لتيزيس احد ابطالهم واوديون معهد الشعر والموسيقى وذلك للمسابقة في هذا العلم . ولكن قامت اجمل المباني على صخرة الاكروبول كأنها على قاعدة هائلة وهما معبدان (احدهما وهو البارتينون جمل قربى للمعبودة آثينة حامية مدينة آثينة) والآخر هيكل ضخم من القلز يمثل آثينة وسلم من الآثار الجليلة يصل الى البروبيلي ورواق الرخام في آثينة . ومن ذاك العهد كانت آثينة اجمل بلاد اليونانية وانضرها .

عظمة آثينة — ومع ما خصت به آثينة من الصفات المشار اليها كانت ايضًا مدينة اهل الصنائع فقد حشر اليها الشعراء والخطباء والمهندسون والمصورون والنقاشون وكان بعضهم

من اهل آثينة ووجهائها وجاءها البعض الآخر من اطراف ارض يونان يحملون الى تلك المدينة العظيمة نتائج صناعاتهم وطرف طرائفهم . لا جرم انه نبغ كثير من ارباب الصنائع اليونان لم يكونوا من اهل مدينة آثينة وذلك قبل القرن الخامس وبعده بكثير من الزمن ولكن قل ان اجتمع هذا القدر العظيم من ارباب الصنائع في مدينة واحدة ولقد كان معظم اليونانيين من اكيس ارباب المعارف في الصناعات وموادها بيد ان الآثينيين فاقوا غيرهم بحسن ذوقهم وصنع ايديهم وامتازوا بعقول مثقفة ورغبة في الطرف وآثار الظرف واللطف . ولئن جاء من ابناء يونان امة رفيعة القدر عالية المكانة في تاريخ الحضارة فذلك لانها امة تحسن ملكة الصناعات فلا جيوشهم القليلة ولا بلادهم الصغيرة الرقعة خدمت العالم والعمران خدمة اعظم من خدمة صناعهم لها . فاليك السبب الذي من اجله كان القرن الخامس اجمل عهد في تاريخ يونان والداعي الى ان جعل آثينة تستأثر بفضل الشهرة اكثر من غيرها من المدن اليونانية .

الآداب

الخطباء — امتازت آثينة اولاً ببلاغة خطبائها فكانت حقًا بلد الادب وحسن الالقاء فبالخطب في مجلس الامة يقرر اشهار الحروب وعقد السلم ووضع القطائع والضرائب وكل الشؤون العظيمة وبالخطب التي تلقى في المحاكم يحكم على الوطنيين والرعايا او يبرؤون فللخطباء السلطة وعلى الامة ان تعمل بنصائحهم ومواعظهم وربما عهدت اليهم بادارة شؤون المملكة فقد عين كليون قائدًا ورأس ديموستين الخطيب حرب فيليب . وللخطباء نفوذ وكثيرًا ما يلجؤون الى بلاغة القول للنيل من عداتهم في سياستهم وربما اغتنوا لانهم ينالون من ارباب الغايات ما يرضيهم من المال ليعضدوا احد الاحزاب . فقد اخذ اشيل مالا من [illegible] مكدونيا وقبض ديموستين دراهم من ملك الفرس .

ثم ان بعض الخطباء ينشئون خطبًا ليلقيها غيرهم . ولا يسوغ لمن كانت له قضية ان يرفعها بواسطة محام كما هو الحال عندنا بل تقضي شريعة البلاد ان يتكلم صاحب القضية في قضيته بالذات . فمن ثم كان عليه ان يروح الى احد الخطباء يلتمس منه تأليف خطاب له يستظهره ليتلوه امام المحكمة . ولطالما جاب بعض الخطباء بلاد يونان وتكلموا في موضوعات توحيها اليهم المخيلة فاقاموا لهم كالنقول مقامات وعقدوا اندية ومؤتمرات (١) وكان قدماء الخطباء يتكلمون بدون تصنع مقتصرين على ان يقصوا على المنابر الكوائن بدون ان يعمدوا الى اساليب خطابية فيقفون في المنبر لا حراك لهم دون ان يصخبوا او يتحركوا وكان الملك

(١) اشتهر عشرة من هؤلاء الخطباء خاصة فدعوا خطباء اتيكيا العشرة

بيركليس يخطب خطبه على طريقة هادئة دون ان يحرك اهداب ردائه وعند ما كان يقف في منبر الخطابة وقد تكالل رأسه حسب العادة بأوراق الشجر يزعم الشعب انه يتخذه ربًا من ارباب الاولمبيا ولكن الخطباء الذين جاؤا بعد ذلك طمعوا في اثارة الامة وتحريك احساسها والنفوذ الى شعورها واصطلحوا على الانشاء المتين يروحون في المنبر و يغدون منشدين متحركين . وما عتمت الامة ان اعتادت هذا الاسلوب في الفصاحة . ولما اخذ ديموستين يتكلم في منبر الخطابة للمرة الاولى طفق الحضور يقهقهون و يضحكون من اسلوبه اذ لم يكن يحسن التلفظ ولا الوقوف ثم ما لبث ان مرن على الالقاء واحسان الحركات المطلوبة حتى صار نديم الشعب وعزيزه . دبت الايام ودرجت الليالي وديموستين خطيب في امته . وقد سُئل بعد عن اول صفة في الخطيب فاجاب بانها العمل ثم سئل ثانية فقال العمل ثم سئل ثالثة فقال العمل . ومعنى العمل طريقة الالقاء فانها كانت تهم اليونان اكثر من الخطبة .

الحكماء — كان منذ قرون عند يونان آسيا خاصة اناس يراقبون المادة ويفكرون في امرها لقبوا بالحكماء والعلماء في آن واحد وقد عُنوا بالطبيعيات والفلك والتاريخ الطبيعي اذ لم يكن العلم قد انفصل بعد عن الفلسفة وهكذا كان حال مشاهير الحكماء السبعة ببلاد يونان في القرن السابع .

السفسطائيون — جاء ناس على قرب عصر بيركليس الى آثينة فاتخذوا تعليم الحكمة صناعة واجتمع لهم كثير من التلاميذ انشؤا ينقاضونهم أجوز الدروس التي يلقونها . وجعلوا ديدنهم الانكار على الدين والعادات واصول ادارة المدن اليونانية يوهمون انها غير مبنية على العقل . ويأخذون من ذلك ان المرء لا يعرف شيئاً صحيحاً (مما كان قريباً من الصواب في عهدهم) وليس في طاقته ان يعرف امرًا صدقاً كان او زوراً قال احدهم : لا وجود لامر ومتى وجد صعبت معرفته . ويدعى هؤلاء المعلمون المشكيك بالسفسطائيين . وقد خص بعضهم بملكة الخطابة .

سقراط والفلاسفة — حاول سقراط احد شيوخ آثينة ان ينكر على السفسطائيين و يوقفهم عند حدهم على فقر حاله و بشاعة منظره ولكنة لسانه ولم تكن له دروس يلقيها كاولئك السفسطائيين بل يكتفي بالرواح الى المدينة يخاطب من يصادفهم من جماعتهم بكثرة ويحملهم بكثرة الاسئلة على ان يفكروا فيما يتكر فيه بنفسه . وكان بحثه مع الفتيان خاصة يعلمهم وينصح لهم . ولم يكن يظهر سقراط انه شدا شيئًا من العلم بل كان يقول ان غاية علمي اني ادري بانني لا ادري . وود لو دعي فيلسوفًا اي محبًا للحكمة لا حكيمًا كسائر تلك

الزمر . ولم يتدبر شيئاً من طبيعة الكون او مسألة من مسائل العالم بل كان همه دراسة احوال الانسان . وكانت حكمته في قوله : اعرف نفسك . فكان من ثم مبشراً بالفضيلة . واذ انه كثيراً ما كان يخوض في الموضوعات الاخلاقية والدينية عده الاثينيون سفسطائياً. وفي سنة ٣٩٩ مثل امام المحكمة متهماً بانه يتجافى عن عبادة ارباب المدينة وانه يحاول ادخال ارباب جديدة اليها ويفسد على الشبان عقائدهم فلم يحاول ان يدافع عن نفسه بل حكم عليه بالموت وكانت سنه اذ ذاك سبعين سنة فانتصر له كسينوفون احد تلاميذه والف افلاطون من الفلاسفة محاورات اقام فيها سقراط زعيم المتحاورين فاعتبر من ذاك العهد ابا للفلسفة اما افلاطون فقد كان صاحب مذهب معروف (٤٢٩ — ٣٤٨) ولخص ارسطو تلميذ افلاطون (٣٨٤— ٣٢٢) علوم عصره كافة في كتبه وقد انقسم الفلاسفة الذين اتوا بعد المعلمين ارسطو وافلاطون قسمين دعيت شيعة افلاطون بالرواقيين وشيعة ارسطو بالمشائين (لان ارسطو كان يعلم وهو يروح و يغدو)

الموسيقيون — كان من العادات القديمة ان يرقص القوم في الحفلات الدينية فيدير جمهور من الفتيان حول مذبح المعبود ثم يرجعون واقفين كالاشراف وقفة ذات معان واشارات . اذ كان القدماء يرقصون باجسادهم كلها و يختلف رقصهم كثيراً عن رقصنا وهو ضرب من التطواف الخماسي او اشبه برواية ذات ايماء وكان هذا الرقص الديني ابداً متبوعا باغان تعظيما للارباب و يسمى جمهور الراقصين والمغنين جماعة الموسيقيين . وللمدن كلها جماعة من الموسيقيين ومنهم ابناء اشرف العيال يعدون كذلك بعد ان يستعدوا زمنا . ومن فرط العناية ان يكون خدمة الرب جديرين بخدمته .

الروايات الفاجعات والهزليات كان يحتفل الفتيان في الارياف المجاورة لآثينة كل عام باقامة المراقص الدينية اكراما للرب ديونيزوس اله الكرمة وكان بعض هذا الرقص متثاقلاً يمثل اعمال المعبود فيضرب رئيس جماعة الموسيقيين على وتر أغنية ديونيزوس و يصور جوقه رفاقه وهم اناس لهم ارجل تيوس يسكنون الغابات ثم يأخذون في تمثيل عيش ارباب أخر وابطال قدماء . ثم خطر لاحدهم ان ينصب مصطبة يجيء ممثل يلعب عليها عند ماينقطع جوق الموسيقى عن الضرب بانغامه . وهكذا تم المشهد ونقل الى المدينة بالقرب من شجر الحور الفارسي او مجتمع السوقة فنشأت من ذلك الروايات الفاجعات .

اما الرقص الآخر فكان مضحكاً فينكر الراقصون وجوههم و يتغنون بمدائح الرب ديونيزوس وقد شابوها باضاحيك يسلون بها الحضور او بتصورات هزلية في حوادث حدثت ذاك اليوم . وقد صنع في الجوق الهزلي ما صنع في الجوق المفجع من ادخال ممثلين

ومحاورات ونقل المشهد الى آثينة وهكذا نشأت الروايات الهزلية(الكوميديا) من اجل هذا كانت الروايات الفاجعة تمثل الى يوم الناس هذا ابطالاً اما الروايات الهزلية فتمثل حياة كل يوم واحتفظت الفاجعات (المأساة) والهزليات ببعض اصلها وظلت تمثل امام هيكل الرب وان تكن فاجعة ولئن غدا الممثلون وهم جلوس على المصطبة اصحاب موقع في المشهد فقد ظل جوق التمثيل يرقص و يتغنى وهو يطوف حول المذبح وكان جماعة الموسيقيين في الروايات الهزلية كما كان يجيء المتنكرون يبدون ملاحظاتهم على السياسة بغلظة ·

الملاهي — جعل في منحدر قلعة الاكرو بول ملعب للرب ديونيزوس اله الكرمة يسع ثلاثين الف منفرج وذلك ليحضر الآثينيون كافة هذه المشاهد · وكان هذا الملعب كسائر الملاعب اليونانية مكشوفاً تحت السماء ومؤلفاً من درجات من الحجر مصفوفة على شكل نصف دائرة بازاء جماعة الموسيقى حيث كان يطوف المنشدون وامام المشهد الذي تمثل فيه الرواية· ولا تقام المشاهد فيه الا في اوقات اعياد الارباب بيد ان المشاهد كانت تدوم اذ ذاك عدة ايام متوالية يبدأون في الصباح عند بزوغ الغزالة و يمثلون للحال ثلاث فاجعات وقصة هجوية تنتهي على ضوء المشاعل من الليل والفاجعات الثلاث يؤلفها واحد وتمثل فاجعات اخرى في الايام التالية وهكذا كان المشهد ميدان مسابقة بين الشعراء والامة تعطيهم جوائز الاستحسان واشهر هؤلاء المتبارين اشيل وسوفقلس وار يبدس · وقد عهدت المسابقة ايضاً بين مؤلفي الروايات الهزلية ولم يؤثر من كل ما الفوه من الروايات غير قطعة واحدة الفها ار يستوفان الشاعر الهزلي ·

الصنائع اليونانية

المعابد اليونانية — قامت اجمل المباني في اليونان تعظيماً للارباب فمتى ذكرت هندسة اليونان فلا يذهب الفكر الاَّ الى معابدهم · وليس المعبد اليوناني كالبيعة النصرانية خاصاً بقبول المؤمنين الذين يهرعون الى الصلاة فيها بل هو قصر ينزله الرب وتمثاله يمثله قصر تحفه الابهة والجلالة ولا يلجه جمهور المؤمنين بل يظلون خارجه حوالى مذبح تحت السماء وقد قامت مقصورة الرب في وسط المعبد وهو مزار سري لا نافذة له ولا ضوء ينفذ اليه الا ما كان من كوىً في الاعالي · وقام الصنم في داخله معمولاً من خشب او رخام او عاج لابساً ذهباً محلىً بالثياب والحلي وكثيرًا ما يكون هيكلاً عظيماً · وقد مثل زيوس في معبد الاولمبيا قاعدًا ويكاد يصل رأسه الى القمة ولذا قيل ان الرب لو تمثل قائماً لخرق السقف وقد حجب هذا المزار عن الانظار من كل ناحية وهو عبارة عن مستودع ذخائر الصنم ويجتاز من يروم دخوله ضربًا من الرواق مؤلفًا من صفوف من السواري · ووراء الغرفة غرفة

عشرة صفوف وكانت جيوشهم في كل مكان في تعبئتها نمطاً واحداً تؤلف مثلثاً ذا زاوية قائمة مستطيلة ورقيقة فكانوا اذا حمل جندهم على العدو يشعرون بان تروسهم المعلقة على اذرعتهم الشمال تحميهم من اليسار ومن اليمين صفوف رفاقهم يحمون الميمنة بالطبع بحيث ان الجناح الايمن من الكتيبة يشعر بانه اقوى ما يكون في العادة . فتخيل ابامينوداس ان يعبيء رجاله على شكل زاوية قائمة مؤلفة على طولها من صفوف متساوية في عددها بل ان يضع في الجناح الايسر صفوفاً اكثر من الايمن فتأخذ الكتيبة شكلاً غير متناسب يشبه شكل زاوية قائمة . فيكون الجناح الايسر اضخم من الايمن ومؤلفاً من احسن المحاربين يحمل حملة منكرة على جناح العدو الذي يكون اضعف منه فينكس وسط جيش العدو ويأخذه من جنبه فدافع الثيبيون عن بلادهم باديء بدء من الجيش الاسبارطي الذي بقي يداهم بيوسيا في ربيع كل سنة اعواماً كثيرة ويقطع الشجر ويحرق الغلات ولم يجسر ان يقاتل قتالاً منظماً بل كانت غاراته مناوشات فقويت شكيمتهم وتمرسوا في الحرب . رأى ابامينوداس ان جيشه قد اعتاد قراع الابطال وقوي ساعده في حومة النزال وكانت الرجالة من جند الاسبارطيين اصطفت على عمق اثني عشر مقاتلاً بالقرب من لوكترس وكانت رجالة الثيبيين اقل وفرسانهم اكثر « لان بيوسيا كانت بلاداً تربى فيها الخيول الجياد » فاستطاع ابامينوداس ان يحمي الميسرة وكان من ذلك ان اختصر خط الحرب وحمل الجناح الايسر من جيشه وكان مؤلفاً من خمسين صفاً فبدد شمل الجناح الايمن من الاسبارطيين حيث كان الملك واقفاً فقتل «٣٧١» وهذه كانت المرة الاولى التي تغلب فيها جيش يوناني على جيش اسبارطي واصبحت ثيبة المدينة المقدسة اكثر من جميع مدن يونان وصارت لها الامرة على بيوسيا كلها وكانت الشعوب اليونانية في المورة الى ذاك العهد خاضعة لاسبارطة فالتمست معونة الثيبيين لنيل استقلالها . فانشأت مدينة مانتينه في بلاد اركاديا اسوارها على الرغم من دفاع اسبارطة وذبحت تيجة الاغنياء احلاف اسبارطة وكان الاركاديون من سكان الجنوب مشتتين الى ذاك العهد في القرى فانضموا بعضهم الى بعض وانشئوا مدينة حصينة سموها ميكالوبوليس ثم اراد ابامينوداس جمهور الثيبيين على ان يذهبوا الى غزو الاسبارطيين في عقر دارهم فدخل الجيش البيوسي الى بلاد المورة وكثر سواده بالاركاديين واهالي ارغوس وتوغل في اقليم لاكونيا وطفق يعسكر امام اسبارطة «٣٧٠» وكانت هذه هي المرة الاولى التي رأى فيها الاسبارطيون العدو في ارضهم . ولم يكن لاسبارطة اسوار فسلح اجازيلا « وكان قد بلغ اذ ذاك من العمر ٧٦ سنة » جماعة الميولتيين وحصن الآكام المحيطة بالمدينة .

ولم يجسر ابامينونداس على الهجوم واذ كان عاجزا عن اطعام جيشه في البلاد التي استباح حماها وجعل عاليها سافلها رجع ادراجه وقبل ان يغادر المورة جمع المسينيين وقد اصبحوا منذ ثلاثة قرون رعايا الاسبارطيين واعانهم على انشاء مدينة قوية سميت ميسين وعادوا يلمون شعثهم · وتحالفت اسبارطة مع الآثينيين الذين كانوا يحسدون الثيبيين كما حالفوا اهل سيرا كوزة ومع الجبار ديس الذي بعث اليها بالمحاربين الغاليين فغلب الاركاديون احلاف ثيبة · وعندها حاولت ثيبة ان تنال معونة ملك الفرس وارسل القائد بيلوبيداس الى آسيا وآب يحمل كتاباً من الخاقان الاعظم الذي وعد ان يحارب اليونان الذين لا يقبلون بمحالفة ثيبة «٣٦٧» اما سائر المدن فلم تكن تخشى ملك الفرس وابت ان تخضع له ·

ولم تكن ثيبة من القوّة لتخضع الى سلطانها جميع بلاد اليونان فظهر ابامينونداس على احسن حال في بلاد المورة مع الجيش البيوسي وحالف المسينيين ثانية وحاول ان يداهم اسبارطة واذ بلغ ذلك اجازيلاكرّ راجعاً وراح ابامينونداس يهجم على جيش العدو في اركاديا بالقرب من مدينة ماتينه وظفر في هذه المعركة باتخاذه الاسباب التي اتخذها في لوكترس ولكن اصابه سهم فمات ليومه · وفقد الثيبيون به قائداً يقودهم وانتهت ايام عز ثيبة ولم يبق مما قام به القائد ابامينونداس الا مدينة ميسينا التي اصبحت مملكة مستقلة وسقط سلطان اسبارطة من بلاد المورة كما سقط من بلاد اليونان ·

نتائج الحروب — لم تؤد هذه الحروب الى تأليف اليونانيين كافة امة واحدة اذ لم يكن لمدينة من مدنهم لا اسبارطة ولا آثينة من القوّة ما تكره به سائر المدن على الطاعة لها والخضوع لسلطانها وما كان منهم الا ان ينهك بعضهن قوى بعض ويكافح بعضهن بعضاً وكان ذلك من حظ ملك الفرس الذي استفاد من هذا الانقسام ولم تبلغ الحال بالمدن اليونانية انها لم تتفق عليه بل انها كانت كل واحدة على حدتها تحالفه للانتقام من سائر ابناء يونان وقد صرح الخاقان الاعظم (٣٨٧) في معاهدة انتالسيداس بان جميع المدن اليونانية في آسيا هي ملك له ولم تخالف اسبارطة قوله ذلك ولا نقضت زعمه وكذلك كان شأن آثينة وثيبة بعد بضع سنين فقد قال خطيب آثيني : « ان ملك الفرس هو الذي يحكم بلاد اليونان ولم يبق عليه الا ان يقيم له عمالاً في مدننا · اليس بيده الحل والعقد في بلادنا ؟ اما نحن فندعوه الخاقان الاعظم كما لو كنا عبيده ؟ » وهكذا اضاع اليونان بتفاشلهم وتدابرهم ما كانوا غنموه في حرب مادي ·

عظمة مكدونية

فيليب — الاسكندر — فتح آسيا

انهكت الحروب المتصلة مدة قرن بين اسبارطة وآثينة قوى تينك المملكتين فتركتا قتال ملك الفرس الا ان شعباً جديداً وهم المكدونيون عاودوا قتاله حتى نالوا منه وكانوا على خشونتهم وقسوتهم اشبه بقدماء الاوروبيين شعباً مؤلفاً من رعاة وجند . ولقد سكنوا شمال بلاد يونان في واديين عظيمين مطلين على البحر . وقلما كان اليونانيون يحلونهم محل الاعتبار بل ينظرون اليهم نظراً ثانوياً كما ينظرون للبرابرة واذ كان المكدونيون يدعون انهم من نسل هيراكليس سمح لهم اليونان بان يركضوا خيولهم في سباق الالعاب الاولمبية و بذلك اعترف بهم ضمناً بانهم من ابناء يونان .

فيليب — قلما كان هؤلاء الملوك النازلون في بلاد الداخلية بعيدين عن البحر يشتركون في حروب اليونان . وفي سنة ٣٦٠ تسنم اريكة العرش المكدوني شاب نشيط شجاع طموح ونعني به الملك فيليب فطمحت به نفسه الى القيام بثلاثة امور .

(١) ان ينشيء جيشاً قوياً

(٢) ان ينشيء جميع الموانى على شاطيء مكدونية

(٣) ان يكره سائر اليونان على الانضواء تحت لوائه لقتال الفرس

فصرف في هذا الشأن اربعاً وعشرين سنة ونجح فيما قصد له . واستسلم اليونان اليه بل واعانه كثير منهم واتخذ له انصاراً يبذل المال في جميع المدن يحسنون الظن فيه و يمتدحونه قال : « ما من قلعة يتعذر الاستيلاء عليها اذا استطاع المرء ان يدخل اليها بغلاً مثقلاً بالذهب » وهكذا استولى على جميع مدن شمالي اليونانية واحدة بعد اخرى .

ولقد كان الخصم اللدود لفيليب الخطيب ديموستين وهو ابن صانع اسلحة تيتم في السابعة من عمره واختلس اوصياؤه جزءاً من ماله ولما بلغ اشده اقام عليهم قضية واكرههم على ان يعيدوا اليه مااختلسوه منه وكان درس خطب ايزيه واستظهر تاريخ توسيديد بيد انه عند ما خطب على المنبر العام قوبل كلامه بالقهقهة اذ كان صوته ضعيفاً جداً ونفسه قصيراً فتوفر عدة سنين على ترويض صوته . ويروى انه كان ينقطع شهوراً طويلة ونصف رأسه محلوق لئلا يحاول الخروج ويلقي خطباً وفي فمه حصا وهو على شاطيء البحر ليمرن نفسه على التغلب بصوته على جلبة الناس ولما رجع الى المنبر كان قد اخضع صوته لارادته واذ كان يحافظ كل المحافظة على اعداد جميع خطبه قبل القائها غدا ارقى خطيب واعظم مفوّه في بلاد اليونان .

وكان الحزب الذي يرجع اليه امر آثينة على ذاك العهد بزعامة فوسيون يطمح في السلم اذ لم

يكن لآثينة جند كاف ولا مال وافر لا يقاف ملك مكدونية عند حده فكان فوسيون يقول سأشير عليكم بالحرب متى صرتم بحيث تستطيعون القيام باعبائها . وكان ديموستين على العكس يحتقر فيليب و يراه كأنه من المتوحشين فتطوّع في خدمة الحزب الذي يطلب محاربته واستخدم ما فيه من فصاحة لاخراج الآثينيين من سياسة المسالمة ولم يدخر وسعاً مدة خمس عشرة سنة في تحريضهم على ذلك .

وانك لتجد موضوع كثير من خطب ديموستين الحملةَ على الملك فيليب وكان يسميها الفليبية . قال في خطابه الاول سنة ٣٥٢ : متى تقومون ايها الآثينيون بواجباتكم ؟ اتريدون ان تسرحوا وتمرحوا في الساحات و بعضكم يسأل بعضاً بقوله : ما وراءك من الاخبار ؟ اما انا فاقول لكم ليس من جديد الا اننا نشاهد مكدونياً يتغلب على آثينة و يستولي على ارض يونان ؟ اقول لكم انه من الواجب تسليح خمسين سفينة وان تعقدوا العزم ان تركبوها بالذات عند مسيس الحاجة . جنبوا مسمعي حديث جيش مؤلف من عشرة او عشرين الفاً من الاجانب ولا حقيقه له الا على الورق فاني لا اريد الا جنوداً من الوطن متطوعين في خدمته .

وقال ديموستين في الفيليبيات الثالثة سنة ٣٤١ يذكر الآثينيين بما حازه فيليب من الظفر عليهم لغفلتهم وقلة حركتهم : « كان اليونان قديماً عند ما يسيئون استعمال سلطتهم ابظلموا غيرهم تقوم بلادهم كلها على ساق وقدم لمنع هذا الظلم ونحن اليوم نقاسي ما نقاسي من مكدوني حقير متوحش من اصل ملعون فيخرب المدن اليونانية ويحتفل بالالعاب البيتية (١) او يأمر خدمه بالاحتفال بها وهذا ما ينظر اليه اليوناني بدون ان يأتي امراً كما ينظر الى البرد يتساقط وهو يضرع بان لا يصيبه . والسلطة تعظم بدون ان يخطو احد خطوة لا يقافها . وكل ينظر من عهد اليه في تمزيق شمل غيره كما لو كان يعد ذلك ربحاً في وقته بدلاً من ان يفكر و يعمل لسلامة اليونان عند ما يعرف الناس ان المصيبة ستنال البعدين » . ولما استولى فيليب على الاتيه في مدخل بيوسيا (٣٣٩) ازمع الآثينيون بما نصح لهم به ديموستين ان يشهروا الحرب و يبعثوا بوفود الى ثيبة وذهب ديموستين زعيماً للوفد ولقي في ثيبة وفداً جاءه من قبل فيليب فتردد الثيبيون وارادهم ديموستين على ان يتناسوا جميع احقادهم القديمة وان لا يفكروا في غير سلامة الوطن اليوناني وفي الدفاع عن الشرف والحرية فعزموا بمساعيه ان يعقدوا محالفة مع آثينة وان يظلوا على المقاومة والحرب .

وبعد سنة (٣٣٨) نشبت الحرب في شيرونيه من اعمال بيوسيا وكان عمر ديموستين اذ ذاك ثمانياً واربعين سنة تخدم في الجيش جندياً بسيطاً واذ كان جيش الآثينيين

---

(١) هذه الالعاب كانت تقام كل اربع سنين كالالعاب الاولمبية في مدينة دلفيس اكراماً لابولون البيتي

والثيبيين قد دعي الى حمل السلاح بسرعة لم يعادل جند فيليب المدربين ولذلك كانت الهزيمة من حظ الجيش الاول ·

الاستيلاء المكدوني — واذ ظفر فيليب اقام حامية في ثيبة وصالح آثينة ثم دخل الى ارض المورة فاستقبله اهلها كأنه المحسن الى الشعوب التي طالما اضطهدتها اسبارطة ومن ذاك العهد لم يصادف اقل مقاومة فجاء الى كورنت (٣٣٧) وجمع فيها مندوبي جميع المدن اليونانية (ما خلا الاسبارطيين فانهم لم يبعثوا بمندوبين قط) وعرض عليهم مشروعه وهو ان يتولى زعامة جيش يوناني لغزو فارس فاستحسن المندوبون رأيه وعقدت محالفة عامة بين المدن اليونانية كافة وذلك على ان تحكم كل مدينة نفسها بنفسها وتعيش بسلام مع غيرها وأنشيء مجلس لتلك الوحدة لمنع الحروب والفتن الاهلية والقتل والمصادرة وهذه الوحدة كان من شأنها الاتحاد مع ملك مكدونيا والاقرار له بالزعامة على جميع الجنود والسفن اليونانية وحظر على كل يوناني ان يحارب فيليب واذا فعل تضرب عنقه بدون محاكمة ·

الاسكندر — خنق فيليب ملك مكدونية سنة ٣٣٤ وكان ابنه الاسكندر اذ ذاك ابن عشرين سنة وكان مثل جميع اليونان من ابناء البيوت الشريفة ماهرًا في الالعاب الرياضية شديد القوى في الكفاح يحسن ركوب الصافنات الجياد (وهو الذي استطاع وحده ان يكبح جماح حصانه بوسيفال في الحرب) وكان زيادة على ذلك عارفا بالسياسة حسن البيان يعلم التاريخ الطبيعي وكان استاذه من سن الثالثة عشرة الى السابعة عشرة الفيلسوف ارسطو اعظم عالم في اليونان فكان يتلو الالياذة بشوق و يدعوها دليل فن الحرب و يريد ان يتشبه بالابطال الذين ورد ذكرهم فيها · فكأنه خلق ليكون فاتحا لانه مغرم بالقتال مولع بحب الشهرة وكان ابوه يقول له « ان مكدونية ضيقة النطاق فلا تسعك »

الجحافل المكدونية — ترك فيليب لابنه الاسكندر اداة من ادوات الفتح ونعني بها الجيش المكدوني وهو احسن جيش عهد في بلاد اليونان يؤلف جيش المشاة وجيش الفرسان فكان الجحفل المكدوني مؤلفًا من ١٦ الفا من الرجال مصطفين الوفا الوفا ستة عشر صفًا ويحمل كل واحد منهم رمحا طوله ستة امتار وكان المكدونيون في ساحة الوغى بدلا من ان يسيروا الى العدو كانهم من جهة واحدة يقفون لا حراك بهم ويضربون برماحهم العدو من كل صوب وكان جنود المؤخرة يرفعون رماحهم من فوق رؤوس الصفوف الاولى بحيث كان ذاك الجيش يشبه حيوانًا عظيماً وقد انتصب وعليه الحديد والعدو يداهمه فيتحطم · وكنت ترى الاسكندر بينا كان الجيش في ساحة الحرب يوقع بالعدو وهو في مقدمة فرسانه وكانت هذه الكتيبة من الفرسان مؤلفة من خيار الفتيان الاشراف ·

فتح آسيا — سافر الاسكندر في ربيع سنة ٣٣٤ في ثلاثين الف راجل (معظمهم من المكدونيين) وفي ٤٥٠٠ فارس لا يحمل معه غير ٧٠ تالونًا من المال (اقل من اربعمائة الف فرنك) وذخيرة تكفي هذا الجيش الضخم اربعين يومًا . ولم يكن عليه ان يقاتل ذاك الغوغاء من الشعوب التي لا سلاح لها وقد سخرها كيخسرو الفارسي لامره فقط بل كان امامه خمسون الفًا من اليونان المجندين في خدمة الخاقان الاعظم تحت قيادة قائد حاذق يدعى ممنون الرودسي فقد كان في مكنة هؤلاء اليونان ان يصدوا المكدونيين عن العبور ولكن صادف ان مات ممنون وتشتت جيشه شذر مذر فتخلص الاسكندر من خصمه الوحيد العنيد وفتح المملكة الفارسية في سنتين . وذلك بعد ان ظفر في ثلاث مواقع فبدد في آسيا الصغرى الجيوش الفارسية الرابطة وراء نهر غرانيك (في مايو ٣٣٣) وهزم الاسكندر داريوس ملك فارس وجيشه الذي يقال انه كان مؤلفًا من ستين الفًا في مضايق سيليسيا في ايسوس (نوفمبر ٣٣٢) وشتت في اربل بالقرب من دجلة جيشًا اكثر عددًا (٣٣١) .

فكانت هذه الغلبات مثالاً من الحروب المادية فالجيش الفارسي لا سلاح له ولا يحسن الرماية وهو مشوش بنفسه في اخلاط من الجند والاجراء والاثقال وكانت الجنود المختارة وحدها هي التي تقاتل والباقي يشتت ويقتل ولم يكن الفتح في غضون الحرب الا نزهة يكتب فيها الظفر وهذا الفاتح لا يجد امامه مقاومًا (١) وماذا يهم شعوب المملكة ان يخضعوا لداريوس او للاسكندر ؟ وكل غلبة يحوزها الاسكندر كان يفتح بها مملكة برأسها فموقعة الغرانيك استولى فيها على آسيا الصغرى ومعركة ايسوس افتتح فيها سورية ومصر ومعركة اربل بقية البلاد .

ولما صار الاسكندر الحاكم المتحكم في المملكة الفارسية اعتبر نفسه وارثًا للخاقان الاعظم صاحب فارس فلبس اللباس الفارسي واستعمل عادات البلاط الفارسي في الاحتفالات الرسمية واكره قواده ان يركعوا امامه على السنة الفارسية وتزوج بامرأة من بنات الفرس وزوج ثمانين من ضباطه من ثمانين فتاة من بنات اشرافهم واراد ان يوسع مملكته الى اقصى الحدود كما فعل الملوك القدماء وتقدم فاتحًا نحو الهند وهو يقاتل القبائل المحاربة ولما عاد في جيشه الى بابل (٣٢٤) هلك بالحمى في بضعة أيام في الثالثة والثلاثين من عمره (٣٢١)

مقصد الاسكندر — من المتعذر جدًا ان نعرف ما كان يقصد الاسكندر . هل كان يفتح حبًا بالفتح ؟ او انه كان له مقصد آخر ؟ وهل كان يريد ان يجعل جميع تلك الشعوب شعبًا واحدًا ومملكة واحدة ؟ هل اتخذ المناحي الفارسية ليكون مثالاً لغيره ؟ او انه قلد

(١) ما عدا مدينة صور الفينيقية خصيمة اليونان لاسباب تجارية

الخاقان الاعظم صلفاً واعجاباً ؟ اننا لم نقف على نياته الا ان اعماله كانت لها نتائج عظيمة

ولقد أسس سبعين مدينة وعدة مدائن في مصر كالاسكندرية وفي بلاد التتر حتى بلاد الهند ووزع على رعاياه الكنوز التي وجدها في خزائن الخاقان الاعظم وكانت مطروحة فيها لا ينتفع بها واخذ معه علماء يونانيين لدرس نباتات آسيا وحيواناتها وجغرافيتها وهيأ الملكات في الشعوب الآسياوية الى تعلم لغة اليونان والتخلق باخلاقهم ولذلك اطلق على الاسكندر لقب الكبير

تأسيس الممالك اليونانية

الاسكندرية — المتحف — ممالك آسيا — التمدن اليوناني في الشرق

خراب مملكة الاسكندرية — جمع الاسكندر تحت علم واحد جميع بلاد العالم القديم من بحر الادرياتيك الى نهر الاندوس ومن مصر الى القافقاس . ولم يدم هذا الملك العظيم الا بدوامه فلما هلك اختلف قواده فيمن يولى الملك بعده وحارب بعضهم بعضاً مدة عشرين سنة واتخذوا باديء بدء حجة لحروبهم بانهم يتقاتلون لمعاضدة احد أسرة الاسكندر كاخيه وابنه وامه واخوته او احدى زوجاته ثم تقاتلوا علناً باسمهم وتوطيداً لدعائم الملك لسلطانهم فكان لكل واحد منهم جزء من الجيش المكدوني او جنود يونان مأجورون فكان اليونانيون يتقاتلون فيمن يستأثر بآسيا ويحكم عليها والناس ينظرون اليهم غير محتفلين بما يأتون كما لو كان اليونان يقاتلون الفرس اعداءهم

ولما وضعت الحرب اوزارها لم يبق الا ثلاثة قواد وقد هيأ له كل منهم مملكة واسعة مما خلفه الاسكندر فحكم بطليموس مصر وسلوقس سورية وليزيماك مكدونية وكانت انفصلت بعض الممالك الصغرى او اخذت بالانفصال عنها مثل ابير في اوروبا ومثل بون وبيتيني وغالاسيا وكابادوس وبرغام في آسيا ومثل مقاطعتي باكتريان وبارسيا من بلاد الفرس وبذلك تم تقسيم مملكة الاسكندر

التمدن اليوناني في الشرق — كان الملك من ابناء اليونان في هذه الممالك الجديدة وقد اعتاد ان يتكلم باليونانية ويتعبد بالارباب اليونان ويعيش عيش اليونان ويحافظ على لغته ودينه وعاداته . رعاياه من الآسياويين أي من البرابرة وهو يحاول ان يجعل له حاشية من جنسه ويجند جنوده من أبناء يونان بالاجرة ويتخذ موظفين يونان لادارة البلاد ويجلب الى عاصمته شعراء وعلماء وارباب فنون من اليونانيين

وكان في البلاد على عهد ملوك الفرس كثير من اليونان والطواريء والتجار ولا سيما من الاجناد فاكثر ملوك اليونان من جلبهم وانتشروا في جميع اطراف آسيا وكثر سوادهم

حتى انتهت الحال بالوطنيين ان يلبسوا اللباس اليوناني وينتحلوا الديانة اليونانية والاخلاق اليونانية بل واللغة اليونانية ولم يعد الشرق آسياويًا بل اصبح يونانيًا حتى ان الرومانيين لم يجدوا في آسيا في القرن الاول الا شعوبًا يشبهون اليونان و يتكلمون باللغة اليونانية بامرهم(١)

الاسكندرية — لقب ملوك اليونان في مصر وهم خلفاء بطليموس بلقب الفراعنة على نحو ما كان يلقب ملوكها الاقدمون ولبسوا التاج ودعوا الناس الى عبادتهم باسم ابناء الشمس ولكنهم كانوا محاطين باليونانيين واقاموا عاصمتهم على شاطىء البحر في مدينة يونانية وهي الاسكندرية . تلك المدينة الجديدة التي أُنشئت بأمر الاسكندر

بنيت الاسكندرية على سطح مستو فكانت ذات نظام اكثر من غيرها من المدن اليونانية وكانت الشوارع تنقسم الى زاوية قائمة ويشقها من وسطها الشارع الاعظم وعرضه ثلاثون مترًا وطوله ستة كيلومترات وعلى جانبيها ابنية عظيمة مثل بناء الستاد حيث كانت تقام الالعاب العامة والجناز والمتحف والارسينوم

وكان المرفأ مؤلفًا من سد طوله الف وثلثمائة متر يصل بين اليابسة وجزيرة فاروس وفي طرف هذه الجزيرة أقيم برج من الرخام جعل في قمته مكان ينبعث منه ضوء على الدوام لتسير به السفن التي تريد دخول المرفإ ومن هناك جاء اسم المنارة . فقامت الاسكندرية مقام المدن الفينيقية وغدت الميناء العظمى للتجارة في العالم بأمره .

المتحف — كان المتحف بناء عظيماً من الرخام متصلاً بقصر الملك وقد اراد ملوك مصر ان يجعلوه معهدًا عليًا عظيمًا . وفيه مكتبة عظيمة (٢) وكان لرئيس القوّام عليها ان يبتاع جميع ما يتسنى له الظفر به من الكتب فكل كتاب يدخل مصر يحمل الى المكتبة والنساخ ينقلون المخطوطات ويرجعون نسخة لصاحبها مع التعويض عليه واتصلت الحال بان جمع على هذا النحو عدد من المجلدات لم يسمع بمثله (وهو اربعمائة الف مجلد كما قيل) وكانت الكتب المخطوطة لكبار المؤلفين الى ذاك العهد مبعثرة مشتتة وعرضة لخطر الضياع فاصبحت يعرف لها مقر يرجع اليه .

وكان في المتحف ايضًا حديقة للنبات والحيوان ومرصد فلكي وقاعة للتشريح اقيمت على الرغم من اوهام المصريين كما أقيم معمل كيماوي (كان الملك بطليموس فيلادلف يخشى كثيرًا

---

(١) كتبت الاناجيل واعمال الرسل في آسيا الصغرى باللغة اليونانية

(٢) حرقت مكتبة المتحف في خلال حصار قيصر لمدينة الاسكندرية ولكن كان لها فرع جعل في السرابيوم وفيه على ما يقال ثلثمائة الف مجلد . وقيل ان هذه المكتبة الثانية حرقها المسلمون في القرن السابع ولكن الظاهر انها فقدت من قبل (قاله المؤلف)

من الموت فقضى بضع سنين في البحث عن اكسير لاطالة الحياة) وكان في المتحف العسكري مساكن للعلماء والرياضيين والفلكيين والاطباء والنحويين ويقدم لهم غذاؤهم على نفقة الحكومة وكثيرًا ما كان الملك يتناول الطعام معهم دليلاً على احترامه لهم وكانوا يقضون اوقاتهم في المحاورة والمطالعة ويجيء الناس من جميع بلاد يونان ليستمعوا لما يلقون وكان الشبان يبعث بهم آباؤهم الى الاسكندرية ليتعلموا . ويقال انه كان فيها نحو ١٤ الفًا من الطلاب .

ومن ثم كان المتحف مكتبة ومجمعًا علميًا ومدرسة في آن واحد فهو اشبه بمدرسة جامعة وهذا الوضع الذي هو عام بيننا مألوف كان على ذاك العهد من الاوضاع الجديدة التي لم يسبق لها نظير . ولقد اصبحت الاسكندرية بفضل متحفها مقصد جميع المشارقة من يونان ومصريين واسرائيليين وسوريين يحمل اليها كل منهم دينه وفلسفته وعلمه ويختلط بعضهم ببعض فغدت الاسكندرية اذ ذاك وظلت قرونًا كثيرة عاصمة العلم والفلسفة في العالم

برغامة — كانت برغامة في آسيا الوسطى من الممالك الصغرى ولم تعد لها سطوة بيدان عاصمتها برغامة كانت كالاسكندرية مدينة ارباب الصنائع والادب وانشأ نقاشو برغامة في القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة مشهورة (١)

وقد ملكت برغامة كما ملكت الاسكندرية مكتبة كبرى جمع اليها الملك اتال الكتب المخطوطة لقدماء المؤلفين وفي برغامة اخترعت الكتابة على الجلود للاستعاضة عن ورق البردي وكان هذا الورق الجديد ورق برغامة هو الرق الذي حفظت به المخطوطات القديمة

الحروب الاخيرة في يونان

العصابات — الفتح

الحروب الاهلية — كانت بأيدي بضع أُسرات غنية من اليونانيين في جميع المدن اليونانية على التقريب جميع الاعمال والمعامل الصناعية والسفن التجارية وعامة مصادر الربح وموارد العيش اما سائر الاسرات اي السواد الاعظم (٢) فلم يكن لهم ارض ولا مال

---

(١) اتصل بنا بعض التماثيل التي استصنعها الملك اتال ذكرى لانتصاره على الغاليين في آسيا المعروفين بالغلاسيين

(٢) لم يكن في جميع المدن اليونانية تقريبًا طبقة وسطى تشبه الطبقة الوسطى في اوروبا وبذلك كانت تعد آثينة بما فيها من ١٣ الفًا من ارباب الاملاك من الشواذ النادرة وكانت من المدن التي قلت فيها الثورات

وماذا كان الوطني الفقير يعمله ليكسب رزقه ؟ لم يكن له الا ان يؤجر نفسه زراعاً او عاملاً او ملاحاً . بيد ان عبيد ارباب الثروة في مصانعهم ومعاملهم وسفنهم كانوا يقومون بهذه الاعمال ولا يكلفون للانفاق عليهم غير شيء زهيد بالنسبة للنفقات التي كان على السادة ان ينفقوها اذا استخدموا الاحرار في اعمالهم لانهم كانوا يطعمون عبيدهم طعاماً غليظاً ولا يؤدون اليهم اجوراً . ثم انه من الصعب على الفقير ان يعمل لحسابه لندرة الدراهم ولم تكن الفائدة اقل من عشرة في المئة وهيهات ان يقرضه انسان مايعوزه

على ان العادة لم تكن تسمح للوطني ان يتعاطى الصنائع لان الفلاسفة كانوا يقولون بانها تفسد الجسم وتضعف النفس ولا تترك في وقت صاحبها متسعاً للنظر في الشؤون العامة ولذلك قال ارسطو ان المدينة الحسنة النظام لا يجب عليها ان تعد الصانع فيها وطنياً . فكانت من الوطنيين في يونان طبقة شريفة ترى كما كان يرى الاشراف في فرنسا قديماً ان لها الحق ان تحكم وتحارب وفي ذلك شرفها اما تعاطيها الاعمال بايديها فيعد تنازلاً واتضاعا ومن اجل هذا حالف البؤس معظم الوطنيين بما كانوا عرضة له من منافسة العبيد في اعمال الحياة وما وقر في نفوسهم من شروط الشرف والنباهة فحكم الفقراء المدن ولم تكن اسباب عيشهم متوفرة وخطر لهم ان يسلبوا الاغنياء فألف هؤلاء شركات منهم لمقاومة اولئك وعند ذلك انقسمت كل مملكة يونانية الى قسمين الاغنياء ويدعون « الاقلية » والفقراء ويدعون « الاكثرية » او الشعب . وبدأ الاغنياء والفقراء يتباغضون ويتقاتلون فاذا صار الحكم للاغنياء يطردون الاغنياء ويصادرون اموالهم وربما اتخذوا واسطتين بالغتين في التطرف وهما الغاء الديون وتقسيم الاراضي من جديد . فاذا عادت السلطة للاغنياء يطردون الفقراء وكانوا يتعاهدون بينهم في كثير من المدن قائلين : « اقسم باني اظل ابداً معادياً للشعب واؤذيه ما استطعت » ولم يكن ثمت من سبيل الى التوفيق بين الفريقين فلا الاغنياء يستطيعون ان يستسلموا للتخلي عن ثروتهم ولا الفقراء يرضون بان يموتوا جوعاً . قال ارسطو « ان الثورات تنشأ من سبب تقسيم الثروات » . ويقول بوليب « ان كل حرب اهلية تنشب فهي لتنقل الثروات من يد الى اخرى » .

ومن ثم كان الفريقان يقتتلان اشد قتال على نحو ما يحدث ابداً بين الجيران فتغلب الفقراء بادئ بدء في ميلت واكرهوا الاغنياء على الهرب من المدينة ثم اسفوا لانهم لم يذبحوهم فاخذوا اولادهم وجمعوهم في الانابير تحت ارجل البقر ودخل الاغنياء المدينة فاصبحوا اصحابها الحاكمين فيها واخذوا هم ايضاً ابناء الفقراء وزفتوهم (دهنوهم بالزفت) واحرقوهم احياء .

الحكم الجمهوري والحكم الافرادي — كان لكل من الاغنياء والفقراء شكل خاص في الاحكام يجرونها في المدينة عند ما يقوى احد الفريقين · فكانت حكومة الاغنياء من نوع الحكم الافرادي (اوليكارشي) تعهد بالاحكام الى بعض افرادها اما حكم الفقراء فكان حكمهم ديمقراطياً يكلون حكمهم الى مجلس الامة وكل واحد من الفريقين ينفق مع الفريق المماثل له في المدن الاخرى وبذلك تألفت عصابتان تقاسمتا بينهما جميع المدن اليونانية : عصابة الاغنياء او الحكم الافرادي وعصابة الفقراء او الحكم الجمهوري · وبدأت هذه الطريقة في الحكم خلال حرب المورة فكانت آثينة تعضد الحزب الديمقراطي واسبارطة تمالىء الحكم الافرادي فاتحدت المدن التي كان فيها سلطة للفقراء مع آثينة كما اتحدت المدن التي تسلط عليها الاغنياء مع اسبارطة ·

ولقد دامت الحروب الاهلية بين الاغنياء والفقراء نحو ثلاثة قرون (من ٤٣٠ الى ١٥٠) ذبح في خلالها كثير من ابناء البلاد وطرد منهم عدد اكثر من ذلك فاخذوا يهيمون في اطراف الارض على وجوههم لا مورد لهم يعيشون منه ولا يعرفون الا صناعة واحدة وهي الجندية فينخرطون متطوعين في الجيش الاسبارطي والآثيني وفي جيش الخاقان الاعظم والجيش الفارسي بل وفي كل جيش يدفع اليهم اجورهم فكان من ابناء يونان خمسون الفاً في خدمة دارا عند ما قاتل الاسكندر وهم لا يكادون يعودون الى بلادهم متى خرجوا منها ·

العصابات — ضعفت الشعوب التي حكمت على بلاد اليونان واسبارطة وآثينة وثيبة ولم يبق في القرن الثالث من اهل الشدة والبأس غير سكان غربي البلاد فالايتوليون يسكنون الجبال في شمالي خليج كورنت والآشيون النازلون في شاطىء المورة في جنوبي هذا الخليج وقد نظموا احوالهم عصابات لا مدناً فاحتفظت كل مدينة بحكومتها وكان لها كلها مجلس للعصابة يقرر فيه الحرب والعهود ويفرض الجند الذي تقدمه وينتخب القائد الذي يقضى عليه ان يقود جيش العصابة ·

فانقسمت المدن اليونانية بين هاتين العصابتين المتعادتين · ومن العادة ان تعضد العصابة الايتولية الحزب الديمقراطي والعصابة الآشية الحزب الاوليكارشي · وقد رأس العصابة الآشية ضابطان شهيران احدهما ارتوس في القرن الثالث وهو الذي طاف بلاد اليونان سبعاً وعشرين سنة (٢٥١ — ٢٢٤) طارداً الظالمين من جميع المدن آخذاً بيد الاغنياء معيداً اليهم اموالهم ومقلدهم حكم البلاد والقائد الثاني فيلو بيمن قام في القرن الثاني وقاتل الظالمين في اسبارطة فقتله المسينيون ·

احلاف الرومانيين — لم يكن احد من تينك العصابتين من القوّة بحيث يجمع جميع المدن اليونانية وعندئذ ظهر الرومان فحاربهم من ملوك اليونان فيليب ملك مكدونية (١٩٧) ثم ملك سورية انطيوخس (١٩٣ — ١٦٩) فنكست اعلامهما كليهما ودمرت رومية جيوشهما واستولت على اساطيلهما وقاتلت «برسى» ملك مكدونية الجديد وأسرته وخربت مملكته (١٦٧).

ولم يحاول اليونان قط ان يجتمعوا للدفاع عن انفسهم وظل فقراؤهم واغنياؤهم يقتتلون وكل حزب يمقت الحزب المعادي له اكثر من بغضه الغريب وتحالف الحزب الديمقراطي مع ملك مكدونية ودعا الحزب الاوليكارشي للرومانيين. وبينا التيبيون من الديمقراطيين يقاتلون في جيش فيليب كان مواطنوهم من الاوليكارشيين يفتحون ابواب المدينة للقائد الروماني وقد حكم بالاعدام في رودس على كل من قاموا او تكلموا بما يخالف رضى رومية كتب كاليكرات احد اشياع الرومانيين من الآشيين قائمة بالف وطني اتهمهم بانهم كانوا يميلون للبرسي فارسلوا الى رومية وأمسكوا فيها عشرين سنة بدون ان يحاكموا

الفتح — لم يظهر الرومانيون اولاً في مظهر الاعداء وقد ذهب القنصل فلامانيوس سنة ١٩٧ بعد ان غلب ملك مكدونية الى برزخ كورنت واعلن امام اليونانيين المجتمعين للالعاب البرزخية بان جميع الشعوب اليونانية حرة فطارب الجمهور لقوله واقتربوا منه ليشكروه يريدون ان يسلموا عليه وهو محررهم وان يروا صورته ويلمسوا يده ويلقوا عليه اكاليل النصر وباقات الزهور فازدحم الناس عليه حتى كاد يختنق.

ولم يلبث الرومانيون ان اصبحوا سادة فحدثتهم انفسهم بان يقودوا البلاد فاطاعهم الاغنياء عن رضىً لان رومية كانت لهم واسطة للخلاص من حزب الفقراء ودامت هذه الحال اربعين سنة. ولما شغلت رومية بقرطجنة سنة ١٤٧ اعادت للحزب الديمقراطي حياته في بلاد اليونان فاعلن الحرب على الرومانيين فذُعر لذلك فريق من اليونانيين وتقدم كثيرون الى الجند الروماني ووشوا اليهم بمواطنيهم بل وشوا بانفسهم وبعضهم فروا الى اقاصي المدن وآخرون القوا بانفسهم في الآبار او الهوات وصادر زعماء المقاومين اموال الاغنياء والغوا الديون واعطوا سلاحاً للعبيد وكان الجهاد شديداً واذ غلب الآشيون للمرة الاولى عادوا فحشدوا جيشاً وساروا الى القتال مستصحبين نساءهم واولادهم وحبس القائد ديوس نفسه وجميع عياله في بيته والقى فيه النار.

وكانت كورنت مركز المقاومة فدخلها الرومانيون وذبحوا الرجال وباعوا النساء والاولاد

(١٤٦) ونهبت المدينة وحرقت وكانت مملوءة بالنفائس وكنت ترى صور كبار المصورين مطروحة في الغبار والجند الروماني مستلقياً فوقها يلعب بالنرد اه ·

الرومانيون

وصف ايطاليا

شعوبها القديمة — سكنت ايطاليا عدة اجناس من الامم لم يتحدوا في عاداتهم ولغاتهم فكان يعتبر السهل العظيم الشمالي بين جبال الالب والابنين جزءاً من ايطاليا وهنالك نزل شعوب من الغاليين اتوها من الشمال. فكان الاتروسكيون ينزلون في البلاد الواقعة بين جبال الابنين والبحر (هو اقليم توسكانيا) الى نهر التيبر وفي جنوبه ينزل اللاتين · ولقد سكنت قبائل كثيرة في جبال الابنين الوعرة وراء السهول الرومانية في الشرق والجنوب ولم تدع كل هذه الشعوب باسم واحد ولم تؤلف امة واحدة بل كانت تنقسم الى اومبريين وصابنيين وفولسكيين وايكيين وهرنكيين ومارسيين وسامنيين ولكنهم يكادون كلهم يتكلمون بلغة واحدة ويعبدون ارباباً واحدة ولهم عادات واحدة · يتكلمون كالفرس والهنود واليونان بلغة آرية ولبعدهم وراء جبالهم عن الاختلاط بغيرهم احتفظوا بعاداتهم القديمة وعاشوا عصابات مع قطعانهم مشتتين في الخلاء ولم يكن لهم مدن ولا حواضر بل كانوا يلجؤن زمان الحرب الى حصون أقيمت في الجبال وقد عرفوا بالشجاعة والقتال وبسلامة الاخلاق ومتانتها وكان منهم بعد حين اعظم قوة للجيش الروماني وفي امثالهم: « من يستطيع ان يتغلب على المارسيين او ان يغلب بدونهم »

جاء في احدى اساطيرهم ان الصابنيين نزل بهم خطب فادح فاعتقدوا ان الارباب ساخطون عليهم فعقدوا العزم على ان يسكنوا غضبها وان يقدموا ضحية الى رب الحروب والموت كل من يولدون من الاولاد في احدى فصول الربيع · ودعيت الضحية « الربيع المنذور » فاصبح جميع الاطفال الذين وضعتهم أمهاتهم تلك السنة ملكاً للرب حتى اذا بلغوا سن الرجال غادروا البلاد وبعدوا عنها الى القاصية وتألفوا عصابات فاختارت كل عصابة احد حيوانات ايطاليا المقدسة دليلاً من مثل الصرد والذئب والثور وهي تتبعه كأنها تتبع مرسلاً من الرب وحيثما وقف الحيوان تنزل العصابة وتتخذه موطناً لها · وقيل ان عدة شعوب من ايطاليا كان اصلها من تلك الأسرات من النازحين وما زالت محافظة على اسم الحيوان الذي كان اجدادها اتبعوا آثاره في القديم وذلك مثل المربينيين (شعب الذئب) والبيسانتينيين (شعب الصرد) والسامنيين وكانت عاصمتهم تسمى بوفيانوم أي مدينة البقرة ·

السامنتيون — كان السامنتيون من اقدر تلك الشعوب وقد سكنوا في اقليم الابروز وهو معصى حقيقي فينزلون الى السهول المخصبة في نابلي و بوبل و ينهبون المدن الاتروسكية والمدن اليونانية . جاهدوا قرنين في الرومانيين فكانوا كل مرة يردون على اعقابهم خاسرين اذ لم يكن لهم موطن ولا نظام ثم يعاودون القتال . وكان جهادهم الاخير شديداً . ولقد اتى شيخ الى زعماء الجيش بكتاب مقدس كتب على نسيج من الكتان فاقاموا داخل المعسكر سوراً من نسيج الكتان وجعلوا في وسطه مذبحاً والجند واقفين من حوله شاهرين سيوفهم فيدخل اشجع المحاربين الى السور وتؤخذ عليهم العهود ان لا يهربوا من الزحف امام العدو وان يقتلوا المنهزمين فاخذ من اقسموا الايمانات المغلظة وكانوا ستة عشر الفاً لابسة من الكتان فتألفت منهم (كتيبة الكتان) وشرعت في القتال فقتلت عن آخرها .

يونان ايطاليا — سكن ايطاليا الجنوبية طوارئ من اليونانيين كما سكن بعضهم مدينة سيباريس وكروتون وتارانت وقوي فيها امرهم وكثر سوادهم . بيد ان اليونانيين لم يلقوا بانفسهم قط الى الوقوع في التهلكة اذا لم يقصدوا رومية خوفاً من الاتروسكيين وما عدا مدينة كومس فان المستعمرين من ابناء يونان كانت لهم الى القرن الثالث صلات قليلة مع الرومانيين .

الاتروسكيون — أطلق اسم الاتروسكيين على اقليم توسكانيا فسمي تروسكي وهو اقليم حار رطب مخصب للغاية . وظلت حال الاتروسكيين الى الآن طلسماً من الطلاسم لم نفكه فهم لم يكونوا يشبهون جيرانهم ولا يعلم من اين اتوا بل اننا لا نعرف اللغة التي يتكلمون بها الا ان ابجديتهم تشبه ابجدية اليونان ولكن الآثار التي عرفت عن هذا الشعب قصيرة لا نتمكن معها من استثبات لغتهم .

كان الاتروسكيون يحسنون استخدام ارضهم في الزراعة على انهم عرفوا بالبحارة والتجارة ايضاً وكانوا يذهبون كالفينيقيين الى البلاد القاصية للبحث عن عاج الهند وعنبر البلطيق وعن القصدير والارجوان الفينيقي والحلي المصرية المكتوب عليها حروف هيروغليفية وعن بيض النعام . وانك لتجد من جميع هذه الاشياء في قبورهم . وكانت سفنهم تتقدم نحو الجنوب حتى جزيرة صقلية . وقد كان اليونان يكرهونهم و يدعونهم (التيرينيين المتوحشين) او القرصان الاتروسكيين . وكل بحار في تلك العصور ساعدته الاحوال يأتي منه قرصان بحر فكان من مصلحة الاتروسكيين خاصة ان يردوا البحارة اليونان و يصدوهم ليخلوا لهم الجو في الشاطئ الغربي من ايطاليا و يستأثروا بتجارته . ولم يبقوا من آثارهم الا حوائط حصينة وقبوراً . وعند ما يفتح قبر احد الاتروسكيين تشاهد وراء باب ذي عمد غرفاً فيها سرر . وقد امتدت عليها جثث وحواليها حلي من الذهب والعاج والعنبر واقمشة الارجوان وفرش واوان كبيرة

منقوشة اما الجدران فيرسمون عليها صور حروب والعاباً وولائم ومشاهد غريبة ·

وان ما استخرج من القبور بالالوف من الاواني الاتروسكية فازدانت به متاحفنا وصنع على مثال الاواني اليونانية هو من صنع الاتروسكيين انفسهم وفيها مشاهد ميثولوجية يونانية ولا سيما صور الحروب التي جرت حول طروادة والاشخاص نائئة حمراء على صفيح اسود وقد أسس الاتروسكيون في طوسكانيا اثنتي عشرة مدينة ولكل منها ملكها وحكومتها وكان لهم من الجانبين مستعمرات فلهم اثنتا عشرة مستعمرة في اقليم كامبانيا في جوار نابولي واثنتا عشرة في سهل بو·

ديانتهم — اعتقد الاتروسكيون بارباب جبارين وربما كانوا اشراراً وارقى اولئك الارباب الارباب المستورون المجهول امرهم ثم يجيء بعدهم الارباب الذين يرسلون الصاعقة وعددهم اثنا عشر رباً يؤلفون مجلساً لهم ويعتقدون انه يقيم تحت الارض في مدافن الاموات ارباب مشائيم وكثيراً ما كانوا يمثلون صورهم على اوان من صنع ايديهم فيمثلون ملك الجحيم المدعو مانتوس في صورة جبار مجنح جالس وتاج على رأسه ومشعل بيده كما يمثلون شياطين آخرين مسلحين بسيف او مطرقة والحيات يقبضون عليها بايديهم وهم يتلقون ارواح الموتى واهمهم الشيطان شارون المعروف عند اليونان بهذا الاسم ايضاً وقد تخيلوه على صورة شيخ ذي هيئة قبيحة يحمل مطرقة ثقيلة ليضرب بها ضحاياه · ويعتقدون ان ارواح الموتى وتسمى « المان » تخرج ثلاثة ايام في السنة من مقرها في عالم الظلمات وتطوف الارض تروع الاحياء وتؤذيهم فيقدم لهم الاتروسكيون ضحايا بشرية تسكيناً لغضبهم لانهم يحبون الدم · وكانت معارك المصارعين المشهورة التي اصطلح عليها الرومان ضحايا دموية اكراماً للميت في اصل نشأتها وكان للعرافين الاتروسكيين الذين دعوا بالهاروسبيسيين او اهل الفأل قواعد يجرون عليها للتنبوء عن المستقبل فيرصدون احشاء الضحايا كما يرصدون الصاعقة وطيران الطير فيقف العراف ويدير وجهه نحو الشمال ماسكاً بيده عصا معقوفة ويخط خطاً يقطع به السماء شطرين فشطر الشرق وهو على اليمين يكون فأل خير وشطر الشمال يكون فأل شر (١) ثم يقطع الشطر الاول على قطع الصليب ويؤلف خطوطاً متوازية يكون منها في السماء شكل مربع يدعونه المعبد فيرمي العرّاف ببصره الى الطيور التي تمر في ذاك المربع فبعضها كالنسر علامة خير واخرى كالبومة طالع شؤم·

ولقد تنبأ الاتروسكيون عن مستقبلهم بانفسهم فهم الشعب الوحيد من بين الشعوب

---

(١) هذا اشبه بالسانح والبارح عند العرب ولعلها اخذته عن الرومان تقول العرب : من لي بالسانح بعد البارح اي بالمبارك بعد الشؤم قال ابوعبيدة سأل يونس رؤبة وانا شاهد

القديمة الذي لم يعتقد بانه خالد وكانوا يقولون ان بلادهم يدوم امرها عشرة قرون . وهذه القرون لم يكن كل واحد منها مؤلفاً من مئة سنة ولا تعين مدة القرن الا بعد ان يجري لـ فأل . ففي سنة ٤٤ وهي سنة وفاة قيصر ظهر في السماء نجم مذنب فقال احد العرافين من الاتروسكيين في رومية في جمع من الامة ان هذا النجم يشير الى نهاية القرن التاسع وابتداء القرن العاشر وهو آخر قرن يستقيم فيه امر الاتروسكيين .

نفوذ الاتروسكيين — كان الرومان امة نصف متوحشة فاقتدوا كثيراً بالاتروسكيين وهم اكثر منهم تمدناً واخذوا عنهم بعض المصطلحات الدينية خاصة مثل البسة الكهنة والحكا. والشعائر الدينية وعلم معرفة الغيب وزجر الطيور وعند ما كان الرومانيون يؤسسون مدينة يجرون على شعائر الاتروسكيين فيخط المؤسس لها بالمحراث سوراً مربعاً وللمحراث سكة من النحاس يجرها ثور ابيض و بقرة بيضاء فيتبع الناس المؤسس ويلقون بزيد العناية جميع مدر الارض من ناحية السور وتصبح كل الهوة التي يشقها المحراث مقدسة لا يستطيع احد ان يتعداها للدخول في السور ولذلك اقتضى ان يقطع المؤسس تلك الاثلام او الهوة المقدسة من عدة مواقع فكل مكان يتخطاه المحراث يفتح فيه باب وكل فرجة لم تمسها السكة تبقى غير مقدسة وتكون باباً يسوغ منه الدخول . ولقد أسست رومية بحسب هذه المراسم الدينية وكانت تسمى رومية المربعة و يقولون ان مؤسسها قتل اخاه عقاباً له عن تجاوزه السور المقدس الذي خطه ثم جرى الاصطلاح ان تخطط اسوار المستعمرات والمعسكرات الرومانية بل وحدود المساكن بحسب هذه القواعد الدينية وبخطوط نصف هندسية . وكان دين الرومانيين من اصل اتروسكي فنقلوه الى ارجاء العالم القديم بأسره ولذلك حق لآباء الكنيسة ان تسمي بلاد الاتروسكيين « ام الخرافات »

اللاتينيون — نزل اللاتينيون في بلاد الآكام والشعاب الواقعة جنوبي نهر التيبر وهي يطلق عليها اليوم اسم برية رومية وكانوا قليلاً عددهم ولم تكن مساحة البقعة التي يسكنونها اكثر من ٢٧٠٠ كيلومتراً مربعاً وكانوا من عنصر واحد كسائر الطليان يشبهونهم باللغة والدين والاخلاق ولكنهم يفوقونهم في التمدن بعض الشيء يزرعون الارض و يبنون

عن السانح والبارح فقال السانح ما ولاك ميامنه والبارح ما ولاك مياسره وقال ابو عمرو الشيباني : ما جاء عن يمينك الى يسارك وهو اذا ولاك جانبه الايسر وهو انيسه فهو سانح وما جاء عن يسارك الى يمينك وولاك جانبه الايمن وهو وحشيه فهو بارح قال ابن بري العرب تختلف في العيافة يعني في التيمن بالسانح والتشاؤم بالبارح فاهل نجد يتيمنون بالسانح (المترجم)

المدن الحصينة و ينقسمون الى شعوب صغيرة مستقلة ولكل شعب ارضه الخاصة به ومدينته وحكومته وتدعى تلك المملكة الصغيرة مدينة ·

ولقد قامت ثلاثون مدينة لاتينية فالفت منها مجتمعاً دينياً يشبه مجتمع الامفكتيون اليوناني واخذوا كل عام يحتفلون احتفالاً عاماً نعيد لهم وتندب كل مدينة عنها من يمثلها في مدينة الب فيذبحون ثوراً ضحية للرب المشترك بينهم وهو كوكب المشتري اللاتيني ·

رومية الاصلية

رومية — على تخوم قطر اللاسيوم من ناحية بلاد الايتروسكيين يمتد سهل ذو بطائح تتخلله أكمات وتلمات هناك على ضفة نهر التيبر أنشئت مدينة رومية مقر الشعب الروماني المتفرق في الخلاء · ولقد كانت الحميات تنتاب تلك البلاد وحالتها من الكآبة والبؤس على جانب ولكن كان موقعها جميلاً ونهر التيبر بمثابة هوّة قائمة في وجه الايتروسكيين كما كانت تلك الآكام كالحصون و بين تلك المدينة والبحر ستة اميال وهو بعدٌ لا يكاد يحميها من سطوة قرصان البحر و بقربها قليلاً من تناول البضائع الواردة عليها · وكان مرفأ اوستي عند مصب نهر التيبر حيّاً من احياء رومية كبير مثل بيرة مرفأ آثينة · فموقع رومية كان والحالة هذه مناسباً لحال امة حربية تجارية ·

تأسيس رومية — لا نعرف من حال القرون الاولى لرومية غير اساطير · والرومانيون انفسهم لم يعرفوا عنها شيئاً مثلنا · وقد ادعوا ان رومية كانت لاول امرها مدينة صغيرة مربعة المساحة قائمة كلها على رابية « بالاتين » و يدعى مؤسسها رومولوس وهو الذي اختط سورها بمحراث مراعياً في تخطيطها الشعائر الايتروسكية · وكان الرومانيون يحتفلون كل سنة يوم ٢١ ابريل (نيسان) بعيد هذه المدينة فيطوفون حول سورها الاصلي فيدق احد الكهنة مسماراً في بعض المعابد تذكاراً للحفلة · وكان يقدّر ان الاحتفال بتأسيس تلك المدينة قد وقع في سنة ٧٥٤ قبل المسيح ·

أنشئت على الروابي الاخرى قبالة جبل بالاتين عدة مدن صغرى ونزلت عصابة من سكان الجبال من السابنيين في معبد الكابيتول كما حلت عصابة اخرى من متشردي الايتروسكيين في جبل سليوس وربما كان ثمت ايضاً شعوب اخرى · وانتهت الحال بجميع اولئك الجماعات الصغيرة ان يجتمعوا في مدينة رومية الواقعة على رابية بلاتين ثم انشيء سور جديد احاط بالسبع اكمات · اما ساحة المريخ حيث يقف الجيش فكانت ممتدة الى نهر التيبر من الشاطيء الآخر من النهر خارج السور فكان الكابتول في رومية مثل الاكروبول في آثينة · ولقد قامت على هذا الصخر معابد الارباب الثلاثة حامية المدينة وهي المشتري

وجونون ومنيرفا وهنالك القلعة التي حوت خزانة الحكومة وسجلات الامة . وفي اساطيرهم انهم عثروا عند ما حفروا أسس المدينة على رأس رجل قطع حديثاً فكان هذا الرأس فألاً حسناً اولوه بان رومية ستغدو رأس العالم .

تقاليد بشأن الملوك وانشاء الجمهورية — جاء في هذه التقاليد انه حكم رومية ملوك مدة قرنين ونصف ولم تذكر فيها اسماؤهم وتاريخ وفياتهم بل ذكرت تراجمهم وقيل انهم كانوا سبعة ملوك خرج الاول وهو رومولوس من مدينة آلب اللاتينية فانشأ مدينة بالاتين وقتل اخاه الذي ارتكب محرماً بان قفز من فوق خندق سور المدينة ثم حالف احد ملوك السابنيين المدعو تاتيوس . وفي تقليد آخر انه انشأ في سفح المدينة حياً محاطاً بسياج حشر اليه جميع المتشردين الذين احبوا الانضمام اليه .

اما الملك الثاني وهو نوما بومبيليوس فقد كان سابنياً وهو الذي رتب الديانة الرومانية آخذاً برأي احدى الربات « ايجري » التي كانت تسكن في غابة . وكان الملك الثالث المدعو تولوس هارتيوس حفيد نوما المومأ اليه بنى جسراً من خشب على نهر التيبر وانشأ جسر اوستي وعليهما كانت تمر تجارة رومية منذ ذاك الحين . وكان الملوك الثلاثة الآخرون من الايتروسكيين وحدث من امر تاركين القديم ان وسع المملكة الرومانية وادخل الاحتفالات الدينية الشائعة في بلاد ايتروريا او الايتروسكيين . ونظم سرفيوس توليوس الجيش الروماني بان ادخل فيه جميع اهل البلاد بدون تمييز في موالدهم واعمارهم ووزعهم مئات مئات بحسب ثروتهم . اما الملك الاخير المدعو تاركين الباهر فقد ظلم الاسرات الكبرى في رومية فتآمر عليه بعض الاشراف ووفقوا الى طرده .

ومذ ذاك العهد (٥١٠) لم يملك على الرومانيين ملك فكانت البلاد الرومانية او كما يقال الملك العام يحكم عليها حاكمان يختاران كل سنة ويسميان « القناصل » . وليس من الممكن ان نعلم ما في هذا التقليد من الحقيقة لانه نشأ قبل ان يبدأ الرومان في وصف تاريخهم بزمن طويل وفي هذا التقليد من الاساطير ما لا يسعنا قبوله برمته . وقد حاول بعضهم ان يفسر اسماء هؤلاء الملوك ويستدل منها بانها رمز الى جنس او الى طبقة خاصة كما حاول بعضهم ان ينشيء تاريخ رومية في عهده الاول على ضروب من الصور ولكن كلما بذلت العناية للنظر فيه صعب الاتفاق بين المشتغلين في ذلك على تقرير امر وكثر الخلاف بينهم .

وصف ترتيبات الرومانيين على سبيل الايجاز — كان في رومية نحو القرن الخامس قبل المسيح طبقتان من الناس وهما الباترسين والبلبين (اي الاشراف والعامة) فكان

الباترسيون من نسل قدماء الأُسرات القيمة منذ القدم في البقعة الضيقة في ظاهر مدينة رومية وكان لهم وحدهم الحق ان يظهروا في مجمع الامة وان يحضروا الحفلات الدينية وان توسد اليهم الوظائف · ويعتقدون ان اجدادهم اسسوا المملكة الرومنية او كما كان يقال المدينة الرومانية واوصوا بها لهم فكانوا هم من ثم الشعب الاصلي في رومية اما البلبين فهم من نسل الغرباء النازلين في المدينة ولا سيما من المغلوبين من سكان المدن المجاورة اذ ان رومية اخضعت بالتدريج جميع المدن اللاتينية وضمت سكانها اليها بالقوة فاصبحوا رعايا لرومية لكنهم ظلوا غرباء عنها يخضعون لحكومة رومية دون ان يشركوها في شيء من الامر فلا يدينون بالدين الروماني ولا يسوغ لهم ان يحضروا الحفلات الدينية ولا ان يتزوجوا من الاسرات الشريفة وكانوا يدعون بالبلب اي الجمهور ولا ينظر اليهم بانهم جزء من الشعب الروماني · وقد وُجدت في الصلوات القديمة هذه العبارة « لخير الشعب وخير البلبين في رومية » ·

وكان يجتمع ابناء البلاد وعليهم اسلحتهم كل سنة خارج المدينة في ساحة المناورات (ساحة المريخ) ينتخبون زعيمين يطلقون عليهما لقب القضاة او القناصل · وكان هؤلاء القناصل في خلال السنة التي يتوظفون فيها يحكمون رومية ويقودون جيشها وبيدهم حياة جميع افراد الامة وموتها · يرافقهم اثنا عشر رجلاً من حملة الفؤوس اشارة لمالهم من السلطة فيحمل كل منهم فأساً وحزمة قضبان لجلد المجرمين او ضرب رقابهم · فيجلس القناصل على عادة قدماء الملوك على دكة تشبه العرش وهو كرسي عال من العاج · ويستعاض في اوقات الحروب الخطرة عن القنصلين بحاكم واحد يلقون اليه بزمام السلطة فيصبح الحاكم المتحكم والآمر الناهي وحده ويكون في قبضته الاربعة والعشرون جلاداً ولكن سلطته لا تدوم الا ستة اشهر ·

فيجمع القناصل مجلس الشيوخ وهو مؤلف من رؤساء الأُسرات وكبار ارباب الاملاك للمفاوضة في المسائل المهمة ويدعى هؤلاء بالآباء ويدعى نسلهم بالاشراف فكان مجلس الشيوخ يصدر رأيه ويطلقون عليه « رأي الشيوخ » ومن العادة ان يلتزم القناصل امتثاله فكانت من ثم رومية محكوماً عليها من القناصل ومجلس الشيوخ في آن واحد ·

النزاع بين طبقات الشعب — كان العامة واهل الطبقة الوسطى عبارة عن شعبين متباينين سادة ورعية · ومع هذا كان حال اهل الطبقة الوسطى يشبه كثيراً حال الاشراف فهم يخدمون في الجندية مثلهم ويخدمون في الجيش على نفقتهم ويفادون بارواحهم في خدمة الشعب الروماني وهم مثلهم من اهل الفلح والكرث يعيشون في قراهم واماكنهم وكان كثير

من اهل هذه الطبقة المتوسطة اغنياء ومن أسرة قديمة والفرق بين الطبقة المتوسطة و بين الاشراف ان الاول كانوا من نسل أسرة عظيمة من بعض المدن اللاتينية المغلوبة على حين كان الاشراف من نسل اسرة قديمة من سكان المدينة الغالبة · ولم ترض نفوس اهل الطبقة الوسطى ان تظل ساكتة على ما قضي به عليها من المهانة بل ثار بينهم و بين الاشراف نزاع دام قرنين (من نحو ٢٩٣ الى نحو سنة ٥٠٠) واليك كيف بدأ ذلك على نحو ما ورد في اساطيرهم ·

رأى اهل الطبقة المتوسطة ذات يوم انفسهم مهانة فاعتصموا في جبل هناك وعليهم اسلحتهم وعزموا ان يناوئوا الشعب الروماني فهال عزمهم جماعة الاشراف فبعثوا اليهم بالقائد منينوس اغريبا ليقص عليهم قصة الاعضاء والمعدة فرضيت الطبقة الوسطى بالدخول في الطاعة وعقدت محالفة مع الشعب فمنح روساء هذه الطبقة الحق في ان يمدوا يد المساعدة لاهل الطبقة الوسطى للاخذ بايديهم من حيف حكام الامة ولاجل ان يحولوا دون قيام امر يخالف رغائبهم · وقد كان يكفي ان يلفظ احدهم قوله « فتو » اي اني اعارض فيتوقف البت في الامر · وقد كان الدين يحظر الانتقاض على المدافع عن حقوق الشعب ومن فعل ذلك استحق العقاب من ارباب الجحيم ·

فظل ارباب الطبقة الوسطى آخذين انفسهم بمجاهدة خصومهم من اهل الطبقة العالية واذ كانوا اعز منهم نفرًا واكثر غنىً وأيدًا انتهت بهم الحال ان ظفروا بهم فتوصلوا اولاً الى وضع قوانين عامة للجميع وان يسمح بالزواج بين اهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى وكان اصعب ما في هذا التغيير نزع الاستئثار بسلطة الحكم او الذهاب بفضل الشرف وقد كان الدين يأمر انه يجب قبل ان يعين رجل حاكماً ان يطلب من الارباب فيما اذا كانت توافق على انتخابه ام لا · فيسألون الارباب عن رأيها في ذلك بزجر الطيور و يسمونه اخذ الفأل · بيد ان الديانة الرومانية القديمة لم تكن تسمح باخذ الفأل الا على اسم رجل من اهل الطبقة العليا وما كان يخطر في بال القوم بان الارباب يقبلون بحاكم من اهل الطبقة الوسطى · وكان ثمت اسر كبرى من الطبقة الوسطى تحرص على ان تصبح مساوية لاسر الاشراف في تولي المناصب كما كانت تساويها في الغنى والمكانة فاضطر اهل الطبقة الاولى الى ان تنح لها جميع المناصب شيئاً فشيئاً فبدؤا يدخلون في مجلس القناصل سنة ٣٦٦ وفي مجلس الحكم ٣٥٥ والقضاء سنة ٣٢٧ والمراقبة سنة ٣٣١ وزعامة الدين الكبرى سنة ٣٠٢ ومن ذاك العهد امتزج الاشراف اهل الطبقة العليا باهل الطبقة الوسطى واصبحوا شعباً واحداً ·

الديانة

ارباب الرومان — اعتقد الرومان كاعتقاد اليونان بان كل ما يحدث في هذا العالم

هو مما قضت به ارادة خالق ولكنهم لم يعتقدوا بأنه واحد يدبر العالم بل قالوا بتعدد الارباب بتعدد المظاهر المختلفة التي تتجلى فيها اوامرهم ونواهيهم . فهناك رب ينبت البذر وآخر يحمي حدود الحقول وثالث يحرس الثمار . ولكل رب اسمه وجنسه وعمله . واهم الارباب « المشتري » رب السماء و « جانوس » ذو الرأسين و « المريخ » رب الحرب و « عطارد » رب التجارة و « فولكان » رب النار و « نبتون » رب البحر و « سريس » ربة الحصاد والارض والقمر و « جونون » و « منيرفا » .

ثم يجيء الارباب من الدرجة الثانية فكانت تتجسد في بعض تلك الارباب صفة من الصفات كالفناء والاتحاد والراحة والسلام ويشرف بعضها على عمل من اعمال الحياة فعند ما يولد المولود يأتيه رب يعلمه الذوق وربة تعلمه الشرب واخرى تقوي عظامه وربان يرافقانه الى المدرسة وآخران يرجعان به وبالجملة فانهم كانوا يعتقدون بوجود جيش من الارباب من الدرجة الثانية . ويعتقدون بان هناك ارباباً تحمي مدينة وحارة وجبلاً وغابة . ولكل نهر ولكل نبع ولكل شجرة ربٌ خاص بها حتى لقد قالت امرأة صالحة في احدى القصص من تأليف بترون الكاتب اللاتيني « ان بلادنا غاصة بالارباب بحيث يسهل عليك ان تلقى فيها رباً من ان تصادف رجلاً » .

ولم يتمثل الرومانيون كاليونان اربابهم على صورة مخصوصة فقد مضى زمن طويل ولم يكن في رومية صنم فكانوا يعبدون « المشتري » في صورة حجر و « مارس » على صورة سيف . ولم يقلدوا الا مؤخراً باتخاذ الاصنام من الخشب على مثال اصنام الايتروسكيين واصنام الرخام على مثال اصنام اليونان ولم يتصوروا على العكس في اليونان ان بين الارباب صهراً ونسباً ولا عزوا اليهم قصصاً كما يفعل اليونان مع اربابهم ولا يعرفون لهم جنة يعقدون فيها مجالسهم . وكان في اللغة اللاتينية لفظة مشهورة للتعبير عن الارباب وهي « التجليات » فكانوا يعتقدون انها تجليات قوة الاهية مجهولة . ولذلك لم يصورهم الرومان في صورة من الصور ولا نسبوا اليهم رحماً ولا صهراً ولا تاريخاً وكل ما كان يعرف عن الارباب الرومانيين هو ان كل واحد منها يسيطر على قوة من قوى الطبيعة ويستطيع ان يعمل للناس الخير والشر على ما يحب ويهوى .

العبادة — قلما يحب الروماني اولئك الارباب المجهولين الصفر الباردين . والظاهر انه كان يخاف منهم فيخبأ وجهه عند ما يتوسل اليهم وربما اتى ذلك لئلا يقع بصره عليهم ولكنه يذهب الى ان الارباب قادرون وان من يرضيهم يخدمونه . قال بلوت (الشاعر الهزلي اللاتيني) ان الرجل الذي يرضي عنه الارباب يكسبونه مالاً . ويعتقد الروماني

بان الدين عبارة عن مقايضة المنافع فيقدم المرء للرب نذوره وقرابينه ويمنحه هذا بعض المنافع فاذا قدم المرء ما يجب تقديمه للرب ولم يظفر بمناه يعتبر نفسه قانطاً مخدوعاً · ولقد قدم الشعب للارباب في خلال مرض القائد جرمانيكوس نذوراً لتمن عليه بالشفاء ولما ذاع خبر موته سخط العامة وقلبت المذابح والقت في الشوارع بتماثيل الارباب لان هذه لم تعمل ما كان يرجى منها ان تعمله وهكذا فانا نرى الفلاح الايطالي لعهدنا هذا يشتم القديس الذي لم يعطه ما طلبه منه ·

فالعبادة اذاً عبارة عن القيام بما يرضى عنه الارباب من الاعمال والشعب يأتيهم بالثمار واللبن والخمر ويضحي لهم الحيوانات · وفي بعض الاوقات يخرجون تماثيل الارباب من معابدهم ويحملونها على سرر ويولمون لها وليمة ويقومون بما يقوم به الشعب في بلاد اليونان فيبنون لهم دوراً جميلة وهي المعابد ويحتفلون بار بابهم ·

ولم يكن يكفي في تعظيم ارباب الرومانيين ان ينفق الناس مالاً في سبيل اكرامهم بل كانت تنظر الى الصور التي يقوم بها ذلك الاكرام فتقضي ارادتها ان تجري جميع اعمال التعبد والنذور والالعاب بما رسمته القواعد القديمة (الطقوس) فمتى أريد تقديم ضحية للمشتري كان عليهم ان يختاروا حيواناً ابيض وان يذروا على رأسه دقيقاً مملحاً وان يضرب بفأس وان يقف المقدم لهذه الضحية على قدميه ويداه مرفوعتان الى السماء حيث يقيم المشترى وان يلفظوا بجملة تقديساً لاسمه · فاذا غلط المقدم بما يقول فمعنى ذلك ان الضحية لا تساوي شيئاً ويذهب القوم الى ان الرب لا يرضى عما قدم له · ولقد قام احد الحكام بالعاب اكراماً للارباب الحامية لرومية فقال شيشرون « اذا غيرت عبارة واذا وقف اللاعب بالشباب او انقطع الممثل فتكون الالعاب غير موافقة للشعائر الدينية فيجب اذ ذاك اعادتها » ولذلك كان اهل الرأي من الناس يحضرون كاهنين احدهما يتلو الصلاة والآخر يتابعه فيما يقول

يجتمع الكهنة وهم يدعون « اخوة ارفال » كل سنة في معبد بجوار رومية فيرقصون رقصاً مقدساً ويتلون الصلوات وهي مكتوبة بلغة قديمة لا يفهم منها احد شيئاً ويقتضي في اوائل الصلاة ان يدفع الى كل كاهن مجموع قوانين مكتوبة في اول الجلسة · وظل الرومانيون بعد ان نسيت هذه اللغة بقرون يتلونها كل سنة دون ان يغيروا منها حرفاً · ومما يدل على ان الرومانيين كانوا يرمون الى الوقوف عند حد ما رسمه اربابهم هو انهم كانوا يقومون احسن قيام بقواعد الدين · ولذلك يرى الرومانيون انفسهم من اكثر البشر تديناً · قال شيشرون « اننا احط من جميع الامم او مساوون لهم من كل وجه ولكننا نتفوقهم من كل وجه في امور الدين اي بعبادة الارباب » ·

الصلاة — اذا صلى الروماني فليست صلاته لتزكية نفسه ومناجاة ربه بل ليطلب منه معونة ويسأله حاجة له . فمن ثم تراه يبحث قبل كل شيء عن الرب الذي يستطيع ان ينيله رغبته . قال فارون (الشاعر اللاتيني) : « يلزمنا ان نعرف اي الارباب يتيسر له ان يعيننا في احوال مختلفة كما نعرف اين يقوم النجار والخباز » وهكذا نضت الحال بان يعمد الى سيريس للحصول على زروع جيدة والى عطارد لاكتساب المال والى نبتون للمونة على ركوب البحار . فيلبس المستغيث البسة نظيفة لما وقر في الاذهان من ان الارباب يرغبون في النظافة . ويقدم بين يدي نجواه ضحية لان الارباب لا يحبون من يجيء وايديه فارغة ويقف المستغيث وقد كشف رأسه فينادي الرب الا انه لا يعرف اسم الرب الذي يناديه ويقول الرومانيون انه ما من احد يعرف اسماء الارباب الحقيقية . بل يكتفي بان يقول له مثلاً : « ايها المشتري الاعظم الرحيم او باي الاسماء تحب ان تدعى بها » ثم يعرض عليه ما يريد عرضه متوقياً استعمال جمل صريحة كل الصراحة حتى لا يخدع الرب فاذا قدم له خمر يقال له : « تقبل طاعة هذا الخمر الذي أهرقه » لانه يسهل على الرب الاعتقاد بانه يقدم له خمر آخر غير الذي قُدم له وان يعاقب به . ولذلك كانت صلواتهم مطولة كثيرة الحشو مملوءة بالمترادفات .

الفأل — يعتقد الرومان كاليونان بالفأل فيذهبون الى ان الارباب يعرفون المستقبل ويرسلون للناس آيات يدركونها فيستنصح الروماني الارباب قبل ان يشرع في عمل فاذا ما ازمع القائد فيهم ان يهجم على عدوه يبحث في احشاء الموتى والحاكم قبل ان يجمع لديه مجلساً ينظر الى الطيور السائرة (وهذا ما يدعونه اخذ الطالع والفأل) فاذا كان فيها اشارة موافقة يدركون بان الارباب استحسنت المشروع والا فمعناه انهم غير راضين عنه .

وكثيراً ما يرسل الارباب بالآيات من قبلهم ومن دون ان يسئلوا ارسالها . وكل ظاهرة لم تكن متوقعة تعدُّ فألاً على حادث غير منتظر . فقد ظهرت نجمة مذنبة قبل موت قيصر فذهب القوم الى انها اشارة الى نعيه واذا ارعدت السماء عند ما كانت الامة تجتمع للمفاوضة في امر فمعنى ذلك ان كوكب المشتري لا يحب ان يبتوا امراً ذلك اليوم ولذلك يبغضون كل حادث طفيف ويؤلونه بانه رمز الى امر يقع . فاذا ابرق البرق او سمعت كلمة من متكلم او وقف جرذ في الطريق او شوهد عرّاف فكل ذلك يأخذون منه العبر حتى ان مارسلوس كان اذا عزم على البداءة بعمل امر بان يحمل في محفة مغلقة ليكون على ثقة من انه لا يرى شيئاً يتفاءل به .

وما كان ذلك مجرد خرافات للعامة بل كان للجمهورية الرومانية ستة طوالع تتنبأها

بالمستقبل فكان لها كتاب للنبوآت تبالغ في العناية به دعته كتاب « سيبيلين » وكان لها فراخ مقدسة يقوم على تربيتها الكهنة وما كان يجري عمل عام ولا تلتئم جمعية ولا يشرع بانتخاب ومفاوضة بدون ان يعمدوا الى اخذ الطالع اي انهم ينظرون الى السارح والبارح . وقد شاع سنة ١٩٥ ان الصاعقة انقضت على معبد للمشتري وانه نبتت شعرة على رأس تمثال هركول فكتب احد الولاة بانه ولدت فرخة ذات ثلاث ارجل فاجتمع مجلس الامة للمفاوضة في هذه الفؤل .

الكهنة — لا يقوم الكاهن في رومية بما يقوم به في بلاد اليونان من الاعمال الروحية بل كان ينقطع فقط لخدمة الرب فيلاحظ معبده ويدير شؤون املاكه ويقوم بالاحتفالات لاكرامه وهكذا كانت جمعية السالين (الرقاصين) تحتفظ بترس سقط عليها من السماء كما زعموا وكان يعبد كما يعبد الصنم وكانت تقيم تلك الجمعية كل سنة حفلة رقص بالسيوف وهذا ما كان يتوفر عليه اعضاء تلك الجمعية . والاحبار يراقبون الحفلات الدينية فيضعون تقويمًا للسنين ويحددون اوقات الاعياد التي يجب الاحتفال بها في ايام مخصوصة من السنة ورئيسهم هو الحبر الاعظم .

وما كان الكهنة ولا العرافون ولا الاحبار يؤلفون طبقة خاصة بهم بل يجري اختيارهم من كبار الرجال ويبقون على القيام بجميع وظائف الحكومة فمنهم من يتولى القضاء ومنهم رئاسة الجمعيات ومنهم قيادة الجيوش . ولذلك لم يتألف من الكهنة الرومانيين على قوتهم كما تألف من الكهنة المصريين طبقة كهنوتية فقد كان لحكومة رومية دين خاص بها ولم يكن للكهنة حق الحكم فيها .

عبادة الموتى — اعتقد الرومانيون كما اعتقد الهنود واليونان بان الروح تبقى بعد موت الجسد فان عُنوا بدفن الجثة بحسب العادات فقد اعتقدوا بان الروح تذهب لتحيا تحت الارض وتصبح ربة والا فالروح ليس في استطاعتها الدخول الى عالم الاموات بل كانت تعود الى الارض تدخل الرعب على قلوب الاحياء وتعذبهم ليدفنوها . حكى بلين لجون قصة شبح كان يختلف الى احد البيوت ويهلك سكانه هلعًا فاكتشف احد الفلاسفة ممن كان له قوة قلب تمكنه من اقتفاء اثره الى المكان الذي وقف فيه ذاك الطيف — عظامًا لم تدفن بحسب العادات المتبعة . وهكذا كانت روح الامبراطور كاليجولا تطوف في حدائق القصر فاقتضى اخراج جثته ودفنه ثانية على ما رسمته الشعائر الدينية .

فمن ثم كان مما يهم الاحياء والاموات على السواء المحافظة على العادات الدينية فكانت أُسرة الميت تنصب كومة حطب يحرقون فيها الجسد ويجعلون الرماد في صندوق يضعونه

في القبر . وكان لهم معبد صغير خاص بدفن ارواح الارباب اي الارواح التي اصبحت اربابًا فيأتي اهل الميت في اوقات معينة الى زيارة القبر حاملين طعامًا . لا جرم انهم اعتقدوا قديمًا ان الروح محتاجة الى الغذاء لان القوم كانوا يهرقون الخمر واللبن على الارض ويحرقون لحم المنكوبين ويتركون في الاواني لبنًا وحلاوى . وكانت هذه الاحتفالات بالموتى تدوم ما شاء الله ان تدوم وما كان لاهل بيت ان يتخلوا عن ارواح اجدادهم بل يظلون على العناية بقبورهم ويأتونهم بالغذاء لاطعامهم . ثم ان تلك الارواح التي تتأله او تصبح في عداد الارباب تحب ذريتها وتحمي احفادها من البوائق وهكذا كان لكل أسرة ارباب يحمونها يدعونها آلهة البيت .

عبادة البيت — اعتقد الرومان كاعتقاد الهنود بان اللهيب رب كما ان البيت مذبح فكان لكل اسرة بيت تعبده وتقوم على العناية به ليل نهار تحمل اليه الزيت والشحم والخمر والبخور فيتصاعد اللهب ويسطع كأنه منبعث من الاضحية . فكان الروماني قبل ان يبدأ بتقديم الطعام للبيت يشكر لرب البيت ويدفع اليه جزءاً من الاطعمة ويصب له قليلاً من الخمر وهذا ما يدعونه بالصب والاحراق حتى ان هوراس نفسه على قلة اعتقاده كان يتمشى امام بيته مع خدمته ويصب الطعام ويصلي الصلاة المعتادة

وكان لكل اسرة رومانية في بيتها قبر جعل فيه ارباب البيت وارواح الاجداد ومذبح البيت . وكان لمدينة رومية نفسها بيت مقدس في قبر الالهة فستا وهي عبارة عن اربع عذارى من اعظم الاسرات الرومانية عهد اليهن حراسته وذلك لانهم يرون ان لا ينطفيء اللهيب المقدس مطلقاً ولا يعهد بالقيام عليه الا لاناس من الاطهار فاذا ابت احدى تلك العذارى ان تقوم بما فرض عليها التوفر عليه من هذه الخدمة يدفنونها حية في قبو لانها ارتكبت عملاً طالحاً واوقعت الشعب الروماني في خطر .

الجيش الروماني

الخدمة العسكرية — لم يكن يكفي لقبول الرجل في خدمة الجيش الروماني ان يكون وطنيًا رومانيًا بل يجب ان يكون له بعض الموارد ليجهز نفسه بالسلاح على نفقته لان الحكومة لم تكن تعطي الجندي سلاحًا حتى انها لم تكن تعطيه جراية بأكلها الى سنة ٤٠٢ وعلى هذا فلم يكن يجند من الوطنيين الا من كانوا يملكون بعض ثروة اما الفقراء فكانوا يعفون من الخدمة العسكرية وبعبارة ثانية ليس لهم الحق في خدمتها ويحق كل وطني له بعض الغنى ان يقبل في الجيش بعدان يكون ابلى بلاء حسنًا في عشرين حملة واذا لم يقم بذلك فهو تبع للقائد اي منذ سن السابعة عشرة الى السادسة والاربعين فكل فرد في

رومية كما في المدن اليونانية وطني وجندي في آن واحد والرومان امة مؤلفة من صغار ارباب الاملاك المدربين على القتال ·

التجنيد — متى احتاجت الحكومة الى جند يصدر القنصل امره الى جميع الوطنيين اللائقين للخدمة بان يجتمعوا في معبد الكابتول وهناك يلتئم ضباط تختارهم الامة وهم يختارون من ينبغي لهم من الجند لتأليف جيش وهذا هو التجنيد عند الرومانيين ويسمونه الاختيار · ثم يجري التحليف العسكري فيبدأ الضباط اولاً يقسمون اليمين المألوفة ثم الجند وكلهم يقسمون على الطاعة للقائد وان يقاتلوا دون اعلامهم حتى يكونوا في حلّ من ايمانهم في نظره · فيتلو رجل عبارة ويتقدم كل فردٍ في نوبته فيقول « وانا ايضاً » فيرتبط الجيش اذ ذاك بالقائد ارتباطاً دينياً ·

دُعي الجيش الروماني اولاً الفرقة او التجنيدة ولما نما الشعب اصبح يؤلف بدل الفرقة فرقاً والفرقة الرومانية عبارة عن ٤٢٠٠ او ٥٠٠٠ رجل كلهم من ابناء البلاد · وكان اصغر جيش على الاقل عبارة عن فرقة وكان كل جيش بقيادة قنصل عبارة عن فرقتين على الاقل · ويتألف نحو نصف الجيش من هذه الفرق وكان على جميع شعوب ايطاليا الخاضعة لرومية ان تبعث اليها بعوثها ويدعى هؤلاء الجنود « المحالفون » وهم تحت قيادة الضباط الرومانيين · وكنت ترى المحالفين في الجيش الروماني اكثر عدداً من كتائب الوطنيين · وجرت العادة ان يبعثوا مع كل اربع فرق (١٦٨٠٠ جندي) عشرين الف راجل من المحالفين وهكذا كان الشعب الروماني في حروبه يستخدم رعاياه اكثر من مواطنيه ·

التسليح — اعتاد الرومان كاليونان ان يحاربوا مترجلين متدرعين بالدروع والخوذ والمسامي (الطاقات) قابضين بايديهم اليسرى على ترسة ليدفعوا بها الضربات · مضى عليهم زمن وهم يقاتلون بالرمح والسيف فكانوا اذا تلاقوا بالعدوّ يجتمعون كتيبة واحدة على نحو ما كانت تجتمع الكتائب الرومية ثم عمدوا الى استعمال ضرب آخر من ضروب الكر والفر · وتقسم الفرقة الى سرايا صغيرة كل سرية مؤلفة من ١٢٠ جندياً « مانيبول » اي الفريقة لان علمهم عبارة عن حزمة من الحشيش فتصطف كل فرقة على شكل رقعة الشطرنج على ثلاث خطوط وكل فرقة منفصلة عن جارتها بحيث يكون المجال امامها متسعاً للعمل على حدتها فيضرب جنود فرق الصفوف الاولى بحرابهم ويضعون سيوفهم في ايديهم ويبدؤون بالقتال · فاذا اندحروا يتراجعون الى الفضاء الذي وراءهم فيزحف الصف الثاني من الفرق في نوبته الى القتال فاذا ما دُحر ينكفيء راجعاً نحو الخط الثالث · وهذه الفرق

هي خيرة رجال الجيش يحملون الرماح وهم واسطة لقيادة اخوانهم الآخرين لقتال الاعداء بهم .

وبعد فان الجيش الروماني لا يتألف جملة واحدة للقتال في آن واحد بل ان القائد يعبي جنده مراعياً حالة الارض التي يتخذها ساحة لقراع الاعداء . ولما التقى كتائب جنود الرومانيين وفرق المكدونيين في جبال سينوسيفال في تساليا للمرة الاولى وهما اشهر ما عهد من الجيوش في العهد القديم كان ميدان القتال عبارة عن أكمات وتلعات فلم يكن في امكان الستة عشر الف محارب من المكدونيين ان يظلوا متماسكين متجمعين بل كانت صفوفهم ذات فروج فزحفت الفرق الرومانية ودخلت الفضاء الذي كان يتخلل صفوفهم ومزقت شملهم كل ممزق .

التمرينات — لم يكن لرومية محال للالعاب الرياضية فكان الجنود يتمرنون في ساحة المناورات اي في ساحة المريخ من الضفة الثانية من نهر التيبر وهناك كان الشاب يسير ويعدو ويقفز وعليه العدة الكاملة من السلاح يلعب بسيفه ويضرب بحربته ويستعمل معوله فاذا ما علاه الغبار والعرق يجتاز نهر التيبر عائماً . وكثيراً ما كان الرجال المدربون بل والقواد يشاركون فتيان الجند في تمريناتهم اذ كان من دأب الروماني ان لا ينقطع عن التمرين حتى كانت القاعدة المتبعة اذ ذاك ان لا يترك الجنود حتى في الحرب بلا عمل فيمرنون مرة في اليوم على الاقل ويشغلونهم بانشاء الطرق والجسور والمجاري اذا لم يكن امامهم عدو يقاتلونه ولا متاريس يقيمونها .

المعسكر — يحمل الجندي الروماني حملاً ثقيلاً مؤلفاً من سلاح واوان واطعمة تكفيه اياماً ووتد ويبلغ وزن مجموعها ستين رطلاً رومانياً واذا تلاقى الجيش بجيش العدو يسهل عليه الحرب بسرعة اذ لا يكون له من الاثقال ما يشغله .

وكل مرة كان يريد الجيش الروماني الوقوف ليعسكر يخط المساح نطاقاً مربعاً ويحفر الجند في محيط ذلك النطاق هوة عميقة ويبقون التراب من ناحيتهم في الداخل يكون محدراً يضربون فيه اوتاداً وهكذا يكون المعسكر محمياً بنطاق من اوتاد وارض ذات وهاد في داخل هذه القلعة الموقتة يضرب الجنود خيامهم ويجعلون سرادق القائد في الوسط يبقى العيون والحراس طول الليل يحرسون المعسكر وهكذا يكون الجيش في مأمن من كل دو مفاجيء .

تعليم الجند — يعلم الجيش الروماني تعليماً قاسياً فيحق للقائد ان يميت جنده ببقي عليهم والجندي الذي يترك محله او يركن الى الفرار في الزحف يحكم عليه بالموت

فيربطه حملة الفؤوس بعمود ويضربونه بالعصي ويقطعون رأسه او يقع عليه الجند فيضربونه بالعصي ٠

واذا تمردت كتيبة من الجيش يقسم القائد المجرمين الى عصابات كل عصبة مؤلفة من عشرة اشخاص يقترعون في كل عصابة على واحد يكون نصيبه الاعدام ويسمون هذا التعشير اي اخذ واحد من عشرة اما الباقون فيقضى عليهم بان يعطوا خبز شعير ويتركونهم يعسكرون خارج المعسكر ليكونوا ابدًا على خطر من مفاجأة العدو لهم ٠

لا يقبل الرومانيون ان يغلب جندهم ولا ان يؤسروا فقد سلم من القتل ثلاثة آلاف جندي بعد وقعة «كان» وراحوا يهيمون على وجوههم الا ان مجلس الشيوخ ارسلهم يخدمون في صقلية بدون جرايات ولا القاب شرف ريثما يخرج العدو من ايطاليا وبقي ثمانية آلاف جندي في المعسكر فقبض عليهم وقد عرض هانيبال ان يعيدهم الى الحكومة لقاء فدية طفيفة تدفعها عنهم فابى مجلس الشيوخ ان يفتديهم ٠

الغلبة — متى كتب الظفر لاحد القواد يصدر مجلس الشيوخ امره اليه بان يحتفل بما تم له من الغلبة دليلاً على تشريفه فيحتفل بذلك احتفالاً دينيًا في معبد المشتري فيسير في المقدمة الحكام والشيوخ ثم تأتي العجلات مملوءة بالغنائم والاسرى مقيدين من ارجلهم وفي المؤخرة عجلة مذهبة تجرها اربعة جياد يأتي القائد الغازي متوجًا بالغار وجنده يتبعونه مترنمين بادوار دينية يرددون فيها اسم الظفر فيجتاز هذا الموكب المدينة بهذا الاحتفال ويطلع الى معبد الكابتول وهناك يضع الغازي اغصان الغار على ارجل المشتري ويحمده على انه كان سببًا في نصرته وعند انتهاء الحفلة تضرب اعناق الاسرى كما فعلوا مع الزعيم الغالي فرسنجتوركس او ان يلقوا الاسير في مطبق (حبس مظلم) يموت جوعًا كما فعلوا مع جوكورتا ملك نوميديا او انهم يكتفون بان يسجنوا الاسير ٠ وقد دام ظفر بولس اميل الذي تغلب على ملك مكدونية (١٦٧) ثلاثة ايام مرت في اليوم الاول ٢٥٠ مركبة تحمل لوحات وتماثيل وفي الثاني ما غنمه من الاسلحة و٧٥ برميلاً من المال وفي اليوم الثالث ١٢٠ ثورًا من ثيران الضحايا والملك برسي في المؤخرة لابسًا السواد يحف به خاصته مقيدين وثلاثة اولاد له مدوا ايديهم للامة يضرعون اليها واخذوا يحركون شفقتها ٠

فتح ايطاليا — كان في رومية معبد خاص بالرب جانوس تبقى ابوابه مفتحة مادام الشعب الروماني في الحرب ٠ ولم يغلق هذا المعبد الا مرة واحدة دامت بضع سنين في خلال خمسمائة سنة التي طال فيها عمر الجمهورية الرومانية وعليه فان رومية عاشت في حرب دائمة

واذ كان جيشها اقوى جيش في عصره انتهت بها الحال ان تتغلب على جميع الشعوب الاخرى وان تفتح العالم القديم ·

فبدأت باخضاع جيرانها اولاً فاخضعت اللاتينيين اولاً ثم الشعوب الاخرى النازلة في الجنوب مثل الفولسكيين والايكيين والهريكيين ثم الايتروسكيين والسامنتيين ثم المدن اليونانية · وكان هذا الفتح من اشق الفتوح وابطئه : بدأ على عهد الملوك ولم ينته الا في سنة ٢٦٦ اي بعد اربعة قرون (١) وذلك لانه كان على الرومانيين ان يقاتلوا شعوباً هم واياهم من عنصر واحد وهم على شاكلتهم في القوة والنجدة والشجاعة · ومن هذه الشعوب من ابى اباؤها ان تخضع للرومان فما كان من رومية الا ان ابادتهم فاصبحت سهول فولسكا الغنية قفراً ذا بطائح ومستنقعات ولم تعد بطائح بونتين صالحة للسكنى حتى يوم الناس هذا وقد كانت بلاد السامنتيين تعرف بعد ثلثمائة سنة من الحرب التي وقعت فيها بما بقي فيها من بقايا المتاريس اكثر مما تعرف بخلو جوارها من السكان وكان فيها ٤٥ معسكراً للامبراطور دسيوس و٨٦ للقائد فابيوس ·

الطرق العسكرية — اقام الرومانيون في جميع ايطاليا طرقاً عسكرية ليتسنى لهم ان يبعثوا بالبعوث الى القاصية وكانت هذه الطرق عبارة عن طرق مستقيمة مرصوفة بالجير والحجر والرمل و بلغ من متانتها انها صبرت على الايام خلال ذاك العهد برمته · وقد اكثر الرومان منها في عامة بلاد ايطاليا فليس فيها بقعة لا ترى فيها الى اليوم اثراً من آثار تلك الطرق الحربية وكانوا يسمونها باسم الوالي الذي امر ببنائها واهم هذه الطرق طريق ابين الممتد الى الجنوب الى بطائح بونتين حتى ترانتا و برندس ثم طريق فلامنين الذي يجتاز طريق ابنين و يصل الى بحر الادرياتيك وطريق اورلين الذي يقطع اقليم طوسكانيا آخذاً الى الشمال على طول الشاطيء حتى بلاد الغال ثم طريق املين الممتد من بحر الادرياتيك مجتازاً جميع سهل « يو »

فتح حوض البحر المتوسط

صبغة السياسة الرومانية — لم يخطر للرومان ان يفتحوا العالم أولاً حتى انهم تمهلوا بعد ان بسطوا حكمهم على ايطاليا وقرطاجنة مدة مئة سنة قبل ان يخضعوا الشرق الى سلطانهم

---

(١) لم يكن للرومانيين من اخبار جميع هذه الحروب في ايطاليا سوى اساطير لفق اكثرها ليكون منها دليل على رجولية بعض اجداد احدى الاسر الشريفة

والظاهر انهم فتحوا فتوحاتهم دون ان يختطوا لها خطة من قبل لان مصلحتهم كلهم كانت بان يفتحوا الفتوح ويدوخوا الممالك ·

فكان يرى الحكام وهم قواد الجيوش من الفتوحات فرصة لنيل علائم التشريف بالظفر الذي يكتب لهم ويكونون على ثقة من الاشتهار بين أمتهم والتأثير فيها · وكان أعظم رجال الحكومة في رومية مثل بابيريوس وفابيوس وسيبيون الاول والثاني وكانو من القواد الذين فتحوا الفتوح وكتب الظفر لاعلامهم · ويربح الاشراف الذين يتألف منهم مجلس الشيوخ اذا كثر سواد رعايا رومية فيذهبون كما يذهب الحكام لقبول احتراماتهم وهداياهم · اما الفرسان أي الصيارف والتجار وأرباب المشاريع فان كل فتح حديث كان لهم بمثابة مشروع جديد يستثمرونه

والامة نفسها تنتفع من الغنائم التي تؤخذ من العدو · وقد رفعت الضرائب بصورة دائمية بعد ان دخلت خزانة الدولة الرومانية كنوز ملك مكدونية · اما الجنود فكانوا يقبضون رواتب عالية من قوادهم وقد أخذوا يحاربون البلاد الغنية دع عنك ما كانوا يمدون اليه ايديهم من مال المغلوبين · وعلى هذا فقد فتح الرومان العالم للفوائد المادية اكثر من المجد

قرطاجنة — لما امتد سلطان رومية الى جزيرة صقلية حملت على قرطاجنة وعندئذ بدأت الحروب الفينيقية فحدثت ثلاث حروب فكانت الحرب الاولى من سنة ٢٦٤—٢٤١ حربًا بحرية ولا نعرف عنها شيئًا الا ما روته الاساطير بعد زمن من حدوثها · فذكروا ان الرومانيين لم يملكوا سفنًا حربية قط وانهم جعلوا سفنهم على مثال سفينة قرطاجنة وقامت بالعرض في الشاطئ فأخذوا يمرنون مجذفيهم على استعمال المجاذيف على اليابسة · وهذه القصة لا اساس لها لان بحرية رومية قديمة اما الرومان فقد نقلوا اخبار هذه الحرب كما يلي : غلب القنصل دوبليوس الاسطول القرطاجني في ميلي (٢٦٠) وكان نزل الى افريقية من البحر جيش روماني على عهد الحاكم رجولوس فغلب وتمزق شذر مذر (٢٥٥) وأسر رجولوس وأرسل الى رومية ليعقد الصلح وقرر مجلس الشيوخ اباء الصلح فرجع هذا الى قرطاجنة حيث قضى نحبه في العذاب · ثم حمي وطيس الحرب في صقلية فكتبت الغلبة للاسطول القرطاجني اولا (٢٤٩) ثم دمر بالقرب من جزائر ايغات (٢٤١) وبعد ذلك حوصر هاميلكار في جبل اركيس فوقع على الصلح ودخلت صقلية في حوزة رومية

ونشبت الحرب الثانية (من سنة ٢١٨ الى ٢٠١) وكان قائدها هانيبال من نسل الاسرة القرطاجنية صاحبة الحول والسطوة في بادكاس وكان قاد ابوه هاميلكار الى صقلية جيشًا قرطاجنيًا في الحرب الفينيقية الاولى ثم عهد اليه ان يفتح اسبانيا وكان هانيبال اذ ذاك طفلا

فعجبه ابوه . وكانت العادة ان تقدم الضحايا للارباب عند مايغادر الجيش البلاد و يقال ان هاملكار بعد تقديم الضحايا حلف ابنه ان يكون ابداً عدواً ازرق للرومان

ربي هانيبال وسط الجند فأصبح احسن قائد وامهر راجل في حرب . ولم يكن يعرف من الحياة الا انه محارب وكانت عنايته منصرفة الى تعهد حصانه وأسلحته واشتهر أمره كثيراً حتى اذا هلك القائد اسدروبال الذي كان يقود الجيش الاسباني انتخبوه قائداً عليهم دون ان ينتظروا أوامر مجلس الاعيان القرطاجني في ذلك . وهكذا أصبح هانيبال في الحادية والعشرين من عمره قائد جيش لايطاع أحد سواه فدخل غمار الحرب على الرغم من مجلس الشيوخ في قرطاجنة وراح يحاصر ساغونت حليفة رومية فاستولى عليها وخربها

ومما كتب به المجد لهانيبال انه عوضاً عن ان ينتظر الرومانيين جرأ على ان يقتحمهم في عقر دارهم من بلاد ايطاليا ولم يكن له اسطول يحمله وجيشه اليهم فعزم على اجتياز البلاد اليهم براً فقطع جبال البيرنيه ونهر الرون وجبال الالب وضمن لنفسه محالفة الشعوب الغالية وقطع جبال البيرنيه دون أن يلقى فيها مقاومة في جيش مؤلف من ستين الف مقاتل من الجنود المستأجرة من الافريقيين والاسبانيين ومعه سبعة وثلاثون فيلاً مدربة على الحرب وقد طمع بعض الشعب الغالي ان يحولوا بينه و بين المسير في نهر الرون فأرسل هو فرقة من جيشه تقطع النهر على مسافة بضعة أميال من اعلاه وتهاجم الغاليين من و رائهم على حين يجتاز معظم جيشه النهر على زوارق وتجر الفيلة على ارماث كبيرة . ثم صعد وادي ايزر وانتهى الى جبال الالب في أواخر شهر تشرين الاول (اكتوبر) فقطعها على ما كانت مغشاة به من الثلوج وعلى الرغم من غارة السكان الجبليين عليه فوقع كثير من الرجال والخيول في الهاويات . وقضى تسعة أيام لبلوغ قمة جبل الالب وصعب عليه النزول لان المضيق الذي كان يجب عليهم السير فيه غطته الثلوج والصقيع فاقتضى لجيشه ان يتخذ له طريقاً يحفره في الصخر ولم يصل الى السهل الا وقد اصبح جيشه نصف ما كان . ثم لقي هانيبال ثلاثة جيوش رومانية في مسافة متدانية على شاطيء نهر تيسين وضفة نهر تريبا وبالقرب من بحيرة ترازيمين في اترور يا فهزمها كلها وكان كلما تقدم الى الامام يزداد جيشه وينضم المحاربون من الغاليين « ايطاليا الشمالية » تحت لوائه ليخدموه وينصروه على الرومانيين

فاجتاز هانيبال ايطاليا واتخذ لنزوله اقليم ابوليا في الجهة الثانية لرومية فهاجمه فيها الجيش الروماني . وكان جيشه نصف جيش ولكن كان معه فرسانه الافريقيون يركبون خيولاً سريعة وقد رابط في سهل « كان » بحيث جعل الرومانيين يقابلون بوجوههم الشمس والتراب الذي تثيره الريح فاحاط الفرسان بالجيش الروماني احاطة السوار بالمعصم وذبحوه

عن آخره (٢١٦) وكان يظن ان هانيبال سيزحف على رومية الا انه لم يكن على تعبية تامة . وهكذا ظل هانيبال في ايطاليا الجنوبية تسع سنين يحاول ان يفصل عن رومية الشعوب المحالفة لها ولم ينجح الا بالاستيلاء على بضع مدن حاصرها الرومان وخربوها

وبعد ذلك سافر اخوه اسدروبال في جيش اسبانيا للالتحاق به فوصل الى اوساط بلاد ايطاليا فسار الجيشان القرطاجنيان احدهما على الآخر يقابل كلاً منهما جيش روماني بقيادة احد حكام الرومان . وكان نيرون محاذياً لهانيبال فجرأ على قطع ايطاليا الوسطى لينضم الى رصيفه مقابل اسدروبال . ولقد سمع اسدروبال في صبيحة ذات يرم الابواق تبوق مرتين في المعسكر الروماني وكان في ذلك اشارة الى انه كان في المعسكر قنصلان او حاكمان فوقع في نفسه ان اخاه غلب وانهزم وان الرومان يطاردونه وانه قتل وذبح جيشه عن بكرة ابيه ثم رجع نيرون الى الجيش الذي غادره امام هانيبال والقى في معسكر قرطاجنة رأس اسدروبال(٢٠٧)

فلم يبق لهانيبال غير قوته يعتصم بها واقام خمس سنين في اقليم كالابراوما أكره على الخروج من ايطاليا الا لما علم بان جيشاً رومانياً كان نزل الى افريقية واخذ يهدد قرطاجنة فذبح هانيبال الجند الايطالي الذي ابى الالتحاق به وركب البحر الى افريقية(٢٠٣)وانتهت الحرب بوقعة زاما (٢٠٢) وكان هانيبال اعتمد بحسب عادته ان يسوق الجيش الروماني الى الدخول في صفوفه ولكن القائد الروماني سبيون ثبت مع جيشه وما كانت الا هجمة واحدة حتى ركب هذا اكتاف عدوه وهزم جيشه شر هزيمة .

فاضطرت قرطاجنة الى عقد الصلح وتنازلت عن كل ما تملكه خارج افريقية وتركت اسبانيا للرومانيين . واضطرت زيادة على ذلك الى تسليم سفنها وفيلتها وان تدفع مبلغاً من المال يربو على خمسين مليوناً من الفرنكات وتعهدت بان لا تعلن حرباً قبل الاستئذان من رومية . وكانت عاقبة الحرب الثالثة (من سنة ١٤٩ الى١٤٦) القضاء على قرطاجنة فطال حصار الرومان كثيراً لها حتى اخذوها عنوة وجعلوا عاليها سافلها وفتحوا اقليمها واعمالها وجعلوها ولاية افريقية خاضعة لسلطانهم .

مكدونية والشرق — كان ملوك اليونان اخلاف قواد الاسكندر اقتسموا الشرق وحارب اعظمهم سطوة مملكة رومية وغلبوا مثل ملك مكدونية فيليب سنة ١٩٧ وابنه برسي سنة ١٦٨ وملك سورية انطيوشوس سنة ١٩٠ وهكذا خلا الجو للرومانيين فاخذوا يفتحون البلاد التي يرونها تناسبهم واحدة بعد اخرى فافتتحوا مكدونية سنة ١٤٨ ومملكة فرغانة (١٢٩) و بقية آسيا (من سنة ٧٤ الى ٦٤) بعد هزيمة ميتريداتس ومصر (٣٠)

وما عدا مكدونية لم يندب الشرق لقتالهم غير جنود مستأجرة او برابرة غير منظمين ينفرقون ايدي سبا لاول صدمة يلقونها . ولم يقتل في الغلبة العظمى على انطيوشوس في مانيزيا سوى، ٣٥٠ جندياً رومانياً وافتخر سيللا بانه لم يفقد من جيشه في شيرونيا سوى اثني عشر جندياً .

ودخل الرعب قلوب سائر الملوك فخضعوا لسلطان مجلس الشيوخ من دون مقاومة فان انطيوشوس العظيم ملك سورية بعد ان فتح جزءاً من ديار مصرجاءه بو بيليوس مندوباً من قبل مجلس الشيوخ يأمره بالجلاء عما بسط يده عليه من البلاد فتردد انطيوشوس وكان بيد بو بيليوس محجنة فاختط بها في الارض خطوطاً حول ملك سورية وقال له : أجب مجلس الشيوخ قبل ان تخرج من هذه الدائرة التي رسمها لك . فلم يسع انطيوشوس الا الخضوع والتى حبل مصر على غار بها . وجاء برو زياس ملك بيتنيا وقد حلق رأسه ولبس ثياب العبد المعتق وركع امام مجلس الشيوخ الروماني . وحاول ميتر يداتس ملك بون ان يقاوم وحده فطرد من بلاده بعد حرب خمس وعشرين سنة (٦٣ — ٨٩) واضطر الى ان يتناول السم و يقول بيدي لا بيد عمرو .

اسبانيا وغاليا الجنوبية — لم يستطع الرومان ان يتغلبوا على الشعوب البربرية والمحاربين في الغرب بادنى سبب كما تغلبوا على غيرهم فقضوا قرناً لاخضاع اسبانيا لسلطانهم . وقد ناوشهم الحرب في جبال البرتقال رجل من الرعاة اسمه فيرياث (١٤٩ — ١٣٩) وهزم خمسة جيوش واكره احد قناصل الرومان على عقد الصلح معه ولم يتخلص مجلس الشيوخ من شره الا بقتله . واهلك الاريفاكيون وهم شعب صغير في الشمال الشرقي عدة جيوش رومانية واقتضى لرومية ان ترسل احد قوادها سبيون للاستيلاء على عاصمة تلك البلاد وهي المدينة الصغرى المسماة نومانس . وكانت الشعوب الصغيرة الخاملة في صيتها المعتصمة في جبال جين كثيراً ما تناوش الرومانيين القتال . وكان الغاليون اشد الاعداء على رومية وهم منتشرون في جميع سهل بو ويزحفون على ايطاليا الجنوبية وقد استولت احدى عصاباتهم على رومية سنة ٣٩٠ فكان جندهم يدخل الذعر على قلوب الجند الروماني باجسامهم الضخمة البيضاء وسبلاتهم الطويلة الشقراء وعيونهم الزرقاء واصواتهم التي تعج فيبلغ صداها عنان السماء . والخوف يستولي على رومية عند ما يبلغها مجيء العسكر الغالي فيصدر مجلس الشيوخ امره بجمع عامة الجند .

وكانت هذه الحروب شديدة جداً ولكنها تضع اوزارها في الحال ففي الحرب الاولى استولى الرومان على اقليم غاليا المعروف بسيزالبين اي ايطاليا الشمالية ونشبت الحرب الثانية

(١٢٠) للدفاع عن مارسيليا حليفة رومية فدمر الجيش الغالي واخضعت رومية بلاد الرون وشاطيء البحر الرومي (اقليم لانكدوك و بروفانس ودوفينه)

عواقب الفتوح

سريان الاصطلاحات اليونانية — ان الفتوح هي التي دعت الرومان الى رؤية الروم والمشارقة عن أمم فاستوطن رومية الوف من اليونان جاؤوها اسرى او للاتجار وتعاطى بعضهم الطب وآخرون التعليم وغيرهم العرافة وغيرهم التمثيل . وكان القواد والضباط والجنود الرومانيون يعيشون في آسيا وسط الشعوب التي تتكلم اليونانية فتخلقوا باخلاق باليونان وهكذا عرف الرومان عادات حديثة ومعتقدات جديدة لم يكن لهم بها عهد واخذوا يعملون بها على التدريج وقد بدأ هذا التبدل بعد الحرب المكدونية الاولى (٢٠٠) ودام الى اواخر المملكة الرومانية

القائدان كاتون وسبيون — بينا كانت الاخلاق تتغير اشتهر احد رجالهم كاتون باحتفاظه بعادات اسلافه . ولد هذا الرجل سنة ٢٥٢ في بلدة توسكولوم وقضى شبيبته في الحرث والكرث وفي السابعة عشرة من سنه دخل في الجيش بحسب العادة المتبعة واشترك في عامة الحملات على هانيبال . ولم يكن من الاشراف ولكنه اشتهر بقوته واستقامته وزهده وقد انتخب مرات وزيرًا للمالية وناظرًا للابنية والملاعب وقاضياً وقنصلاً ووكيلاً للاحصاء وشغل مناصب الشرف عامة وكان في جميع حالاته على قدم قدماء الرومان قاسياً جافاً محتشماً وقد وبخ قنصله عند ما كان وزيرًا للمالية وكان القنصل سبيون غالب هانيبال فاجابه لست في حاجة الى ناظر مدقق مثلك الى هذا الحد . ولما عين ناظرًا للابنية والملاعب في ساردينيا ابى ان يمس المال الذي دفعته اليه تلك الولاية للنفقة . ولما صار قنصلا تكلم بشدة عن قانون او بيا القاضي بالحظر على النساء الرومانيات بان لا يتزين بالحلي الثمينة فظفر النساء بمطلبهن وألغي ذاك القانون . ولما ذهب لقيادة الجيش الروماني في اسبانيا اتى باموال طائلة دفعها الى خزانة الامبراطورية وباع حصانه عند ما ركب البحر ليقتصد من نفقات نقله ولما عين وكيلاً للاحصاء اسقط من قائمة مجلس الشيوخ عدة من الاعاظم لما عرفوا به من الترف والبذخ واحال جباية الاموال الاميرية بثمن عال وقدر حلي النساء وزينتهن وعرباتهن بعشرة اضعاف ما تساوي وبعد ان خفقت له اعلام النصر لم يستنكف من الخدمة في الجيش الروماني ضابطاً بسيطاً .

صرف كاتون حياته في مناهضة الاشراف والغض من بذخهم وترفهم وتجملهم وحمل خاصة على امثال القائد سبيون متهماً اياهم بالاختلاس الا انه لم ينج هو ايضاً من الصاق التهم به فاتهم اربعاً واربعين مرة ولكنه كان بريئاً كلما اتهم . وكان يحرث ارضه مع عبيده

ويوا كلهم ويضربهم بالعصي متى رآهم يحيدون عن جادة الصواب وقد ذكر في رسالته في الزراعة التي كتبها الى ابنه جميع ما كان يأتي الفلاحين الرومانيين من الايرادات ويرى ان من الواجب علي المرء ان يغتني وكان يقول : « للارملة ان تصرف من مالها وعلى الرجل ان يزيد وكل من شهدت دفاتر حساباته بعد موته بانه ربح اكثر مما ورث جدير بالشهرة وملهم من الارباب » ولما رأى ان الزراعة لا تأتيه بارباح طائلة اخذ يقرض ماله ليجهز به سفناً تجارية واتخذله خمسين شريكاً جهزوا كلهم معاً خمسين سفينة ليتقاسموا بينهم الاخطار التي تنال سفنهم والارباح التي تأتيهم بها . وعلى هذا كان كاتون زارعاً ماهراً وجندياً عظيماً عدواً للبذخ حريصاً على الكسب فهو مثال الروماني الاصيل وانموذج الفضيلة والثبات

وعلى العكس منه كان القائد سبيون مثالاً للاهتمام بالفنون والافكار الفلسفية اليونانية فكان سبيون الذي استولى على قرطاجنة ونومانس يتكلم باليونانية وهو صديق المؤرخ اليوناني بوليب الذي أمسك في رومية رهينة . ولم يكن يهتم بجمع المال وقد دفع الى شقيقاته دفعة واحدة مبلغاً من المال كان عليه ان لا يدفعه اليهن الا في اوقات مختلفة وتنازل لاخيه وكان اقل منه مالاً عن حصته في ارث ابيه ولم يخلف بعده سوى كمية قليلة جداً من الاواني الذهبية والفضية .

الاخلاق القديمة — مضى زمن طويل على قدماء الرومانيين وهم يتوفرون على زرع حقولهم وقتال عدوهم والقيام بفرائض دينهم حتى كانوا حقاً الريفيين العاملين الجفاة . فكانوا يزرعون جانباً صغيراً من اقليم لاتيوم اولاسابين وهم من نسل اللاتين والايطاليين الذين تغلبت عليهم رومية . وقد صور لنا الشيخ كاتون في كتاب له في الزراعة شيئاً من أخلاقهم بقوله : كان اجدادنا اذا أرادوا الثناء على رجل يصفونه بانه زارع ماهر وحراث مجيد وهذا غاية مايمدح به انسان (١)

فكان هؤلاء الزراع أشداء في اعمالهم واهل طمع في مكاسبهم وتنظيم في شؤونهم واقتصاد في نفقاتهم وبذلك كانوا قوة الجيوش الرومانية . ولطالما تألف منهم مجلس الامة أيضاً وكانت لهم القوة العظمى في الانتخابات . فيجيء الاشراف الذين يطمعون في ان ينتخبوا حكاماً الى ساحة السوق ليهزوا أيدي هؤلاء الفلاحين . رأى أحد المرشحين انفسهم للانتخابات يد احد الحراثين وهي شثنة غليظة فسأله : هل تمشي على يديك ؟ وكان السائل من الاشراف ينتسب الى أسرة كبيرة ولكنه لم ينتخب

---

(١) وقد اورد ايضاً شيئا من امثالهم القديمة منها : « ادنى الزراع من يبتاع شيئاً مما تغله له ارضه » « واحط المقتصدين من يعمل في النهار ما يتأتى له ان يعمله في الليل» .

سكن الرومان بيوتاً ضيقة ذات طبقة واحدة لا انظام في بنائها وكان الاتريوم أهم ناحية من الدار وفيه المكان المقدس وهو مكشوف من أعلاه ينزل منه ماء المطر . والاثاث عبارة عن بضعة صناديق ومقاعد من الخشب . وطعامه بسيط مؤلف خاصة من حساء معمول بالبر ومن خبز و بعض بقول وما كانوا يتناولون اللحوم الا في الاعياد وما شرب النساء الخمرقط والرجال يتناولون منه على الندرة . ولباسهم عبارة عن قميص يلبسون فوقه رداء من صوف زمن البرد . و يلبس الوطنيون في أيام الاعياد حلة من الصوف مزينة من جهة العنق و يلبسون في ارجلهم نعالاً مناطة بسيور . و يقضون حياتهم في التوفر على اعمالهم فالرجال يصطادون دون ان يحرثوا والنساء يغزلن الصوف و ينسجن الاقمشة و يطحن الحبوب ليجعلنها براً . ولم يكن للرومانيين من ضروب التسلية الا ان يذهبوا كل تسعة أيام الى السوق أو يحضروا الاعياد التي تقام اكراماً للارباب

كان يرى قدماء الرومان ان الرجل الشديد هو غاية ما تطمح اليه الآمال و يقال ان ان سينسينانوس كان يسوق محراثه بنفسه عند ما اتاه نواب الامة من قبل مجلس الشيوخ يدفعون اليه الامر بتنصيبه . ولم يكن عند فابريسيوس من الاواني غير كأس وملحة من فضة . وكان كوريوس وانتاتوس وهو غالب السامنتيين جالساً على مقعد يأكل بقولا في قصعة من خشب عند ما أتاه مندوبو السامنتيين ليقدموا اليه المال فقال لهم : اذهبوا وقولوا للسامنتيين ان كوريوس يؤثر ان يقود من عندهم ذهب اكثر مما يؤثر ان يكون هو مالكاً له . هذه هي بعض الاقاصيص التي يروونها عن قواد الازمنة القديمة وسواء كانت حقيقية او ملفقة فانها تدل على ما كان الرومانيون بعد يذهبون اليه بشأن قدماء اجدادهم

الاخلاق الجديدة ــ اخذ كثير من الرومانيين بعد القرن الثاني ولا سيما طبقة الاشراف يقلدون الاجانب . وكان زعماؤهم قواداً رأوا بلاد اليونان والشرق عن أمم فكتبت الغلبة لسبيون على ملك سورية ولفلامنيوس و بولس اميل على ملوك مكدونية ثم للوكلوس على ملك ارمينية . فعزفت نفوسهم عن الحياة القاسية الصعبة التي كان عليها اجدادهم وأخذوا يسيرون في حياتهم على البذخ والرفاهية وما زال الحال كذلك حتى نسج على منوالهم عامة النبلاء والاغنياء بحيث لم يطلع فجر القرن الاول حتى لم يعد في ايطاليا الاسادة عظام يعيشون المعيشة الشرقية او اليونانية

يرى الشرقيون من دواعي العجب ان يعرضوا للانظار الاقمشة البديعة والاحجار الكريمة واثاث الفضة وأواني الذهب وان يستكثروا في بيوتهم من الخدم على غير طائل

وان ينشروا على الشعب المجتمع دراهم ليدهشوهم (١) فكانوا يرغبون في الاعلاق النفيسة النادرة اكثر من رغبتهم في النفائس الجميلة المناسبة

واصبح للرومان على شدة عجبهم وضعف استعدادهم في الصناعات ذوق في هذا الضرب من البذخ فكانوا قلما يحفلون بالجمال أو بالموافق ولم يعرفوا قط الا الأبهة والفخفخة فانشؤا لهم بيوتاً ذات حدائق متسعة وحشروا اليها التماثيل واقاموا فيها المصايف الزاهية التي تمتد الى البحر وسط الحدائق المتسعة واستكثروا من الخدم والحشم وأخذوا هم ونساءهم يعتاضون عن ألبستهم المعمولة من الصوف بالشفوف (برنجك — كريشة) واكسية الحرير والقصب . و يفرشون في ولائمهم بسطاً مطرزة وأدثرة من الأرجوان وأواني من ذهب وفضة (وكان عند الحاكم سيللا مئةوخمسون صحفة من الفضة ووزن ما عند ماركوس وروزوس من الاواني الفضية عشرة آلاف لبرة) واذ ظل العامة يأكلون قعوداً بحسب عادة الشعوب الايطالية القديمة فالخاصة من الاغنياء اتبعوا العادة الشرقية في الاكل مضطجعين على سررهم ثم سرت عادة التأنق في المآكل على الاسلوب الشرقي والاستكثار في المطاعم من الابازير والصباغ (سلسا) والصيد واسمك الغريب ومخاخ الطواويس والسنة الطيور

واستحكم منهم السرف حتى تقدمات أحد الحكام سنة ١٥٢ وقد ذكر في وصيته قوله «لما لم يكن الاكرام الحقيقي عبارة عن أبهة باطلة بل هو لتذكر اقدار المتوفى وأجداده فانا آمر أولادي ان لاينفقوا على جنازتي اكثر من مليون آس (مئة الف فرنك) »

العلوم الادبية اليونانية — رأى الرومانيون في بلاد اليونان المصانع والتماثيل والالواح التي كانت منذ قرون تغص بها المدن وعرفوا الادباء والفلاسفة فصار لبعضهم ذوق في الصنائع النفيسة واولع آخرون بالحياة العقلية فجعل امثال القائد سبيون حولهم اناساً من اليونان المتنورين ولم تطمح نفس بولس اميل من جميع الغنائم التي غنمها جيشه من مكدونية الا الى الاستيلاء على مملكة الملك برسي وعهد بتربية اولاده الى اساتذة يونان وبذلك صارت الكتابة والتكلم باللغة اليونانية من الامور المستحسنة في رومية (٢) واراد الاشراف ان يظهروا في مظهر العارفين بالتصوير والنقش فجلبوا بالالوف التماثيل وقلز كورنت المشهور

---

(١) تجد مثالاً من هذا الذوق الشرقي في الابهة الباطلة التي تمثل لك في حكايات الف ليلة وليلة

(٢) ولذلك كان يخاف الشيخ كاتون عادية اليونان وقد كتب لابنه ما يأتي : اقول ان مالاحظته في آثينة ان هذا الجنس من اخبث الاجناس واصعبها مراساً الا فاستمع لما اقول كما تسمع لهاتف رباني الا ان هذه الامة اليونانية كلما اتتنا بصناعاتها تفسدنا كلنا

وملؤا بها بيوتهم . ودخل في ملك الحاكم فريس شيء كثير من النفائس والاعلاق جعلها في رواق وكانت مما نهبه من صقلية .

وهكذا اخذ الرومان على التدريج من الفنون ظواهرها ومن الآداب اليونانية قشورها . وسمي هذا التهذيب الجديد فن الادب معارضة للخشونة التي كان عليها اهل الريف من الرومان ومع هذا لم تكن الا قشوراً فقط فلم يعرف الرومان ان الجمال والحقيقة يرغب فيهما الذاتهما بل كانت الصناعات والعلوم عندهم اموراً يقصد بها الزينة والبذخ ليس الا . ولم يكن الرومان على عهد شيشرون يعتبرون من اهل الاعمال غير الجندي والحراث والسياسي والتاجر او المحامي اما الكتابة والتأليف والاشتغال بالعلم والفلسفة والنقد فكل ذلك كان يسمى عندهم بطالة . وما قط اصاب ارباب الفنون والعلماء من الاعتبار في رومية ما يساويهم بتاجر غني . قال لوسين احد كتاب اليونان : « متى صرت مثل فيدياس النقاش اليوناني تصنع الف قطعة بديعة من النقوش لا يرغب احد ان يتقيل مثالك لانك مهما بلغت من الخدمة لا يطلق عليك الا لقب صانع ولست اذ ذاك غير رجل يعيش بكد يمينه »

لوكلوس — ولد لوكلوس وهو مثال الروماني الحديث سنة ١٤٥ من أسرة شريفة وغنية جداً ولذا سهل دخوله في سلك ارباب المناصب والشرف واشتهر في غزواته الاولى بانه يعطف على المغلوبين ويعاملهم باللطف ثم عين قنصلاً وقاد الجيش الذي انتدب لقتال ميتريداتس . وقد رأى سكان آسيا ساخطين من كثرة السرقة وفظاعة العشارين فعني بجعل حد لتلك الاعمال وحظر على جنده ان ينهبوا المدن المغلوبة وبذلك جلب لنفسه حب الآسياويين الباطل وبغض العشارين والجنود الخطر . فدست الدسائس لتستدعيه حكومته وكان قد هزم ميتريداتس واخذ يطارده وهو سائر الى حليفه ملك ارمينية وقد هزم جيشاً من البرابرة بجيشه الصغير المؤلف من عشرين الف مقاتل فسلبت منه القيادة وسلمت الى بومبي نديم العشارين وحبيبهم

واذ ذاك اعتزل لوكلوس الاعمال للاستمتاع بما جمعه في آسيا من الثروة واصبح يملك في احياء رومية حدائق غلبا وله في نابولي مصيف قام في البحر مبنياً بالحجر الصلد . وفي توسكولوم قصر صيفي وفيه متحف للاعلاق والنفائس فكان يقضي الصيف في توسكولوم بين اصحابه وجماعة العلماء واهل الادب يطالع مصنفات اليونان ويبحث في الادب والفلسفة . وتروى عن بذخه حكايات كثيرة . منها انه كان ذات يوم يتغدى وحده فرأى مائدته اكثر بساطة من العادة فوبخ الطاهي فاعتذر بقوله ان عدم وجود الضيوف هو الذي دعاه الى تقليل المآكل فاجابه لوكلوس : « اما علمت ان لوكلوس يتغدى اليوم عند لوكلوس ؟ »

ودعا يوماً قيصر وشيشرون فقبلا دعوته على شرط ان لا يغير شيئاً من عادته فاكتفى لوكلوس بان قال لاحد الخدمة فقط اجمل الطعام في قاعة ابولون وكانت المأدبة على غاية من التأنق بحيث عجب منها المدعوان . ولما سئل عن اخلاله بشرط الضيافة قال انه لم يأمر بشيء وان نفقات طعامه محددة بحسب القاعة التي تجمل فيها وان بسط الموائد في قاعة ابولون لا يمكن ان يكلف اقل من خمسين الف فرنك

وظلّ لوكلوس في رومية ممثل الاخلاق الجديدة كما كان كاتون يمثل الاخلاق القديمة و يرى قدماء الرومان ان كاتون هو الروماني الصالح وان لوكلوس هو الروماني الفاسد ومع هذا فقد كان لوكلوس يبتعد عن عادة الاجداد ولذلك كان واسع المدارك حسن التربية لطيف المأتى مفطوراً على العطف على الخدم والرعايا .

الانقلاب الديني والعقلي

العبادات الجديدة — لم يكن بين ارباب الرومان وارباب اليونان من شبه حتى في الاسماء ومع هذا اعتقد اليونان بان معظم الارباب المعبودة في رومية كانت اربابهم احبوا ان يعترفوا بانها كذلك . والى ذاك العهد لم يكن للارباب الرومانية شكل خاص ولا تاريخ معين وهذا مادعا الى الارتباك في حالتها فجرى تمثيل كل رب روماني على صورة رب يوناني واخترعوا له تاريخاً وحكايات .

فخلطوا بين المشتري اللاتيني وزيوس اليوناني وجونون مع هيرا ومنيرفا ربة الذاكرة مع بالاس ربة الحكمة وديان زوجة جانوس مع ارتيمس الصيادة البديعة ومزجوا هركول رب السواد بهيرا كليس الغالب على الغيلان . وهكذا دخلت الميثولوجيا اليونانية تحت اسماء لاتينية واستحال ارباب رومية الى ارباب يونان . امتزجت الارباب بعضها ببعض حتى اعتدنا ان نطلق على الارباب اليونانية اسماء لاتينية فلا نزال نقول ارتيمس ديان و بالاس منيرفا . و بالميثولوجيا اليونانية اعتاد الرومان ان يصوروا اربابهم في تماثيل كما اقتبسوا ايضاً بعض الاحتفالات اليونانية وكانت الحكومة الرومانية ادخلت الى بلادها عبادة ابولون و بدأ بعض الافراد يعبدون باخوس رب الكرمة . و يحتفل من يعبدون باخوس بعبادته من الليل سراً ولا يطلعون احداً على خفايا العبادة الباخوسية واخذ المجلس يحقق فرأى المتعبدين بهذه العبادة سبعمائة شخص بين رجال ونساء اشتركوا معاً في هذه الاسرار فقضى عليهم بالموت .

ثم ان الرومان اخذوا ايضاً يعبدون ما يعبد شعوب الشرق فقد كان سنة ٢٢٠ في

رومية معبد للرب سيرابيس المصري فامر مجلس الشيوخ بهدمه فلم يجسر احد الفعلة على ذلك وبقي المعبد لا يمس بسوء حتى جاء القنصل بنفسه فضرب ابوابه بالفأس

وبعد سنين اي في سنة ٢٠٤ خلال حرب هانيبال بعث مجلس الشيوخ الى آسيا الصغرى بوفد للبحث عن المعبودة سيبيل وكانت هذه الام الكبرى كما كانوا يدعونها مصورة على حجر اسود فاتى بها مندوبو مجلس الشيوخ باحتفال حافل وجعلوها في رومية وقد لحق بها كهنتها واخذوا يطوفون الشوارع على اصوات المزامير والصنوج لابسين البسة شرقية وهم يستوكفون الاكف على الابواب

ثم غصت بلاد ايطاليا بالسحرة من الكلدان ولم يكن العامة يعتقدون وحدهم بهؤلاء العرافين • ولما هدد برابرة السمبر مدينة رومية سنة ١٠٤ تقدمت عرافة من سورية اسمها مارتا فعرضت على مجلس الشيوخ الروماني بانها تتوسط في غلبة رومية على عدوتها فطردها مجلس الشيوخ ولكن النساء الرومانيات بعثن بها الى المعسكر فابقاها ماريوس القائد العام لديه وما فتىء يأخذ رأيها الى ان وضعت الحرب اوزارها • ورأى سيللا في نومه ربة كابودسيا فعمل بنصيحتها وسار الى ايطاليا •

السفسطائيون — لم يكن يأتي الى رومية كهنة وعرافون فقط بل كان ينزل فيها فلاسفة يحتقرون الدين القديم • ومن اشهرهم كارنياد سفير الآثينيين فانه كان يصرح بافكاره في رومية امام الجمهور فيخف شبان الرومان الى سماع اقواله حتى اراده مجلس الشيوخ على الخروج من المدينة الا ان الفلاسفة ظلوا على بث مبادئهم في رودس وآثينة حتى اصبح من السنن المألوفة ان يبعث الرومان بفتيانهم الى تينك المدينتين يتعلمون فيهما الفلسفة

وفي القرن الثالث قبل المسيح ألف ايفهمير اليوناني كتاباً ينفي فيه وجود الارباب وانها ليست الا رجالاً ألهم الناس حتى ان المشتري نفسه كان ملكاً على كريت • فانتشر كتابه اي انتشار ونقله الشاعر انيوس باللاتينية • وعلى هذا النحو اخذ اشراف رومية يسخرون من اربابهم ولم يبقوا من الدين القديم الا على مراسيمه وظواهره (١) وكان اهل الطبقة العالية في المجتمع الروماني مدة زهاء قرن يعتقدون بالخرافات اعتقاد سفسطائيين لا يؤمنون بشيء

الحياة العقلية — كان غاية ما يعلم اليونان الاقدمون اولادهم القراءة فقط في الزمن الذي كان فيه بوليب في رومية (قبل سنة ١٥٠) ويعهد المحدثون من الرومان بتعليم ابنائهم الى مربين من اليونان ولذلك افتتح اناس من اليونان في رومية مدارس لتعليم الشعر والبلاغة والموسيقى • وكانت الاسرات الكبرى تنقسم الى اناس يتعلمون على الطريقة القديمة وآخرين

---

(١) قال شيشرون : يجب ان نبقي على عادة اخذ الطالع لئلا نمس العامة في معتقداتهم

على الحديثة . ولكن بقي في الاذهان شيء من الموسيقى والرقص فكانوا ينظرون اليهما بانهما من الصناعات المهينة بمن يتعاطاها اذا كان كريم المحتد . قال سبيون املين حامي اليونان في كلامه على مدرسة رقص كان يختلف اليها بنون وبنات من الخاصة : ما كنت اتوهم عند ما ذكر لي ذلك ان اناساً من الاشراف يعلمون مثل هذه الامور لاولادهم ولما اخذوا بيدي الى مدرسة الرقص رأيت فيها زهاء خمسمائة صبي وبنت وفي جملتهم ولداً شريفاً في الثانية عشرة من عمره وهو احد المرشحين للانتخابات يرقص على نغمات البوق « كروتال » وقال سالوست في كلامه على عقيلة رومانية قليلة الاعتبار انها كانت تضرب على الطنبور وترقص احسن مما يليق بامرأة محتشمة » .

التربية — استهوى نساء الرومان حب الاديان الشرقية والبذخ الشرقي في اسرع مايكون فكنّ يذهبن زرافات زرافات الى معابد باخوس ومساجد ايزيس . وقد سنت لهن قوانين يمنعن بها من لبس الالبسة الثمينة وركوب العجلات واتخاذ الحلي والجواهر ولم تلبث ان ألغيت فصار النساء في حلّ من ان يلبسن كالرجال ما يشأن وانقطع النساء النبيلات عن العمل والجلوس في بيوتهن وانشأن يخرجن في أُبهة ويختلفن الى دور التمثيل والملاعب والحمامات والمجتمعات . واذ كنّ بلا عمل ومن الجهل على جانب سرى الفساد اليهن في الحال حتى اصبح النساء الطاهرات في طبقة الاشراف من النوادر

سقط النظام القديم في تربية الاسرات وجعل القانون الروماني الزوج سيد زوجته وابتدعوا ضرباً جديداً من الزواج يجعل المرأة تحت تصرف ابيها ولا يكون للزوج ادنى سلطة عليها وكان الآباء يجهزون بناتهم بجهاز وصداق ليجعلوهن اكثر استقلالاً .

وكان من حق الزوج وحده ان يطلق امرأته ومن العادة ان لا يحادعن هذا الحق الا في احوال استثنائية شديدة فصار للمرأة الحق ان تترك زوجها واصبح مذ ذاك العهد من اهين اللين ان يفصم الزوجان عرى ارتباطهما ولم يعودا يحتاجان الى حكم حاكم ولا الى سبب مشروع ويكفي احد الزوجين متى استاء من زوجه ان يقول له : « احمل ما يخصك واعد لي ما املكه » وبعد الطلاق يتيسر لكل منهما بل للمرأة ايضاً ان يتزوجا في الحال .

وبلغت الحال في الطبقة الرومانية العالية ان تعتبر الزواج عقداً موقتاً فقد تزوّج سيللا بخمس نساء وقيصر باربع وبومبي بخمس وانطونيوس باربع . وتزوجت ابنة شيشرون من ثلاثة رجال وطلق هورتانسيون زوجته ليزوجها من احد اصدقائه

بيد ان هذا الفساد لم يُصب غير اشراف رومية ومن حذا حذوهم من اهل النعمة الحديثة

اما في أُسر رومية والولايات فقد حفظت قروناً آداب الدور القديم القاسية الشديدة واخذت تربية الاسرة ترق شيئاً فشيئاً والمرأة تحرر من استبداد الرجل ببطء

التبدل الاجتماعي

زوال الطبقة الوسطى — كان الشعب الروماني القديم مؤلفاً من صغار ارباب الاملاك وهم يتعاطون زراعة حقولهم بانفسهم ومن هؤلاء الفلاحين الصالحين الاقوياء يتألف الجيش والمجلس . وكان تددهم كثيراً سنة ٢٢١ خلال الحرب الفينيقية الثانية . وفي سنة ١٣٣ لم يبق منهم احد . لا جرم انه هلك منهم كثيرون في الحروب التي اعلنتها رومية على البلاد القاصية ولكن هلاكهم يحمل في الاكثر على انه كان من المتعذر عليهم البقاء . فقد كانوا يعيشون من زراعة القمح عند ما اخذت ترد على رومية حبوب صقلية وافريقية فسقطت اسعار الحنطة بحيث لم يتيسر للحراثين الايطاليين ان يستخرجوا من غلاتهم ما يغذون به اسراتهم ويتحملوا اعباء الخدمة العسكرية فقضي عليهم من ثم ان يبيعوا حقولهم فيبتاع كل غني من جاره الفقير ارضه فغدت الحقول الصغيرة ملكاً عظيماً لواحد وصير ارباب الاملاك من تلك الاراضي مروجاً يقيمون فيها ماشيتهم واذا عنّ لهم ان يزرعوها يبعثون اليها برعاة وحراثين من العبيد بحيث لم يمض قليل حتى لم يبق على ارض ايطاليا الا بعض كبار ارباب الاملاك وجماعات من العبيد . وكان بلين القديم يقول ان الاملاك العظيمة قد اخطأَت ايطاليا ومع هذا فالدوائر العظمى هي التي قضت في الارياف على احرار الفلاحين . فصاحب الارض القديم الذي اباع حقله لم يستطع ان يبقى اجيراً بل قضي عليه ان يتخلى عن مكانه ليحل محله العبيد وبذا اصبح هائماً على وجهه لا عمل له ولا شغل قال فارون في رسالته في الزراعة ان معظم زعماء الاسرات دخلوا بيوتنا تاركين المنجل والمحراث وآبوا يؤثرون التصفيق بايديهم في الملاعب على العمل في حقولهم وكرومهم .

الطبقات الاجتماعية — ليس الشعب في رومية كما هو في يونان عبارة عن مجموع السكان بل هو مجموع الوطنيين وكل رجل ينزل أرض البلاد لا يعد وطنياً بل الوطني هو الذي له حق التمتع بحقوق الوطنية . وللوطني عدة امتيازات فله الحق وحده ان يكون عضواً في الهيئة السياسية وله الحق وحده ان يقترع في مجالس الشعب الروماني وان يخدم في الجيوش الرومانية ويحضر احتفالات رومية المقدسة وينتخب حاكماً رومانياً وهذا ما يسمونه بالحقوق العامة . وللوطني الحق وحده ان يحميه القانون الروماني ويحق له فقط ان يتزوج على طريقة مشروعة ويكون رب أُسرة أي حاكماً مطلقاً على زوجته وأولاده وان يوصي بما يشاء ويبيع ويبتاع ممن يشاء وهذا ما يسمونه بالحقوق الخاصة

ولا يحرم من لم ينالوا حق الوطنية الرومانية من الخدمة في الجيش والمجلس فقط بل لا يسوغ لهم ان يكونوا ازواجاً ولا آباء ولا أصحاب أملاك مشروعة ولا ان يتقاضوا الى القانون الروماني ويحاكموا في المحاكم الرومانية ولذا تألفت من الوطنيين طبقة من الاشراف بين سواد الامة من غير طبقتهم الا لا يتساوون بينهم أيضاً . فبينهم فرق في الطبقات أو كما يقول الرومان في الصفوف.

النبلاء ـ النبلاء هم في الصف الأول من الامة فكل وطني يعد في النبلاء اذا سبق لاحد أجداده ان تولى شيئاً من امر الامة لان الحكم في رومية من علائم الشرف ينبل به من تولاه كما يكون بضعة شرف لاخلافه من بعده . اذا نصب احد من الوطنيين ناظر الملاعب والابنية أو قاضياً أو قنصلاً تخلع عليه خلعة مطرزة بالارجوان ويمنح كرسياً كالعرش ويحق له ان يُرسم ويصوَّر . وهذه الصور عبارة عن تماثيل صغيرة تعمل من الشمع اولا ثم تطلى بالفضة وتجعل في مزار الدار (اتريوم) بالقرب من الكانون وارباب البيت وتجعل في مخادع خاصة بها كما تجعل الاصنام ويعبدها الذرية من اهل البيت . ومتى مات احد في الاسرة يخرجون الصور ويجرونها على مركبة في موكب و يأخذ احد انسباء المتوفى يعدد صفاته ويرثيه . وهذه الصور هي التي تشرف الاسرة كلما احتفظت بها وكلما كثرت الصور في أسرة تزداد شرفاً فيقولون فلان شريف بصورة او شريف بعدة صور . والاسر الشريفة في رومية قليلة جداً (ولم يكن فيها اكثر من ثلثمائة اسرة) لان المناصب التي تولي صاحبها شرفاً توسد في الغالب الى اناس حازوا الشرف من قبل

الفرسان ـ تجيء طبقة الفرسان بعد طبقة النبلاء . وهم أغنياء الوطنيين الذين لم يعهد لهم جدود من الحكام فتقيد ثرواتهم في سجلات الاحصاء وينبغي ان لا يقل ما يملكه احدهم عن اربعمائة الف سسترس (او مئة الف فرنك) منهم التجار والصيارف والملتزمون وهم لا يحكمون بل يغتنون . ولهم في دور التمثيل اماكن خاصة بهم تقع الى ماوراء مقاعد طبقة الاشراف . وربما ساغ للفارس منهم ان ينتخب حاكما وعندها يدعونه الرجل الحديث النعمة ويصبح ابنه شريفا

العامة ـ العامة هم غير طبقة الاشراف والفرسان فهم جمهور الامة ويكونون من نسل ابناء البلاد في ايطاليا وينتقلون من فلاحين اصحاب املاك الى وطنيين رومانيين . و يعد في طبقتهم العبيد المعتوقون او قدماء العبيد وابناؤهم . ويحافظون على مميزات اصولهم ولا يقبلون في خدمة الجيش الروماني ولا ينتخبون الا بعد غيرهم . ولقد مضت ازمان وصغار ارباب الاملاك يؤلفون السواد الاعظم من الامة وبينا كانت الارياف تقفر من قلة

الناس غصت رومية بالواردين عليها فانهال عليها اليونان والسوريون والمصريون والآسيويون والافريقيون والاسبانيون والغاليون ممن أُخذوا من بلادهم وبيعوا بيع العبيد ثم اعتقهم مواليهم فاصبحوا وطنيين ضاقت بهم المدينة فهم كانوا شعباً جديداً ليس له من الرومانية غير اسمها

خطب سبيون غازي قرطاجنة ونومانس جمهوراً من الناس في احدى الساحات فقاطعه العامة باصواتهم فقال لهم : « صه ايها الابناء الادعياء المنتسبون لايطاليا زوراً فمن العبث ماتفعلون لان من جلبتهم الى رومية مقيدين لااهابهم ولو حلت قيودهم » وهذه الطبقة الجديدة من السوقة تعيش بكدحها او يقضي على الحكومة ان تطعمها وقد اخذت الحكومة سنة ١٢٥ تقدم لعامة الوطنيين حنطة بنصف ثمنها المعتاد تأتي بها من صقلية وافريقية . ومنذ سنة ٦٣ اخذت توزع الحنطة مجاناً وتشفعها بزيت . ورأى قيصر سنة ٤٦ ان من كانوا يتناولون هذه الجراية بلغوا ٣٢٠ الفاً

العبيد — جميع الاسرى وسكان البلد المفتوح ملك للفاتح يتصرف فيهم فاذا ابقى عليهم ولم يقتلهم يستعبدهم له . هكذا كان الحق القديم . وقد ظل الرومان يعملون به بالحرف يعاملون الاسرى كأنهم بعض الغنيمة يبيعونهم من النخاسين الذين يتبعون الجيش واذا حملوهم الى رومية فانما يحملونهم ليبيعوهم في المزاد (١) وهكذا كانوا يبيعون عقيب كل حرب الوفاً من الاسرى رجالاً ونساء والاولاد الذين يولدون من اسيرات يكونون اسرى كامهاتهم فالامم المغلوبة للرومانيين هي مادة الرقيق الروماني

العبد ملك صاحبه فهو لا يعتبر اعتبار شخص بل اعتبار متاع فمن ثم ليس له حق من الحقوق فلا يكون وطنياً ولا مالكاً ولا زوجاً ولا اباً . قال احد الابطال في رواية هزلية رومانية : « اي شيء هذا أعرس عبيد ! ما اعجب عبداً يتزوج ! ان هذا مخالف لعادة جماع الامم » .

وللمولى جميع الحقوق على عبده يرسله حيث يريد ويشغله على ما يرى بل يشغله اكثر من طاقته ويطعمه اخشن طعام ويضربه ويعذبه ويقتله دون ان يسأله احد عما جنى . وعلى العبد ان يخضع لرغائب سيده كلها . ويقول الرومان ان العبد لا وجدان له وان الواجب عليه ان يطيع مولاه طاعة عمياء فاذا قاوم او ابق من بيته فالحكومة تعاون سيده على قمع

(١) تقام سوق الرقيق في كل مدينة ذات شأن كما تقام سوق البقر والخيل فيعرض العبد الذي يراد بيعه على دكة وقد نيطت في عنقه بطاقة كتبت فيها سنه وصفاته وعيوبه

جماحه او القبض عليه وكل من يؤوي عبداً آبقاً تجري عليه احكام اللصوص كأنه سرق بقرة او حصاناً لغيره ·

والعبيد في المملكة الرومانية اكثر من الاحرار ويملك اغنياء الوطنيين من عشرة الى عشرين الف عبد وعند بعضهم منهم من يكفون لتجنيد جيش كامل · وكان لسيليوس ايزدوروس احد قدماء العبيد زهاء اربعة آلاف عبد وكان عند هوراس سبعة اعبد فكان يشكو من فقره · ومن علائم الفقر في رومية ان لا يملك المرء سوى ثلاثة اعبد ·

واذ كان العبيد يعملون اشق الاعمال او يسترسلون في البطالة مكرهين وهم ابداً اعرضة للضرب بالسياط والتعذيب اصبحوا بحسب فطرهم اما متوحشين اغبياء او انذالاً مستعبدين ومن كان منهم على شيء من الشهامة ينتحرون وغيرهم يعيشون كالآلة الصماء · وكان الشيخ كاتون كثيراً ما يقول : على العبد دائماً ان يعمل او ينام · ومعظم العبيد يفقدون الاحساس والشرف ولذلك كانوا يقولون هذا عمل عبيد يريدون به انه دنيء رذل

الحياة السياسية

الحكام — ينتخب الشعب كل سنة رجالاً يتولون امره ويفوض اليهم السلطة المطلقة ويطلق عليهم اسم الحكام « اي ولاة الامر » فيسير امامهم حملة الفؤوس يحملون حزمة من القضبان وفأساً · ومعنى هذا الرمز ان للحاكم ان يضرب ويقتل على ما يراه مناسباً ومن حق الحاكم ايضاً ان يرأس مجلسي الامة والشيوخ وان يكون له محل في المحكمة ويقود الجيوش وهو السيد المسود في كل مكان فيجمع المجلس ويفضه بحسب ما يرى ويصدر الاحكام برأيه وحده ·

وفي زمن الحروب يفعل ما يشاء بالجند ويقتلهم دون الرجوع الى رأي ضباطهم · وقد كان مافليوس القائد الروماني في احدى الحروب التي أعلنت على اللاتين حظر على الجنود الخروج من المعسكر فدعا احد المقاتلين من جيش العدو ابنه الى المبارزة فخرج لبرازه وقتله فلم يعتم مافليوس ان قبض على ابنه واعدمه في الحال ·

وللحاكم بحسب التعبير الروماني سلطة ملك ولكن هذه السلطة قصيرة موزعة وذلك لانه لا ينتخب الا لسنة واحدة وله رصفاء لهم مثل سلطته ففي رومية قنصلان او حاكمان يتوليان امر الامة وقيادة الجيش وفيها عدة قضاة يتولون الحكم او القيادة بالنيابة ويصدرون الاحكام وهناك كثير من الحكام ومراقبان واربعة نظار للابنية والملاعب للنظر في الطرق العامة والاسواق وعشرة محامين عن حقوق السوقة وصيارفة يتولون النظر في خزائن المملكة

الاحصاء — ارقى الحكام هما الوكيلان المسيطران وهما مكلفان كل خمس سنين

بتنظيم احصاء للشعب الروماني فيمثل امام المكلفين باحصاء جميع ابناء البلاد ليذكروا لهما وهم يقسمون الايمانات— اسماءهم وعدد اولادهم وعبيدهم ومقدار ثروتهم يقيد كل ذلك في سجلات خاصة . والقائمان باحصاء الامة هما اللذان يكتبان قائمة باسماء اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان والوطنيين ويحددان لكل واحد مقامه في المدينة ثم هما مكلفان ايضاً بان يحتفلا احتفال التريا وهي حفلة عظمى تقام للتزكية كل خمس سنين فيجتمع ذاك اليوم عامة الوطنيين في ساحة المريخ اجتماعهم في حرب ويطوفون ثلاث مرات حول المجلس يحملون ثلاث ضحايا لتكفر عن السيئات وهي عبارة عن ثور ونعجة وخنزير يخنقونها ويرشون المجلس بدمها وبذلك تصبح المدينة مزكاة مطهرة وسلماً مع الارباب .

وللقائمين بالاحصاء الحق ان يقيدا وان يجعلا كل انسان في المنزلة التي يريانها ولهما ان يجردا احد الشيوخ باسقاطه من قائمة مجلس الشيوخ وان لا يحسبا احد الفرسان في جملة اهل طبقته او يحرمان احد الوطنيين بان يحذفا اسمه من سجلات القبائل . ويسهل عليهما عقاب من يرنهم مجرمين ويتجاوزان عن السيئات التي لا تقدح بمنطوق القانون . ولطالما رأوهما يجردان الوطنيين لانهم لم يحسنوا التوفر على حقولهم ولصرفهم كثيراً على خدمهم ويجنوا احد الشيوخ لانه كان يملك عشر ليبرات من الاواني الفضية وآخر لانه اهمل تعهد قبور أجداده وغيره لانه طلق زوجته . هذه السلطة المفرطة هي ما يطلق الرومان عليه « حكومة الاخلاق » فوكيلا الاحصاء هما سيدا المدينة على الجملة .

جلسة مجلس الشيوخ — يتألف مجلس الشيوخ من نحو ثلثمائة رجل يعينهم وكيل الاحصاء الا ان هذا لا ينصبهم كيفما اتفق فلا ينتخب من ابناء البلاد الا الاغنياء اصحاب المكانة وسلالة الاسرات الكبرى ومعظمهم من قدماء الحكام ويختار على الاغلب دائماً اناساً كانوا في المجلس من قبل بحيث ان عضو مجلس الشيوخ يبقى في هذا المنصب طول حياته . فمجلس الشيوخ هو محل اجتماع اهم رجال رومية ولذلك كانت لهم سلطة وسطوة

فاذا حدث امر يجمع احد الحكام اعضاء الشيوخ في احد المعابد ويعرض عليهم المسألة ثم يسألهم رأيهم فيها فيجيبه كل واحد بمفرده مراعين في ذلك مراتبهم في الشرف وهذا ما يدعى اخذ رأي مجلس الشيوخ ويسطر الحاكم بعد ذلك رأي الاكثرية وهذا ما يسمونه مرسوم ديوان الاعيان او الشيوخ ويكون قرارهم عبارة عن رأي لان ليس من حق مجلس الشيوخ ان يقنن القوانين . بيد ان رومية تعمل بهذا الرأي عملها بأمر مفروض . وللشعب ثقة بشيوخه لعلمه بانهم اكثر خبرة منه ولا يجرأ الحكام على مقاومة مجلس مؤلف من اكفاء يساوونهم في الشرف . ولذلك كان المجلس يفض جميع المسائل فيقرر الحرب ويعين

عدد الجيوش و يقبل السفراء و يعقد السلم و يفرض الدخل والخرج فيصدق الشعب على قراراتهم والحكام ينفذونها . وفي سنة ٢٠٠ قرر مجلس الشيوخ اعلان الحرب على ملك مكدونية فاوجس الشعب خيفة ولم يوافق على ذلك فصدر امر مجلس الشيوخ بجمع المجامع من جديد وان يلقي عليهم خطاب يكون ابلغ في اقناعهم من الخطاب الاول وعندها لم يسع الشعب الا الموافقة . و بذلك رأيت ان الشعب في رومية كان يحكم كما يحكم الملك في انكلترا ولكن كان الحكم لمجلس الشيوخ

المجالس والانتخابات — تسمى حكومة رومية « الجمهورية » اي متاع الشعب وجماعة الوطنيين المدعو بين شعباً كأنهم سادة مستقلون في المملكة فمنهم الذين ينتخبون الحكام و يوافقون على الحرب والسلام و يسنون الشرائع و يقول الفقهاء ان القانون هو ما امر به الشعب والشعب في رومية كما في آثينة لا يعين نوابا وعليه ان يوافق على كل شيء بنفسه حتى ان حكومة رومية بعد ان قبلت في المدينة زهاء خمسمائة الف رجل كانوا مشتتين في اطراف ايطاليا كلها اضطر الوطنيون للحصول على حقوقهم ان يحضروا بالذات الى رومية .

ويجتمع الشعب في الساحة و يسمى المجلس « المجتمعات » يدعوه الحاكم الى الالتئام برياسته وكثيراً ما يدعى الوطنيون الى الاجتماع بصوت البوق فيذهبون الى ميدان العمل (ساحة المريخ) يصطفون فرقاً تظلهم اعلامهم وعندها يتألف منهم مجتمعات ذات فرق وكثيراً ما يجتمعون في ساحة السوق « الفوروم » منقسمين الى ٣٥ جماعة يسمونها القبائل فتدخل كل قبيلة في نوبتها الى مكان مسور بسدود لتوافق على ما تقرر به وتسمى المجتمعات بحسب القبائل . والحاكم الذي جمع المجلس يبين له المسألة التي يجب عليه الموافقة عليها ومتى فعل ينفض . فمن ثم كان الشعب حاكماً ولكنه اعتاد الخضوع لزعمائه .

والمجلس ايضاً هو الذي يختار كل سنة الحكام فينتخب بحسب الفرق جميع الحكام الذين كان انتخبهم الشعب قديماً مثل القناصل والقضاة وكلاء الاحصاء ونظار الابنية والملاعب . ومجلس القبائل ينتخب حكام اهل الطبقة المتوسطة ومحامي الشعب ونظار ابنية الشعب . وقد ضاقت ساحة الفوروم منذ القرن الثاني فاخذت تجتمع جميع مجالس الانتخابات في ساحة المريخ تنقسم الرحبة بحواجز ذات مرابض صغيرة تلقب بحدائق الغنم فتنقطع كل قبيلة الى احدى تلك الرحاب وتلاحظ كل قبيلة اكثرية الوطنيين في التصويت اذ ليس لكل قبيلة غير صوت واحد .

سلك المناصب — ليس تولي الحكم او المشيخة عن الامة في رومية صناعة من الصناعات فان الحكام والشيوخ يصرفون وقتهم ومالهم دون ان ينالوا اجراً فمنصب الحكم في رومية

يعدُّ من دواعي الشرف فلا يتطالُ اليه غير الاشراف او الفرسان على الاقل على شرط ان يكونوا اغنياء ثم لا يطمع امروءٌ ان يبلغ ارقى مناصب الحكم الا بعد ان يتقلب في المناصب الاخرى

ومن اراد يوماً ان يحكم على رومية يجب عليه اولاً ان تكون له في الجيش عشر وقائع وحملات وبعدها يسوغ له ان ينتخب صرافاً فيعهد اليه النظر في احدى خزائن المملكة . ثم يصير ناظرًا للابنية والملاعب فينظر في امور الشرطة والبياعات وبعد ذلك ينتخب قاضياً ليجري احكام العدل وعقيب ذلك يصبح قنصلاً فيقود جيشاً ويرأس المجالس وعندئذ تحدثه نفسه بان يكون وكيل احصاء وهذه هي الدرجة التي دونها في العلو كل درجة لا يبلغها المرء قبل ان يبلغ الخمسين من العمر . فترى بهذا ان رجلا واحدًا يكون مالياً وادارياً وقاضياً وقائدًا وحاكماً قبل ان يتولى وظيفة وكيل الاحصاء الغريبة وهي عبارة عن تنظيم المجتمع وتسمى سلسلة هذه الوظائف سلك المناصب ولا تدوم كل وظيفة من هذه الوظائف الاسنة واحدة وللارتقاء للوظيفة التالية يقتضي انتخاب جديد . ويجب على الموظف في خلال السنة التي تتقدم انتخابه ان يظهر في الشوارع بلا انقطاع و يسير كما يقول الرومان او يطمع في امتياز المنصب وان يلتمس اصوات الشعب والعادة في خلال هذه المدة ان يلبس حلة بيضاء وهذا معنى مرشح باللغات الافرنجية اي المكتسي بالبياض .

ادارة الولايات

الشعوب الخاضعة — ما انقضى القرن الاول قبل المسيح الا وقد اخضعت رومية عامة الاقطار الواقعة حول البحر الرومي منذ اسبانيا الى آسيا الصغرى ولم تضف هذه البلاد الى المملكة الرومانية ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين ولم تعدُ ارضهم ارضاً رومانية بل ظلوا غرباء وانضموا فقط الى هذه المملكة اي انهم اصبحوا تحت استيلاء الشعب الروماني كما ان الهنود اليوم ليسوا وطنيين انكليزاً بل هم رعايا انكلترا والهند جزء لا من انكلترا بل من المملكة الانكليزية فقط

فلا يصبح سكان البلاد المغلوبة وطنيين في رومية بل يبقون غرباء اجانب ولكنهم رعايا الشعب الروماني يؤدون اليهم الجزية وعشر غلاتهم واتاوة من المال ورسماً على كل رأس وعليهم ان يخضعوا لجماع ما يأمرونهم به واذ ليس في استطاعة الشعب ان يحكم بالذات ليبعث بحكام ينتدبهم لان يحكموا عنه وكل بلد خاضع لوالٍ كان يسمى ولاية ومعناها «المهمة»

كان في اواخر عهد الجمهورية (في سنة ٤٦) ١٧ ولاية منها عشر في اوربا وخمس في آسيا وثنتان في افريقية ومعظمها متنائية الاطراف جدًا فلم تكن بلاد الغال كلها سوى اربع ولايات واسبانيا ولايتين . قال شيشرون ان الولايات املاك الشعب الروماني فاذا اخضع

هذه الشعوب بامرها فذلك طمعاً في فائدتها لا لاجل منفعته ولذلك لا يتوخى ان يدير تلك الولايات بل يحرص على استثمارها ·

الولاة — يتخذ الشعب حاكماً لادارة كل ولاية وهواماان يكون قنصلاً او قاضياً خرج من الوظيفة فيطيل امد سلطته وليس هذا الموظف الكبير قنصلاً بل هو وال ينوب عن القنصل والوالي كما للقنصل سلطة مطلقة يسير فيها على هواه لانه وحيد في ولايته (١) وليس لديه حكام آخرون ينازعونه السلطة ولا محامون عن الطبقة الوسطى ليصدوه عما يريد ولا مجلس شيوخ يسيطر على اعماله فهو وحده يقود الجيوش ويحملهم على القتال وينزل بهم حيثما يشاء فيتخذ له مقاماً في محكمته حاكماً بالغرامة والسجن والموت ويصدر اوامر تكون قانوناً متبعاً وله وحده السلطة المالية لان فيه يتجسد الشعب الروماني

وكان هذا الحاكم الذي لا يقاومه مقاوم مستبداً حقيقياً فيقبض على من يريد ويحبس ويضرب بالعصي ويعدم من لا تروقه حالتهم واليك مثالاً من ألوف الامثلة التي كان الحكام يجرون فيها مع الهوى كما رواه احد خطباء الرومان قال: « جاء القنصل مؤخراً الى تيانوم فخطر لامرأته ان تلتذ بالاستحمام في حمامات الرجال فاخرج من الحمام الرجال الذين كانوا يستحمون فيه فشكت المرأة من ابطائهم وقلة استعداد الحمام فنصب القنصل عموداً في الساحة العامة واحضر اشهر رجل في المدينة يحمله عليه فجرده من ثيابه وضرب بالعصي »

والوالي يأخذ من ولايته ما يستطيع من المال وينظر اليها كأنها ملك له ولا تعوزه الوسائط لاستثمارها بل يمد يديه الى خزائن المدن وينزع التماثيل والحلي الموضوعة في المعابد ويجبي من السكان الاغنياء اتاوات من المال او البر · واذ كان له الحق ان ينزل جنوده حيث اراد فالمدن تقدم له المال لتعفى من قبول جنوده واذ كان في حل من ان يعدم كل من يتراءى له فالافراد يعطونه المال ليأمنوا غائلته · واذا طلب شيئاً نفيساً او مبلغاً من المال يجاب في الحال الى ما طلب ولا يجرأ امرؤ ان يأبى عليه طلبه · واتباعه يسيرون على مثاله وينهبون باسمه بل بحمايته ويسرع الوالي في جمع المال اذ الواجب عليه ان يغتني في سنة وبعدها يعود الى رومية ويخلفه آخر يعود بمثل ما بدأ فيه سلفه ·

على ان هناك قانوناً يحظر على كل وال ان يقبل هدية ومحكمة مخصوصة (منذ سنة ١٤٩) تنظر في دعاوي الاختلاس · بيد ان هذه المحكمة تؤلف من طبقة الاشراف والفرسان الرومانيين فلا يرون ان يحكموا على ابن بلدهم والعاقبة المهمة في هذه الطريقة كما قال شيشرون

---

(١) كانت تبقى رومية في بلاد الشرق بعض اقيال اي ملوك صغار مثل الملك هيرو في بلاد اليهودية ولكنهم يؤدون الجزية ويخضعون للحاكم او الوالي الروماني ·

ان يضطر الوالي الى بسط يده في السلب من ولايته ليتسنى له ان يرشي المحلفين في المحكمة ولا ينبغي العجب اذا رأينا اسم الوالي مرادفاً لاسم مستبد ومن اشهر هؤلاء اللصوص فيريس والي صقلية وقاضيها وقد خطب في بيان اعماله الخطيب شيشرون لاسباب سياسية خطبا اشتهر بها ومن المحتمل ان كثيرين مثله قد اتوا ما اتاه ·

العشارون — كان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزرع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العشارين فكان هؤلاء مثل المزارعين العموميين في فرنسا قديماً يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج ويجب على سكان الولايات أن يطيعوهم كأنهم وفود الشعب الروماني

وكان في كل ولاية عدة شركات من العشارين ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرون في مظهر السادة ويتناولون اكثر مما يجب لهم اخذه ويسلبون نعمة الاهلين وكثيرًا ما يبيعونهم كما يباع الرقيق وكانوا يأخذون في آسيا حتى السكان بدون سبب ولما طلب ماريوس من ملك بيثنيا ان يقدم له جنداً أجابه الملك ان العشارين لم يبقوا عنده من الرعايا غير النساء والاطفال والشيوخ وقد عرف الرومان هذه المظالم حق معرفتها وكتب الخطيب شيشرون الى اخيه وكان هذا حاكماً اذ ذاك : « اذا وفقت الى طريقة ترضي بها العشارين دون ان تهلك سكان الولايات فتكون قد رزقت مهارة رب » بيد ان العشارين كانوا قضاة في محاكمهم حتى ان الولاة انفسهم خاضعون لهم · وقد اراد سكاروس والي آسيا المشهور بالافراط في العفة ان يمنع العشارين من اطالة يد الاذى في ولايته فلما عاد الى رومية رفعوا عليه شكوى وحكموا عليه

ولطالما اثار العشارون سخط سكان الشرق الخاضعين الساكنين فقد ذبحوا بامر ميتيريداتس في ليلة واحدة مئة الف روماني وبعد قرن اي على عهد المسيح كان اسم عشار مرادفاً لاسم لص ·

الصيارف — جمع الرومان في بلادهم ثروة الامم المغلوبة ولذلك كانت الدراهم كثيرة جداً في رومية ونادرة جداً في الولايات فكان في رومية يمكن الاقتراض بفائدة اربعة او خمسة في المئة اما في الولايات فلا يجد المستدين مالاً يقترضه باقل من اثني عشر في المئة · وكان الصيارفة الرومان يقترضون مالا من رومية ويقرضونه للولايات ولا سيما باسم الملوك او المدن

واذا لم يستطع المستدين ان يوفي رأس المال ورباه يعمد الصيارفة في تقاضي اموالهم الى الطرق التي يستعملها العشارون فقد اقترضت مدن آسيا سنة ٨٤ على نية ان تدفع مبلغا

كبيرًا لتستعين به على الحرب فبعد اربع عشرة سنة فقط اي في سنة ٧٠ صار المبلغ بفوائده ستة اضعاف ما كان فاضطر الصيارفة مدن آسيا ان تبيع حتى التحف والطرف وقد شوهد ابوان يبيعان ابناءهما وبناتهما . وبعد بضع سنين اقرض بروتوس من حكماء الرواقيين ومن اشهر رجال عصره من الرومان واعلاهم كعبًا ومكانة لمدينة سلامينة في قبرص مبلغًا من المال بفائدة ٤٨ في المئة (اي ٤ في المئة كل شهر) فلما طالب وكيله سكابتيوس بالمال مع فائضه تعذر على المدينة ان تؤدي اليه مطلوبه فقصد سكابتيوس الوالي ابيوس فاصحبه هذا بفرقة من الفرسان فجاء الى سلامينة وحاصر مجلس شيوخها وكان اعضاؤه في قاعة الجلسات فمات خمسة منهم جوعًا .

رعايا رومية — كان سكان الولايات لا حول لهم ولا طول مع هؤلاء الظالمين بامرهم وذلك لان الولاة كانوا يمالئون المشارين والصيارفة على رغائبهم ويأخذون بايديهم في كل ما يطلبونه ووراء الوالي الجيش والشعب الروماني يعضدانه فكان يسمح للوطني الروماني ان يشتكي السلابين في الولايات ولكن لا يمس الوالي بأذى ولا تتأتى شكايته الا مرة واحدة عند ما يخرج من الخدمة فيصبر عليه الرعايا يسلبهم ويعتدي كما يشاء ربثما تنقضي مدته واذا اتهم عند عودته الى رومية فتكون محاكمته امام محكمة مؤلفة من الاشراف والمشارين ممن تكون مصلحتهم في معاضدته لا في احقاق الحق ورفع ظلامة اهل الولاية التي كان فيها واذا صادف ان حكمت عليه المحكمة يستعيض عن الحكم بالنفي فيذهب الى احدى مدن ايطاليا يتمتع بما نهبه ايام ولايته وهذا القصاص لا يوازي ما اتاه البتة ولا يعد انتقامًا ولذلك كنت ترى سكان الولايات يؤثرون ان يقمعوا ولاتهم بخضوعهم لهم فيعاملونهم كما يعاملون الملوك وينافقونهم ويهادونهم ويقيمون لهم التماثيل وربما نصبوا للوالي في آسيا هيا كل(١) وبنوا لهم المعابد وعبدوهم كما يعبد الرب

ولئن عامل الشعب الروماني رعاياه بقسوة فلم يكن يأبى عليهم الانضمام اليه كما كان شأن المدن اليونانية بل ان الغريب يصبح وطنيًا رومانيًا بارادة الشعب الروماني والشعب يمنح هذه العاطفة احيانًا وكثيرًا ما يمنحها الى شعب برمته فمنح حق الوطنية الرومانية الى اللاتين اولا في سنة ٨٩ ومنح هذا الحق للطليان في سنة ٤٦ ومنحه لاهل غاليا فاصبح سكان ايطاليا والرومانيين سواء حتى ان العبد الذي يعتقه سيده يسوغ له ان يكون وطنيًا في الحال . وكلما عرضت للشعب الروماني عوارض الضعف ونقص في الانفس يزيد عدده

---

(١) ذكر شيشرون الخطيب الروماني المعابد التي اقامها له سكان سيسليا التي كان واليًا عليها .

برعايا جدد وعبيد جدد فكان عدد الوطنيين يزيد في كل احصاء ولا ينقص فبلغ عددهم في قرنين من ٢٥٠ الفًا الى ٧٠٠ الف . وهكذا ظلت رومية غاصة بالسكان ولم تخل منهم كما خلت اسبارطة بل كانت تمتلىء بالقادمين اليها من المغلوبين على التدريج .

قانون الاراضي

الاملاك العامة — متى طلب شعب غلبته رومية على امره ان يعقد معها الصلح يجب على نوابه ان يلفظوا بالجملة الآتية : « نتخلى لكم عن الشعب والمدينة والحقول والمياه وتماثيل الارباب الحامية للحدود والاثاث وجميع ما يملكه الارباب والناس قد جعلناه بيد الشعب الروماني » وبهذا التسجيل تصبح الامة الرومانية مالكة لما يملكه المغلوبون لهم باسره بل مالكة حتى لاشخاصهم . وكثيرًا ما يبيعون السكان وقد اباع بولس اميل مئة وخمسين الفًا من اهل ابير على هذه الصورة كانوا استسلموا اليه . ومن العادة ان تمنح رومية لمن تغلب عليهم حريتهم وان تبقي املاكهم ملكًا للشعب الروماني يجعلونها ثلاث حصص متساوية . فيعطى للاهالي قسم من اراضيهم على ان يدفعوا شيئًا معلومًا من المال او الحبوب عنها وتحفظ رومية لنفسها الحق ان تأخذ منها كما تشاء . وتؤجر الحقول والمراعي الى اناس من الملتزمين وتترك الاراضي البائرة شاغرة يأخذها من يريد ويحق لكل وطني روماني ان يقيم فيها ويزرعها .

قوانين العقارات — شملت قوانين الاراضي التي اختل بها نظام رومية الاملاك العامة وما كان لاحد الرومان ان يخطر في باله نزع الاملاك من اربابها لان حدود تلك الاملاك نفسها كانت اربابًا يدعونها آلهة التخوم والدين يمنع من نزعها . الا ان الشعب كان يستولي بموجب قانون الاراضي على اراض من الاملاك العامة فقط يوزعها بصفة ملك على مواطنيه وللشعب من حيث الشرع الحق في ذلك لان الاراضي كلها ملكه الا ان الرومانيين تسامحوا قرونًا بان تركوا اناسًا من رعاياهم او ابناء وطنهم يتمتعون بغلات تلك الاراضي وقد انتهت بهم الحال ان صاروا ينظرون الى تلك الاراضي كأنها ملكهم يحبسونها ويبيعونها ويبتاعونها ولو أخذت منهم لقضي على جمهور عظيم من الامة بالافلاس في الحال . وقد حدث في ايطاليا خاصة ان ينزع من اهل مدينة باسرها جميع ما يملكون . هكذا نزع اغسطس جميع اراضي مانتو من سكانها وكان الشاعر فرجيل في جملة المنكوبين فتوصل بفضل شعره الى ان تعاد اليه املاكه ولكن سائر الشعب الذي لم يكن شاعرًا كفرجيل بقي مسلوبًا من املاكه . وتوزع هذه الاراضي المأخوذة على تلك الصفة احيانًا على اناس من فقراء الوطنيين في رومية وفي الاغلب على جماعة من قدماء الجند وقد وزع سيللا اراضي اهل ايترور يا على ١٢٠ الفًا من قدماء الاجناد .

الاخوان الاشتراكيان — كان الشقيقان تيبريوس وكايوس غراشوس من اشرف أسرات رومية ولكن حاول احدهما بعد الآخر وقد تولى زعامة السوقة ان ينزع الحكومة من يد الاشراف الذين يتألف منهم مجلس الشيوخ ·

وكان في ذاك العهد في رومية بل في ايطاليا جمهور كبير من الوطنيين لا سبد لهم ولا لبد يطمحون الى احداث ثورة ومنهم الاغنياء ومعظمهم من طبقة الفرسان الذين يشكون من حرمانهم من الحكومة · فعرض تيبريوس غراشوس نفسه على ان يتولى الدفاع عن العامة وسعى الى توطيد سلطته هذه وكان في قلق مما يراه في بلاد الارياف في ايطاليا من اقامة الرعاة العبيد يخلفون قدماء اصحاب الاملاك الفلاحين ومن رؤية رومية غاصة اناس من الوطنيين لا يملكون فتيلاً ولا نقيراً

قال مرة في خطاب له يخاطب به العامة : « للوحوش البرية في ايطاليا مغاور تأوي اليها والرجال الذين يهريقون دماءهم في الدفاع عن بيضة ايطاليا ليس لهم الا النور والهواء الذي يستنشقونه يهيمون على وجوههم مع ازواجهم وابنائهم لا بيوت تؤويهم ولا منازل يسكنونها · الا وان القواد الذين يحرضونهم على الدفاع عن مدافنهم ومعابدهم ليكذبون في اقوالهم · وليت شعري هل ملك واحد منهم حتى الآن مذبحاً مقدساً في بيته ومدفناً يضم رفات اجداده · يدعونهم سادة الارض وهم لا يملكون مدرة منها »

فاقترح على الشعب سن قانون للاراضي وذلك بان تأخذ الحكومة من الافراد جميع الاراضي التي هي من المنافع العامة فتضع يديها عليها ويترك لكل فرد منهم خمسمائة فدان ، يوزع الباقي من الاراضي حصصاً صغيرة على فقراء الوطنيين فوافق المجلس على هذا القانون فحدث بذلك اضطراب عام في نظام الثروات لان معظم اراضي المملكة على التقريب كانت من الاملاك العامة ولكن وضع الواضعون ايديهم عليها واعتادوا ان يعتبروا انفسهم مالكيها · على انه كان كثيراً ما يصعب التمييز بين الملك الخاص والملك العام اذ لم يكن للرومانيين سجلات للاراضي ·

فاقام تيبريوس ثلاثة مفوضين عهد اليهم قسمة الاراضي كما ان الشعب أعطاهم سلطة مطلقة · وكان هؤلاء المفوضون هم تيبريوس نفسه وأخوه وعمه · فقام خصوم تيبريوس يتهمونه بانه سن قانون الاراضي ليتخذ من ذلك حجة لتكون له بها السلطة · فمضت سنة وهو السيد المتحكم في رومية ولكنه لما أراد ان ينتخب محامياً من العامة عن السنة التالية اقام أعداؤه الحجة (وهذا كان منافياً للعادات المتبعة) فنشأت من ذلك فتنة انتهت

باستيلاء تيبريوس وأصحابه على معبد الكابتول فنهض أنصار مجلس الشيوخ وعبيدهم مسلحين بالدبابيس وخشب المقاعد وطاردوا تيبريوس واتباعه وضربوهم (١٣٣)

و بعد عشر سنين انتخب كايوس أصغر الاخوين غراشوس محامياً عن الشعب (١٢٥) وجدد التصديق على قانون الاراضي وقرر توزيع حنطة على فقراء الوطنيين وقرر ان يجري انتخاب القضاة من طبقة الفرسان ليتوصل بذلك الى هدم سلطة الاشراف فكانت كلمته هي العليا مدة حولين كاملين ولكنه لما قصد قرطاجنة ليسكن فيها جماعة من الطوارىء (المستعمرين) الوطنيين تخلى الشعب عنه مدة غيابه حتى اذا عاد لم يتيسر له ان يعاد انتخابه اذ كان اعداؤه اغتنموا تلك الفرصة للتخلص منه وعندها أمر الحاكم بتسليح أشياع مجلس الشيوخ و زحف على كايوس وأحبابه وكانوا اعتصموا في جبل افنتين فقتل كايوس بيد احد العبيد وذبح اشياعه أو اعدموا في السجون ونقضوا بيوتهم من أسسها وصادروا املاكهم (١٢١)

ماريوس وسيللا

لم يكن النزاع بين الشقيقين غراشوس ومجلس الشيوخ الا عبارة عن هرج في شوارع رومية ينتهي بفتنة تنشأ بين العصابات المسلحة على عجل اما الفتن التي حدثت بعد فكانت حروباً حقيقية بين جيوش منظمة وكان رؤساء الاحزاب من القواد

الحروب المدنية — ليس الشعب الروماني سوى مجموع فقراء لاعمل لهم وما الجيش الا حفنة من المتشردين نزاع الآفاق فلا المجلس ولا الكتائب خاضعة لمجلس الشيوخ لان الاشراف الفاسدين فقدوا كل سلطة أدبية فلم يبق ثمة سوى قوة حقيقية واحدة ونعني بها الجيس ولم يبق سطوة الا للقواد وقد أبى القواد ان يخضعوا فتعذر الحكم بواسطة مجلس الشيوخ حتى أصبح بيد القائد . وغدت الثورة لامناص منها ولكنها لم تنشأ دفعة واحدة بل تخمرت زهاء مئة سنة وكان مجلس الشيوخ يقاوم وقد امسى من الضعف بحيث لايتيسر له ان يجري الاحكام بذاته على انه مازال على شيء من القوة تحول دون غيره من القبض على قياد الامة والقواد يتنازعون بينهم فيمن يكون السيد المتحكم وهكذا قضى الرومانيون قرناً يتخبطون في الفتن والحروب المدنية

ماريوس — كان اصل ماريوس القائد الاول الذي جعل جيشه تحت أمره في رومية من ار بينوم وهي مدينة جبلية صغيرة ولم يكن من سلالة شريفة واشتهر بانه ضابط وانتخب محامياً عن العامة ثم قاضياً بمساعدة الاشراف له . ثم انقلب عليهم وانتخب قنصلاً وعهدت اليه محاربة جوكورتا ملك النوميديين الذي بدد شمل عدة جيوش رومانية

وعندها جند ماريوس جماعة من فقراء الوطنيين ممن اصبحت الخدمة العسكرية صناعتهم فتغلب ماريوس بجيشه على جوكورتا واهلك الشعوب البربرية كالسمبريين والتوتون ممن اغاروا على غاليا وايطاليا الشمالية . واذ لم يكن للشعب ثقة في غيره لقيادة الجيش انتخبه قنصلاً ست مرات متوالية خلافاً للقوانين المتبعة

عاد الى رومية بعد هذه الانتصارات فاصبح مطلق اليد في الحكومة وعندئذ تألف في تلك العاصمة حزبان دعيا انفسهما باسم حزب الشعب (وهو حزب ماريوس) وحزب الاشراف (وهو حزب مجلس الشيوخ)

الحرب الاجتماعية ــ ارتكب اشياع ماريوس من الفظائع ما انتهى بتلويث شهرته بين الناس فاغتنم أحد الاشراف من أسرة كورنيوليوس الكبيرة واسمه سيللا هذه الفرصة لينازعه السلطة وكان هو أيضا من جملة القواد . وفي خلال ذلك استشاط الطليان غيظا من قيامهم بمثل مايقوم به الرومانيون من التكاليف دون ان يكون لهم مثل امتيازاتهم فنزعوا الى مقاومته لينالوا حقوقهم المدنية وهذا مادعوه بالحرب الاجتماعية أي حرب مقاومة المتحالفين فجيشوا جيوشاً كبيرة تقدم احداها على مقربة من رومية وكان سيللا هو الذي انقذ رومية بقتاله الطليان أشد قتال . وبعد حرب دامت سنتين (٩١ ــ ٨٩) خضع الطليان بيد انهم نالوا ماطلبوه وغدوا وطنيين رومانيين

سيللا ــ طارت شهرة سيللا في هذه الحرب فنصب قنصلا وعهد اليه ان يزحف على ملك بحر الخزر ميتريداتس الذي اغار على آسيا الصغرى وذبح فيها الرومانيين عن بكرة ابيهم (٨٨) فحمل الحسد ماريوس على ان يثير فتنة في رومية فخرج سيللا للالتحاق بجيشه الذي كان ينتظره في ايطاليا الجنوبية وعاد معه وكان الدين الروماني يحظر على الجنود الدخول الى المدينة وعليهم سلاحهم وعلى الحاكم نفسه قبل ان يجتاز الباب ان يخلع عنه رداء الحرب ويلبس الحلة الرومانية فكان سيللا القائد الاول الذي جسر على خرق سياج هذا المنع ودخل الى رومية فانهزم ماريوس امامه .

ولما وصل سيللا الى آسيا عاد ماريوس في جيش له من المتشردين ودخل رومية بالقوة (٨٧) وعندئذ بدىء بقتل المعتدين قبل محاكمتهم وجعل خاصة اشياع سيللا تحت الاحكام العرفية بل صدرت اوامر الحكومة ان يقتلوا حيثما وجدوا وصودرت اموالهم ومات ماريوس بعد بضعة اشهر وظل سيناالم انصاره يجري احكامه في رومية ويقتل كل من لاتروقه حالته وكان سيللا في خلال هذه المدة قد تغلب على ميتريداتس وضمن اخلاص جنده له بان اباح لهم نهب آسيا على ما يشاؤون . وقد عاد (٨٣) في جيشه الى ايطاليا

فبعث عليه خصومه بخمسة جيوش فانهزم بعضها وانحاز الآخر اليه ثم دخل سيللا الى رومية وذبح الاسرى وخنق انصار ماريوس ·

الاحكام العرفية — بعد ان مضت بضعة ايام في المذابح شرع سيللا ينفذ الاحكام العسكرية على الاصول وعلق ثلاث قوائم باسماء من يريد اهلاكهم قال : «اعلنت اسماء جميع من ذكرتهم وقد نسيت كثيرا منهم وسأعلن اسماءهم كلما خطروا في بالي » وكل من علق اسمه في قائمة المحكوم عليهم كان معدا للقتل ومن اتى برأسه ينال مكافأة وتصادر اموال القتيل وكان يقتل الواحد بدون محاكمة بل بمجرد هوى القائد وبدون ان ينذر بالقتل · وعلى هذا الوجه لم يكتف سيللا بذبح اعدائه فقط بل قتل الاغنياء الذين كان يطمع في ثروتهم و يروى ان احد الوطنيين البعيدين عن السياسة نظر وهو مار الى قائمة المحكوم عليهم بالقتل فرأى اسمه مسطورا في اول القائمة فهتف قائلا : «ما اتعسني فقد قتلني بيتي في آلب » و يقال ان سيللا قتل الفا وثمانمائة الف فارس ·

قوانين سيللا — بعد ان تخلص سيللا من خصومه حاول ان ينظم حكومة تكون الكلمة فيها لمجلس الشيوخ · فعينوه حاكما مطلقا (ديكتاتور) و يطلق هذا اللقب قديما على القواد في ايام الشدة والخطر ممن تكون لهم السلطة المطلقة فاستخدم سيللا هذه السلطة ليسن قوانين تغير النظام الدستوري القديم وذلك بان ينتخب القضاة بموجب هذا القانون من مجلس الشيوخ ولا تجري المناقشة في قانون قبل ان يوافق عليه مجلس الشيوخ ولا يحق لحامي الشعب بتة ان يقترحوا شيئا و بعد هذه الاصلاحات التي خولت مجلس الشيوخ سلطة مطلقة استقال سيللا من منصبه واخذ نفسه بالانقطاع الى داره والعيش في العزلة (٧٩) وكان يعرف بانه في مأمن اذ كان له مائة الف من جنوده في ايطاليا ·

بومبي

بومبي — عاد مجلس الشيوخ فقبض على السلطة لانه حسن في رأي سيللا ان يعيدها اليه ولكنه لم يكن له من القوة ما يستطيع معه المحافظة على تلك السلطة متى قام احد القواد ينازعه اياها · ودامت حكومة مجلس الشيوخ ايضا في الظاهر اكثر من ثلاثين سنة وذلك لانه كان ثمة عدة قواد وكل منهم يحول دون خصمه ان يستأثر بالحول والطول · ولما هلك سيللا كان في البلاد اربعة جيوش على قدم الاستعداد اثنان منها خاضعان لقائدين من انصار مجلس الشيوخ وهما كراسوس و بومبي والآخران بقيادة قائدين خصيين لمجلس الشيوخ وهما لبيدوس في ايطاليا وسرتوريوس في اسبانيا · والمأثور انه لم يكن احد في تلك الجيوش على استعداد ونظام وان ليس في اولئك القواد حاكم له الحق بقيادة الجند ·

وكان القواد الى ذاك العهد ابداً من القناصل اما الآن فاصبحوا من الافراد ينضم اليهم الجند لايخدموا الجمهورية الرومانية بل ليغتنوا بسلب الاهلين .

ولقد انهزمت جيوش خصوم مجلس الشيوخ وبقي القائدان كراسوس و بومبي وحدهم واتفقا بينهما على الزعامة وجرى انتخابهما قنصلين .

سبارتاكوس — تكرر حدوث عصيان العبيد مرات (حروب العبيد) وكان ذلك في الاغلب في جزيرة صقلية وجنوبي ايطاليا حيث كان العبيد يحملون السلاح لحراسة القطعان . وبعد ان ولي الولاية القائدان كراسوس و بومبي بدأت اشهر تلك الحروب وذلك ان عصابة مؤلفة من ٧٠ مصارعاً هربت من كابو ونهبت عربة تحمل اسلحة وانشأت تحمل على البلاد حملاتها نخف العبيد وانضموا اليها زرافات زرافات فلم تلبث تلك العصابة ان اصبحت جيشاً . وقد هزم هؤلاء العبيد على الولاء ثلاثة جيوش رومانية ارسلت لتأديبهم وكان سبارتاكوس زعيمهم أسر في الحرب وهو من اقليم تراسيا جيء به الى ايطاليا ليستخدم في الصراع فحدثته نفسه ان يجتاز بلاد ايطاليا كلها للعود الى تراسيا بلده . بيد ان جيش كراسوس قاوم عصابات سبارتاكوس مؤخراً وكانت مختلة النظام فقتلها عن آخرها . و بعدها حظرت رومية على العبيد ان يحملوا سلاحا . ويحكى انه أعدم راع من العبيد لانه قتل خنزيراً برياً بحربة كانت معه .

حروب في الشرق — عهد مجلس الامة لبومبي ان يتولى قيادة الجيوش في حربين متعاقبتين في الشرق . الاولى (٦٧) كانت مع قرصان البحر في شواطيء آسيا الصغرى وقد غزوا شواطيء ايطاليا ونهبوها والثانية (٦٦) كانت مع ميتريداتس الذي لم يبرح على ما اصابه من الفشل يدافع عن حوزته في اطراف آسيا الصغرى

ولقد عاد بومبي من آسيا في جيش يتفانى في الاخلاص له وكان في بضع سنين السيد المسود في رومية واذ كان ينظر الى الشرف اكثر منه الى السلطة لم يدخل ادنى تعديل في الحكومة . وفي خلال ذلك نال الحظوة من الامة شاب من الاشراف اسمه قيصر فاتفق بومبي وكراسوس وقيصر على اقتسام السلطة (٦٠) فانتخب قيصر قنصلاً ثم والياً على غاليا وتولى كراسوس قيادة الجيش الذي ارسل الى آسيا للحملة على البارثيين ولقي حتفه سنة ٥٣ وبقي بومبي في رومية .

كاتالينا — بينا كان بومبي يحارب في الشرق حدثت في رومية ازمة كادت تؤدي الى ثورة وذلك ان احد الاشراف من قدماء انصار سيللا واسمه كاتالينا كان فقد ثروته لاسترساله في الشهوات فحاول ان يسترجع ماله بالقبض على ازمة الاحكام وكان رجلاً

قوي الشكيمة جريء النفس مقداماً لا يتطرق الى قلبه وسواس وله اصدقاء كثيرون من اشراف الشبان المستهترين الفاسقين اخلصوا في حبه اذ كان يقضي معهم اوقات صفائه و يقرضهم مالاً ويهديهم خيولاً وكلاب صيد . وله من الانصار قدماء اشياع سيللا وقدماء الجنود الذين اسكنهم سيللا في ايطاليا ممن باعوا اراضيهم واخذوا يبحثون عن مورد يعيشون منه .

فاتفق كاتالينا مع جمهور من هؤلاء الساخطين على ان يذبحوا في آن واحد القنصلين يوم يذهبان معًا الى معبد الكابتول فلم يفلحوا فيا دبروه لان الخبر ترامى الى القنصلين الا ان كاتالينا احتفظ بانصاره وظل يدس الدسائس وكان اعداء مجلس الشيوخ وربما قيصر ايضاً يعضدونه سرّاً فقدم نفسه لينتخب قنصلاً فكان خصمه في هذا الانتخاب شيشرون اشهر محام واعظم خطباء الرومان وكان هذا توصل الى ان ينتخب حاكماً لان الامرات الشريفة غدت منذ عهد ماريوس لا تسمح الا بانتخاب اناس من الاشراف .

وساعد اشياع مجلس الشيوخ الخطيب شيشرون فجرى انتخابه وسقط كاتالينا الا ان القنصل الآخر رصيف شيشرون وهو انطونيوس كان ممالئاً سرّاً للحانقين . فدبر كاتالينا مكيدة كبرى على ان يذبح اصحابه شيشرون واعضاء مجلس الشيوخ في رومية و يحرقوها بينا يكون قدماء اجناد سيللا المقيمين في اترور يا زاحفين على رومية . فبلغ الخبر شيشرون فلم يخرج الا في كوكبة من الفرسان محدقة به الا انه لم يكن عنده جيش لقتال قدماء الاجناد الذين شرعوا يتجمعون و يتسلحون والعبيد الذين اخذوا يسلحونهم في كابو فقضى جزءاً من السنة التي تولى فيها القنصلية وهو في قلق مستمر .

واخيرًا رجع واليان يقودان جنودًا فشعر شيشرون بقوة تمكنه من الدفاع فاستدعى مجلس الشيوخ ليوافق على قيام القناصل بما فيه سلامة الجمهورية الرومانية وان يعطي القناصل سلطة ليتخذوا عامة الاسباب التي يرونها مناسبة وادخل الجند الى رومية يرابطون في الساحات ودعا مجلس الشيوخ الى الاجتماع ثانية وفي هذه الجلسة التي خطبته الاولى في مقاومة كاتالينا وسأله مشعرًا اياه بما دبره من المكيدة التي افتضح امرها وانذره بالانصراف

فغادر كاتالينا رومية وذهب للالتحاق بقدماء الاجناد المتمردين في اترور يا وظل اشياعه في المدينة فاتفقوا سراً مع وفود الالوبروج بان يقدموا لهم فرسانًا ثم غيروا آراءهم وافشوا سر المتآمرين . فطلب شيشرون خمسة من رؤوس زعماء المؤامرة واضطرهم الى الاقرار . ثم استفتى مجلس الشيوخ فيا يجب ان يعاملوا به فاجاب بانه يجب اعدامهم ولكن كان احد المجرمين واسمه لانتولوس قاضيا ولا يحق لاحد ان يوقفه الا حاكم له .

مقام ارقى من مقامه فذهب شيشرون بذاته لتوقيف المجرمين الخمسة واخذهم الى سجن الكابتول وخنقهم وعاد يقول لمجلس الشيوخ : « لقد عاشوا »

فاعلن كاتالينا الحرب ولم يكن سوى جزء من رجاله يحمل سلاحاً ومعظمهم انفضوا من حوله وزحف عليه جيش بقيادة القنصل انطونيوس آتياً من الجنوب وزحف آخر من الشمال ولم يبق لكاتالينا سوى ثلاثة آلاف رجل حاول بهم الفرار نحو الشمال فرأى جبال ابنين في وجهه مسدودة فانقض على جيش انطونيوس وهاجمه وقتل مع اصحابه جملة واحدة (٦٣) فنال اذ ذاك شيشرون من مجلس الشيوخ لقب « ابو الوطن » دلالة على انه انقذ رومية من مخالب العدو ولكن لما انتهت سنة حكمه لم يعهد له بسلطة

فتح بلاد الغال

دخول قيصر الى غاليا — اتفق قيصر مع بومبي وكراسوس ان يتولى كل منهم القيادة في احدى الولايات العظمى على ان يكون له الحق في ان يجيش جيشاً فوضع كراسوس يده على سورية وبومبي على اسبانيا وقيصر على الثلاث ولايات المجاورة لغاليا وذلك لمدة خمس سنين . وقد ذهب قيصر لما انقضت سنة حكمه بصفته واليا الى مقر ولايته ليدشي فيها جيشاً يكون هو قائده ودخل في الحال في عدة حروب وظل عشر سنين بعيداً عن رومية (ولم يدم حكمه اكثر من خمس سنين الى سنة ٥٣ ولكنه جدده دفعة ثانية الى سنة ٤٨)

وكانت رومية الى ذاك العهد لم تخضع غير جزء من البلاد التي تنزلها الشعوب الغالية بل لم يكن لها سوى ولايتين غاليتين : غاليا سيزالبين وهي مؤلفة من البلاد الواقعة بين جبال ابنين والالب (وهي اليوم ايطاليا الشمالية) . والبروفانسيا وهي عبارة عن شواطىء البحر المتوسط وبلاد الرون من جبال الالب الى جبال البيرنيه . وكانت هذه البلاد مع اقليم ايليريا (الجبال الواقعة في شرقي الادرياتيك) هي الثلاث ولايات التي تولاها قيصر .

اما باقي بلاد فرنسا الحالية التي دعاها الرومانيون غاليا فكانت مستقلة بعد يسكنها ثلاثة عناصر من الناس . أحدها الغاليون وهم يشغلون القسم الاعظم من البلاد اي جميع فرنسا الواقعة بين نهر الغارون ونهر السين ويصفهم اليونان والرومان بان هؤلاء السكان من الرجال العظام بيض البشرة شقر الشعور زرق العيون طوال السبلات يأكلون اللحوم ويسكرون بنبيذ السرفواز (ضرب من الجعة) او بشراب الايدرومل وهم أشد شبهاً بالجرمانيين منهم بالفرنسيس اليوم . وكان السواد الاعظم من هذه الامة يعيش شقياً في الاكواخ لاشأن لهم في ادارة شؤون بلادهم يخضعون لكبار ارباب الاملاك الذين يقاتلون راكبين صهوات خيولهم ويدعوهم قيصر بالفرسان ويذكرهم كما يذكر غيره بين شجعانا للغاية ولا يبعد

ان يكون هؤلاء الفرسان الغاليون شبيهين بالجرمانيين هم من الفاتحين نزلوا وسط شعب اصغر منهم أجساماً اشقراصهب يشبه الشعب النازل اليوم في البلاد الغربية أي فرنسا وايرلاندا وبلاد الغال

والقسم الثاني من تلك العناصر الثلاثة هم البلجيكيون نزلوا البلاد الواقعة في شمالي السين الى نهر الرين وهم يشبهون كما كان يقول الرومان الجرمانيين النازلين في الشاطيء الآخر من نهر الرين والظاهر انهم كانوا أقل اختلاطاً بالشعب القديم من الغاليين واحسن الفرسان فيهم كانوا يقاتلون راكبين

والقسم الثالث من تلك العناصر هم الاكيتيون نزلوا في جنوبي نهر الغارون وهم ضئال الاجسام شجعان يشبهون الايبريين في اسبانيا ويتكلمون بلغة ايبرية ويعتبرون سائر شعوب غاليا كأنهم غرباء وهؤلاء خضعوا لقيصر اول الامر . وبعد فلم يكن الغاليون والبلجيكيون والاكيتيون أمماً معدودة بل لم يكن ثمة غير شعوب صغيرة يستولي أقدرها على نحو ثلاث أو اربع من مقاطعاتنا اليوم وكل مقاطعة تؤلف حكومة مستقلة ودعاها قيصر سيفيتا أي التي يحكمها كما يشاء وتحارب غيرها . وكان لبعض تلك الحكومات ملك ويحكم معظمها مجلس من الاشراف (الفرسان) وكان للكهنة عند الغاليين سلطة كبرى

لم تبرح تلك الشعوب على حالة من التوحش بعد تعيش بما تنتجه لها ماشيتها وما مدنها الا اسوار صغيرة محصنة يجعلون فيها مواشيهم وعيالهم ابان الحرب ولئن كان معظم البلاد غابات وحراجاً فقد بدؤا يزرعون حنطة ليتيسر ان تطعم جيشاً رومانياً بأسره

جاء قيصر ينوي فتح غاليا في جيش اختاره من سكان الولايتين الغاليتين الخاضعتين لرومية خاصة وكان مؤلفاً بحسب العادة الرومانية من مشاة منظمين كتائب وعليهم اسلحتهم وهم مدربون اكثر من جيوش الشعب الغالي ولقد عني قيصر بذكر خبر الفتح في مفكراته فاوهم القاريء بان الغاليين ساقوا عليه جيوشاً اكثر عدداً من جيشه ومن المحتمل بانه لم يقل الحقيقة اذ لم يكن في استطاعة غاليا ان تطعم غير عدد قليل من الناس ومعظم سكانها ليسوا محاربين

غارة الهيلفتيين والسويفيين — عند ماوصل قيصر الى بلاد الغال كان الايدوانيون النازلون في جبال مورفان اشد شعوب اواسط غاليا بأساً وعاصمتهم بيبراكت بالقرب من أوتون وبلادهم واقعة بين نهر السون واللوار . ومن أشداء البأس الارفرنيون النازلون في البلاد الجبلية التي أطلق عليها اسمهم (اوفرنيا) وكانوا حاكمين على الامم النازلة في البلاد الصخرية الوسطى

لحارب الايدوانيون السكيانيين النازلين في جبال جورا لاختلاف طرأ بينهم على الملاحة في نهرسون فاستدعى السكيانيون من المانيا زعيماً سويفياً وهو الملك اريوفيست فأتى بعصابة من خيرة المحاربين مؤلفة من العامة خاصة وهم السويفيون . وبعد ان تغلب الايدوانيين طلب الملك اريوفيست الى السكيانيين جزءاً من ارضهم لينزل فيها جيشه . وكان السكيانيون صالحوا الايدوانيين لقتال اريوفيست الذين نزلوا عليهم وعندها استنجد الايدوانيون برومية ولما قاد قيصر جيشه الى بلاد سون تقدم على انه حليف شعب غالي لمقاومة غارة جرمانية وفي غضون ذلك اخذ الهيلفتيون وهم شعب غالي يسكن سويسرا بالهجرة من بلادهم فانقلبوا منها يحملون أسراتهم ومواشيهم وامتعتهم محمولة على مركبات قائلين انهم يريدون مهاجمة بلاد الغال ليستوطنوا شواطيء المحيط . وربما كان ذلك حيلة منهم ليذهبوا لنصرة الايدوانيين على اريوفيست وتقدموا الى قيصر ان يسمح لهم باجتياز تلك الولاية الرومانية فابى عليهم ذلك فلم يبق امام الهيلفتيين الا ان يقطعوا وادي سون فداهمهم قيصر بالقرب من نهر سون وحمل اولاً على ساقة جيشهم ثم هاجم مجموعهم فذبح منهم جزءاً عظيماً واضطر من افلتوا من القتل الى الرجوع الى بلادهم . ثم ارتد على اعقابه لقتال اريوفيست واسرع حتى بلغ في جيشه الى فيزونسيو (بزانسون) وحاذر جنده من هول هذه الحرب وهم في بلاد جبلية مغشاة بالغابات يهاجمون برابرة اشداء على اهبة تامة فجمع قيصر قواد المئة من جنده (يوزباشية) وقال لهم على من يوجسون خيفة ان يسافروا مع الفرقة العاشرة فاجابه قواد المئة بانهم يتبعونه حيثما ذهب

وقطع الجيش الروماني مجاز جبال الفوسج ونزل الى سهل الالزاس وجاء يعسكر امام العدو . والف اريوفيست معسكره من مركباته وتحصن وراءها وكان قيصر يمرن جيشه في السهل ويعبيه للقتال ثم صحت عزيمة اريوفيست على الخروج من المعسكر فداهم الجيش الروماني في فرسانه فجرح وفر جنده فطارده العدو حتى نهر الرين . وكان المهاجمون الجرمان يطردون الى خارج غاليا ولكن قيصر لم يأت مع جيشه الى ولايته بل رابط معه في وادي سون حيث قضى الشتاء وقد اخذ يعامل بلاد غاليا كالبلاد المغلوبة فاضطرت الشعوب الغالية أن تحالف رومية .

فتح شمال غاليا — ابى البلجيكيون النازلون بين نهري السين والرين وهم اشجع شعوب غاليا كافة ان يدخلوا في محالفة رومية فتعاهدوا بينهم وتحالفوا وجمعوا جميع المحاربين من ابنائهم في بلاد لاون . فجاء قيصر في الربيع في ثماني فرق من الجند وعقد محالفة مع احد هذه الشعوب وهم الريميون ونزل في معسكر حصين على رابية يفصلها عن معسكر البلجيكيين

واد ذو بطائح وظل الجيشان زمناً احدهما قبالة الآخر واذ كان الجيش الروماني منظماً كانت تأتيه النجدات من الطعام تباعاً اما البلجيكيون فشق عليهم ان يتغذوا في تلك الادغال والحراج فانفذ قيصر الايدوانيين احلافه يخربون بلاد البيلوفاكيين اهم تلك الشعوب المتحالفة ولما بلغ البلجيكيون ذلك انفضت جموعهم ليذهبوا للدفاع عن بلادهم فتخلص قيصر من جيش العدو بدون قتال وراح يطوف بلاد البلجيكيين ويهاجم مدنهم الواحدة بعد الاخرى مكرهاً كل امة ان تكون حليفة لرومية وان تعطيها على سبيل الرهن رجالاً من الأسر النبيلة في بلادها ٠

وقد داهم النيرفيون (اهل بلاد السامبر) احد هذه الشعوب الجيش الروماني في غابة على شاطئ نهر السامبر بينا كان يبني معسكره وهزم الفرسان الغاليين احلاف الرومان وعساكر الرجالة الخفيفة الا ان الكتائب حمت المؤخرة وحالت دون الهزيمة فاخذ قيصر يحارب النيرفيين حرباً يريد بها ابادتهم عن آخرهم ٠ ولما اخضع الجيش الروماني الشعوب البلجيكية قضى الشتاء في وسط بلاد غاليا على شاطئ اللوار ٠

فتح الغرب — قبلت الشعوب النازلة على ضفاف البحر المحيط ان تحالف رومية وتقدم لها رهائن وما جاء الشتاء حتى تحالفوا بينهم وابوا ان يرسلوا حنطة لاطعام الجيش الروماني واسروا عندهم مندوبي الرومان الذين جاؤهم في طلب ذلك ليكرهوا قيصر على ان يعيد اليهم من استبقاهم عنده من رجالهم رهينة ٠ وكان للفنتيين (سكان فان) وهم من الشعوب الخطيرة في ذاك الحلف سفن حربية صنعوها من شجر البلوط وجعلت بحيث تسير على ارادة ربانها ولها مقدم مرتفع يقاوم فعل الامواج وطبقات سفلى منبسطة تستطيع ان تجر على قيعان الشاطئ وفي البحار الصغيرة فانشأ قيصر سفناً ذات قلوع في مصب نهر اللوار هاجم بها اسطول الفنتيين ٠ وصعب عليه ان يحطمه لان سفنه لم يكن لها من العلو ما يكفي للوصول الى مساماة تلك السفن الفينيقية وكانت مراكبه داخلة في الماء كثيراً بحيث لا يتسنى لها ان تطارد مراكب عدوه في وسط الصخور والقيعان وبعد التتيا والتي صنع الرومان مناجل ذات مقابض وعصي طويلة قطعوا بها الحبال التي كانت تمسك قلوع سفن الفنتيين فلما سقطت القلوع من هذه السفن ولم يكن عندها مجاديف تقذف بها وقفت لا تبدي حراكاً فداهمها الجيش الروماني واخذها عنوة فطلب الفنتيون الصلح الا ان قيصر امر باشرافهم فضربت اعناقهم وباع سائر الشعب بيع العبيد ٠ وفي تلك المدة ايضاً كان اقتطع قيصر فرقة صغيرة من جيشه لتخضع لسلطان رومية جميع الشعوب النازلة في الاقليم المعروف اليوم باقليم نورماندیا وهناك فرقة اخرى له تحارب شعوب الاكتيين في جنوب نهر الغارون

وعلى هذا فقد اخضع قيصر في ثلاث حملات (٥٨ — ٥٦) عامة بلاد غاليا واغتنم فرصة الشتاء للعودة الى ولايته في ايطاليا المعروفة بسيزالبين

وفي العام التالي (٥٦) ضرب موعداً للقائدين الآخرين اللذين كانا يقاسمانه الحكم وهما بومبي وكراسوس فاجتمع ثلاثتهم على تخوم ولايته في ولاية لوكس وقرروا تجديد حكومتهم لخمس سنين اخرى

حملات الى خارج غاليا — حارب قيصر خارج غاليا دلالة على سطوته واشغالاً لجيشه وكان شعبان جرمانيان اجتازا نهر الرين وهاجما بلاد البلجيك فسار قيصر في جيشه وفرسان شعوب غاليا على نهر الرين بالقرب من ملتقى نهر الموز وهاجم الجرمان وذبحهم مع نسائهم واولادهم ثم بنى على الرين جسرا من جذوع الاشجار وذهب لتخريب الشاطىء الايمن

ولما عاد الى غاليا ركب البحر مع فرقتين (٥٥) واجتاز بحر المانش ونزل الى بريطانيا (انكلترا) ولما انشأ في السنة التالية سفناً متسعة قليلاً لنقل الاثقال والخيول عاد الى بريطانيا في جيش كبير واجتاز الغابات التي دافع عنها المحاربون البريطانيون حتى بلغ نهر التيمس (٥٤)

قيام الغاليين — كان الاشراف في معظم الشعوب الغالية من اشياع رومية يقاتلون في الجيش الروماني على انهم رديء من الفرسان و يعاشرون الضباط الرومانيين وكان بعضهم من اصحاب قيصر الا ان السواد الاعظم من تلك الامم كانوا يتبرمون باولئك الجنود الغرباء الذين يسيرون سير السادة فاتفق بعض الزعماء من حزب الاشراف واتفقوا بينهم سراً على تهييج الشعب . وكان قيصر قد وزع جيشه على شعوب كثيرة لقضاء فصل الشتاء وذلك لان القمح كان نادراً في تلك السنة . فقرر زعماء الغاليين ان يغتنموا هذه الفرصة لمهاجمة الفرق المنعزلة وقطع مواصلاتهم فانتظروا ريثما يبتعد قيصر الى ولاية سيزالبين حيث ذهب لقضاء الشتاء .

الا ان شعب الكارنوت (شارتر) ابدى نواجذ العصيان قبل ان يتم مادبروه مستشيطاً غضباً من ملكه الذي نصبه قيصر وحاكمه فحكم عليه بالاعدام وقتل . فبلغ قيصر هذا النبأ فاستعد للحرب ولما ازمعت الفرقة الرابطة في بلاد السامبر الخروج من معسكرها داهمها الابيرون وذبحوها . ورأت فرقة رومانية اخرى ان تبقى في معسكرها فاحاط بها الغاليون فاسرع قيصر وتمكن من انقاذها وعند ذلك استراحت الجنود الرومانية الى آخر الشتاء . ولما طلع الربيع ابى عدة شعوب غالية من الشمال ان يبعثوا بوفودهم الى قيصر فجمع جيشه برمته وسحقهم واحداً بعد واحد فانتقم من الابيور بين بتخريب زروعهم وحرق قراهم وذبح

السكان وطارد المنهزمين الى غابات آردن وما جاء الخريف الا وقد خضعت غاليا الشمالية باسرها ٠

الفارس فرسنجتوريكس — اجمع شعوب اواسط البلاد في خلال الشتاء امرهم بينهم على العصيان ثانية و بدأ الكارنتيون اولاً فداهموا مدينة سنابوم على نهر اللوار فقتلوا فيها تجار الطليان كافة ٠ وفي هذه المرة تسلح عامة الشعوب النازلين بين نهر السين والغارون لقتال الرومان و بقي الاكتيون على الحياد ٠ وبدأت الشعوب المحالفة لرومية تنزع السلطة من يد الاشراف اشياع قيصر واقاموا زعماء جدداً ودخل هؤلاء في التحالف الغالي

وكان زعيم الثورة شاباً من اشراف أرفرنا اسمه فرسنجتوريكس وهو فارس يحسن الفروسية خدم في الجيش الروماني وكان صديق قيصر واحدث ثورة في بلاده اولاً وما هاج سكان القرى حتى نزع السلطة من ايدي الاشراف واصبح ملكاً على ارفرنا ٠ ثم بعث برسل الى الشعوب الاخرى وجمع جيشاً وجعل من نظامه ان يحرق الخائنين و يصلم آذان الآبقين و يسمل عيونهم ٠ فداهم الغاليون الرومانيين في آن واحد في الجنوب من ولاية بروفنسيا (من اقليم لانكدوك) وفي الشمال من البلاد الواقعة بين نهري السين والسون حيث كانت ترابط الفرق الرومانية واضطر قيصر ان يجتاز جبال سيفين وهي مكللة بالثلوج وا كره فرسنجتوريكس من رجاله ان يعود للدفاع عن بلاده فاتسع الوقت لقيصر ان يجمع جيشه بالقرب من سانس و يذهب فيه الى اقليم اللوار فخرب فرسنجتوريكس جميع البلاد وجعل المدن قاعاً صفصفاً لتكون قفراً لا يجد فيها العدو شيئاً يطعمه بيد ان البيتوريجيين لم يقبلوا بتخريب مدينتهم افاريكوم ودافعوا قيصر عنها زمناً

بعث قيصر في الربيع (٥٢) فيلقاً لمباغتة شعوب السين وذهب بنفسه في معظم جيشه للهجوم على جركوفيا قلعة الارفرنيين فرد على اعقابه وحرج موقفه اذ لم يكن لديه طعام (لخراب مخازن ذخائره في نرفر) وهو محصور بين شعوب الارفرنيين والايدوانيين الذين ذبحوا التجار الطليان ومع ذلك اصر على عدم اخلاء غاليا وتمكن من الوصول الى سانس ٠ وفي خلال ذلك عين المجلس المؤلف من مندوبي جميع الشعوب الغالية الزعيم فرسنجتوريكس قائداً عاماً على الجيوش الغالية

فاستدعى قيصر من جرمانيا فرساناً اخذهم لحساب رومية وقاد جيشه من ناحية سون ولعله فعل ذلك ليتمكن من مراسلة بروفنسيا فتبعه فرسنجتوريكس في جيشه وحاول ان يقطع عنه مواد الطعام و رمى الجيش الروماني وهو في مسيره بفرسانه الغاليين فهزمهم فرسان الجيش الغالي ورجع فرسنجتوريكس على اعقابه الى مدينة الېزيا الحصينة في بلاد

الآكام بين نهر السون ومصب نهر السين فتبعه قيصر وحاصره فيها جاعلاً حول اليزيا سوراً تعلوه دائرة مجنحة ذات ابراج يحميها بخندق ·

وصل جيش من الغاليين لرفع الحصار عن جيش فرسنجتوريكس ودام الرومانيين ولكن حال دون الوصول اليه ذاك السور الذي اقامه قيصر من ناحية الخلاء · وبعد اشتباك القتال بين الجيشين رُدَّ الجيش الغالي على اعقابه وتفرق شذر مذر فلم يبق عند الجيش المحاصر في اليزيا شيء من الزاد فسلم فرسنجتوريكس (٥٢) فبعث به قيصر الى رومية حيث قضى ست سنين سجيناً ثم شهد حفلة انتصار قيصر وضرب عنقه ·

وهكذا انتهى العصيان العام · وقضى قيصر سنة اخرى في اخضاع الشعوب التي كانت تقاوم واحداً بعد الآخر فابادها · وكان يفاخر بانه ذبح في ثماني سنين مليوناً من السكان وانه اسر منهم مليوناً آخر باعه بيع العبيد وقضى سنة اخرى لتنظيم شؤون حكومة غاليا وبعد ذلك صفا الجو لرومية بهلاك اعدائها · وقد وسد قيصر الحكم الى الاشراف اشياع الرومان والف فرقة من الغاليين لقبوها بالسنونو وكان جيشه المدرب يحبه لحدثته نفسه ان يستخدمه في الاستيلاء على المملكة الرومانية باسرها · فخضعت غاليا لرومية مباشرة وانقسمت ولايات ولكن تنظيمها لم يتم الا على عهد اغسطس ·

عاقبة الجمهورية

كاتون الاوتيكي — بينا كان القواد يتنازعون بينهم فيمن يستأثر بالسلطان على العالم الروماني اشتهر رجل بتعلقه بالدستور الجمهوري القديم الذي اخذ يمزق ولما رآه آخذاً في التداعي لم يلبث ان انتحر وكان كاتون هذا هو الملقب بعد بكاتون الاوتيكي باسم المدينة التي انتحر فيها ·

كان هذا الرجل من أُسرة شريفة من اخلاف كاتون وزير الاحصاء الشهير والمدافع عن الاخلاق الرومانية القديمة كتب له ان يكون صاحب ثروة طائلة وهو شاب بعد · وكان قد تعلم فلسفة الرواقيين وجرى عليها فانشأ يعيش عيش الزهاد يأكل قليلاً ويشرب قليلاً ولا يتطيب وعوّد نفسه احتمال الحر والبرد الشديد يسافر ماشياً في كل فصل من فصول السنة حتى مع اصحابه الراكبين خيولهم ولا يلبس الا ثياباً بسيطة رثة وقد وقع له ان خرج بدون حذاء ·

ولما أُرسل قائداً لاحد الجيوش الى احدى الحروب (بموجب امتياز فتيان الاشراف) احبه جنده واحترموه اذ رأوه يعيش مثلهم عيشاً بسيطاً ولما وسدت اليه نظارة المالية عني بالنظر في الحسابات بنفسه على العكس فيمن كان قبله من الاشراف يتولون هذه النظارة

فانهم كانوا يتركون الكتاب ينظرون في شؤون المالية وحدهم وبذلك اكتشف تزويرات الكتبة وحاكم المرتكبين واشتهر بغيرته وكان لا يتأخر عن جلسة من جلسات مجلس الشيوخ او مجلس الامة فصار يضرب المثل بشرفه واصبح القوم يقولون عن الامر المتعذر « لا يمكن تصديق هذا ولو قاله كاتون »

وكان كاتون يقوم بما يعتقد انه واجب عليه دون ان تأخذه رأفة او تناله رهبة . وحاول ان يحكم على مورينا لانه ابتاع اصوات الامة حتى انتخبته قنصلاً فبرأه شيشرون وكان اذ ذاك قنصلاً بخطاب سخر فيه من فلسفة الرواقيين فقال كاتون : « حقاً ان لنا قنصلاً مضحكاً » واقترح قيصر في مسألة المشتركين في قتل كاتالينا ان يتأخر اعدامهم لانهم رفعوا قضية فاشتد كاتون على قيصر واشار الى مجلس الشيوخ ان يأمر باعدام الجناة في الحال فلم يسع المجلس الا ان يقرر قتلهم .

ولما اقترح بومبي سن قانون يسمح له بادخال جيشه الى رومية خلافاً لما رسمه الدستور استشاط كاتون غضباً في جلسة مجلس الشيوخ من المحامي متلوس الذي اقترح وضع القانون وصرح بانه ما دام حياً لا يدخل بومبي الى المدينة مسلحاً ولما جاء متلوس الى الساحة في جيش من العبيد المسلحين للموافقة على القانون اخترق كاتون صفوف الجماعة وقعد بالقرب من متلوس ومنعه من قراءة مشروعه فجاء العبيد اذ ذاك صارخين يرمون بالحجارة و يضربون بالعصي فهرب الشعب و بقي كاتون فانقذه مورينا بان جره الى احد المعابد وعاد الشعب فصعد كاتون على المنبر وخطب في سيئات هذا القانون فابى متلوس ان يعرضه وذهب الى آسيا ليلحق ببومبي

ولما اتفق قيصر و بومبي وكان قيصر قنصلاً اقترح سن قانون فلم يجرأ غير كاتون على قتاله فانزله قيصر من المنبر بواسطة رجال الشرطة و بعث به الى السجن وظل كاتون يتكلم في الطريق وقد تبعه جمهور من اعضاء مجلس الشيوخ فعزم قيصر ان يخلي سبيله وللخلاص منه ارسلته الحكومة الى قبرص ليطرد منها الملك بطليموس دون ان يعطوه جيشاً واذ كان هذا الملك انتحر لم يبق على كاتون الا ان ينظم ثمة ما خلف الملك من الكنوز فاتى الى رومية بمبلغ كبير فاستقبله مجلس الشيوخ احسن استقبال وتقدم للانتخاب قاضياً وكانت القبيلة الاولى وافقت على انتخابه واذ كان بومبي رئيس المجلس لم ير بدّاً من ان يدعي ان السماء ترعد واعلن بانفضاض الجلسة (والرعد طالع شؤم كما عرفت في بعض الفصول السابقة) وعند ما اقترحوا ان يعطوا لقيصر جيشاً تقدم كاتون الى بومبي ولطالما شغل الاول بقتال الثاني وحضه على الحذر من قيصر فبقي بومبي عدواً لهذا . وهذا لم يمنع كاتون عند ما رأى

المنافسين في الحكومة يقتتلون في المدينة من معاضدة اقتراح المقترحين ان يعينوا بومبي وحده قنصلاً عند ما اقترب احدهما من صاحبه ولما زحف قيصر على رومية بجيشه نصح كاتون لمجلس الشيوخ ان يلقي الى بومبي بمقاليد الحكم باجمعه قائلاً على من عمل الشر ان يتلافاه . وتبع بومبي الى خارج ايطاليا ومنذ ذاك العهد اطلق شعره ولحيته علامة على الحزن واشار باطالة زمن الحروب وكان يخاف من عاقبة قتال يقتل فيه الرومانيون بعضهم بعضاً

ولما بلغته هزيمة فارسال سافر الى مصر يريد الالتحاق ببومبي ووقف في افريقية حيث كان لاحد اشياع بومبي جيش وتولى الدفاع عن مدينة اوتيكيا

واذ هزم قيصر جيش افريقية اقترح كاتون على الرومانيين النازلين في اوتيكيا ان يحاصروا فابوا فاطلق كاتون جميع اعضاء الشيوخ الذين لجأوا اليه ثم استحم وتعشى مع اصحابه واخذ يخوض في المباحث الفلسفية ولما حان وقت النوم طالع محاورة لافلاطون في خلود النفس والتمس سيفه الذي كان نزعه ابنه عنه مغاضباً فاحضروه اليه فجعله على مقربة منه ونام فاستيقظ عند الفجر ثم طعن نفسه في صدره وكان عمره ٤٨ سنة .

فارسال — لم يبق في البلاد بعد وفاة كراسوس غير بومبي وقيصر وكلاهما يود الاستئثار بالسلطة وكان من تقدم بومبي على صاحبه انه كان في رومية متوليًا على ازمة مجلس الشيوخ وكان مع قيصر جيش غاليا المدرب على الحروب منذ ثماني سنين قضاها في الحملات .

فاتخذ بومبي خطة الهجوم واستصدر من مجلس الشيوخ امرًا بان يترك قيصر جيشه ويجيء الى رومية فعقد قيصر اذ ذاك عزمه على اجتياز حدود ولايته (وكان الحد هو نهر روبيكون) وزحف على رومية . ولم يكن عند بومبي جيش في ايطاليا للدفاع فركن الى الفرار مع اكثر الشيوخ من الشاطىء الآخر من بحر الادرياتيك وكان له عدة جيوش في اسبانيا واليونان وافريقية شتت قيصر شملهم واحدًا بعد الآخر فهزم جيش اسبانيا سنة ٤٨ ثم جيش اليونان في فارسال سنة ٤٨ فجيش افريقية سنة ٤٦ ولما غلب بومبي في فارسال لجأ الى مصر فقتله ملكها .

حكم قيصر — ولما رجع قيصر الى رومية عهد اليه بالامر لمدة عشر سنين فصار الحاكم المطلق ثم حارب جيوش اشياع بومبي في افريقية وساد جميع البلاد الخاضعة للرومان واحتفل في رومية بظفره باربعة اعداء الغاليين والمصريين وملك بحر الخزر في آسيا الصغرى وملك النوميديين حليف البومبيين في افريقية (لم يكن من اللياقة بان يفاخر لتغلبه على جيش روماني) .

فقام مجلس الشيوخ لقيصر بالتشريفات الدينية فاعطاه اولا كرسيًا اعلى من مقاعد

القنادل ولقبه بالاول ثم خوله الحق ان يحمل تاجاً من الغار (وكان ذلك من حق الارباب) ومنحه لقب « ابو الوطن » وابتدع احتفالات والعاباً اكراماً له واقام له تمثالاً خطوا فيه الفاظ التعظيم وعهدوا الى الكهنة للاحتفال بعبادة رب يوليوس قيصر · ومن الممكن ان يكون قيصر طمع في لقب ملك ومع هذا دعا نفسه بالامبراطور وقبل بان يلبس ثوباً ارجوانياً وان يجلس على عرش من ذهب و يرسم خوذته على النقود ·

واحتفظ قيصر بمجلس الشيوخ وجميع المناصب وهو الذي كان يعين المرشحين الذين يقضى على الشعب انتخابهم وهو الذي وضع قائمة بمجلس الشيوخ وكان هلك كثيرون من الشيوخ فابلغ عدد الاعضاء الى تسعمائة ومعظمهم من انتخابه وكثيرون منهم من الغاليين ولم يقض في رومية غير خمسة عشر شهراً من حيث المجموع فما اتسع له الوقت ان يقوم بالاصلاحات التي كان ينويها (ما عدا تقويم السنين) ثم قتله ندماؤه الذين كانوا يرغبون في اعادة حكومة مجلس الشيوخ (٤٤)

احد الحكام الثلاثة — اضطر الشعب الروماني وكان يحب قيصر زعيمي قتلته وهما بروتوس وكاسيوس ان يهربا فتنحيا الى الشرق حيث جيشا جيشاً عظيماً وظلّ الغرب تحت حكم انطونيوس الذي اعتمد على جيش قيصر فحكم رومية حكماً استبدادياً

وكان قيصر تبنى ابن اخته اوكتاف وعمره ثماني عشرة سنة بوصية اوصى بها فسمي بحسب العادة الرومانية باسم متبنيه ودعا نفسه يوليوس قيصر الاوكتافي · فضم الى حزبه جند قيصر وعهد اليه مجلس الشيوخ ان يحارب انطونيوس وبعد ان تغلب عليه آثر الاشتراك معه لاقتسام السلطة فاتحدا مع ليبدوس ودخلا ثلاثتهم الى رومية واستولوا على الامر استيلاء مطلقاً مدة خمس سنين تحت اسم الحكام الثلاثة المعهود اليهم تنظيم المسائل العامة · وشرعوا في نفي خصومهم واعدائهم الخاصة (فامر انطونيوس بضرب عنق شيشرون) (٤٣) ثم ذهبوا الى الشرق لتشتيت جيوش المحالفين وبعد ذلك اقتسموا المملكة بينهم · ولم يدم الوفاق بينهم طويلاً بل قاتل بعضهم بعضاً في ايطاليا حتى توسط جندهم في الامر واضطروهم الى العودة لما كانوا عليه من الاتفاق ثم جرى تقسيم المملكة من جديد فاصبح انطونيوس ملك الشرق واوكتاف ملك الغرب (٣٩)

حرب الاكتيوم - دام السلم بضع سنين فاخذ انطونيوس يعيش عيش ملك شرقي مصاحباً اكلوبطرة ملكة مصر وشغل اوكتاف بقتال ابن بومبي الذي كان تحت امره اسطوله يخرب به شواطيء ايطاليا · وانتهت الحال بهذين الملكين بانقطاع علائقهما فنشبت آخر حرب بينهما وكانت حرباً بين الشرق والغرب تمت بحرب اكتيوم البحرية واسلم اسطول

كاوباطرة انطونيوس صاحبها فلجأ الى مصر وانتحر وبقي اوكتاف وحده صاحب المملكة المطلق (٢١) وكان قد انتهي امر حكومة مجلس الشيوخ ·

تقرير السلطة المطلقة — شكا الناس كلهم من هذه الحروب وكان سكان الولايات يؤخذون فداء ويسيء الجند معاملتهم ويقتلهم تقتيلاً يضطرهم كل فريق من الحكام ان ينحازوا اليه ويعاقبهم الغالب على انضمامهم الى المغلوب · وكان القواد يعدون الجند بان يكافئوهم باعطائهم اراضي يستغلونها فيطردون منها عامة سكان مدينة ليحل محلهم قدماء الاجناد · وكان اغنياء الرومان يخاطرون بثروتهم وحياتهم ومتى غلب حزبهم يصبحون العوبة في يد الغالب يتصرف فيهم بما يشاء · فقد وضع سيلا مثالاً من المذابح المدبرة (٨١) وبعد اربعين سنة (٤٣) جدد انطونيوس اوكتاف امر القتل بدون محاكمة

ولقد كان شعب رومية نفسه يشكو من سوء هذه الحالة فلا تصل الى رومية الحبوب التي هي مادة غذائه على طريقة مطردة بل كانت تقع في يد قرصان البحر او ينهبها اسطول العدو فبعد ان مضى قرن على طريقة هذا الحكم لم يعد للجميع من الروما وسكان الولايات والاغنياء والفقراء رغبة في غير السلام وعندها تقدم الى ذاك الشعب المنهوك بالفتن الاهلية وارث قيصر ابن اخته اوكتاف احد الحكام الثلاثة — تقدم اليهم بعد ان تغلب على رصيفيه قال المؤرخ تاسيت وقبض بيده على جميع سلطات الامة ومجلس الشيوخ والحكام · ولم تمض بضع سنين الا وقد اصبح سيداً على رومية وليس بعد هذا من لقب فلم يعد يفكر احد في مقاومته وقد اغلق معبد جانوس ونشر في العالم الوية السلام وهذا كان ما يطلبه العالم باجمعه وذلك لان حكومة الجمهورية بواسطة مجلس الشيوخ لم تكن تمثل غير النهب والحروب المدنية فكانت النفوس تطمع في رجل يكون من القوة بحيث يحول دون الحروب والثورات وعلى هذا الوجه أسست الامبراطورية الرومانية ·

اغسطس

تنظيم الحكومة الملكية — يقضي نظام الحكم الجديد الذي وضعه وريث قيصر ان يكون الحكم المطلق بيد رجل واحد يدعى الامبراطور اي الرجل المدبر الآمر وله الحق ان يتولى السلطات بأسرها التي كانت موزعة بين الحكام القدماء فيرأس مجلس الشيوخ ويجمع الجيوش كلها ويقودها ويضع قائمة باسماء اعضاء الشيوخ والفرسان والوجنيدير ويجبي الضرائب وهو القاضي الاكبر والحبر الاعظم وله سلطة القضاة · وليبان ان هذه السلطة قد جعلته رجلاً فوق الرجال من البشر لقبوه بلقب ديني وهو اغسطس او اغست ومعناه المحترم

لم تنتظم شؤون المملكة بثورة اتت على كل اصطلاح قديم ولم يبلغ اسم « جمهورية »

وانقضت ثلاثة قرون واعلام الجنود لا يزال يكتب عليها اربعة حروف من اول اربع كلمات S. P. Q. R. ومعناها مجلس الشيوخ والشعب الروماني ولكن اجتمعت السلطة التي كان يتقاسمها اشخاص كثيرون في يد واحد وبدلاً من ان يتولاها سنة فقط اصبح يتولاها طول حياته فالامبراطور هو الحاكم الفرد مدى حياته في الجمهورية وفيه يتجسد الشعب الروماني ولذلك كان مطلق التصرف .

مجلس الشيوخ والشعب — بقي مجلس الشيوخ الروماني على ما كان عليه قديماً مجلس اعيان الاغنياء واكثر الوجوه حرمة في المملكة فكانت عضوية المجلس تعد من الشرف المرغوب فيه فاذا ارادوا ان يقولوا الاسرة الفلانية كبيرة يقولون هي اسرة شيوخ ولكن مجلس الشيوخ على حرمته لم تعد له سلطة لانه لا يتأتى للامبراطور ان يستغني عنه ولم يبرح مع هذا اول قوة حاكمة في الحكومة وان لم يكن المسيطر عليها وكان يتظاهر الامبراطور احياناً بانه يريد اخذ رأيه ولكنه لا يعمل بمشوراته .

فقد الشعب كل سلطة اذ ألغيت مجالسه منذ عهد تيبر . واصبح جمهور الامة المزدحم في رومية لا يتألف الا من بضعة الوف من كبار السادة مع عبيدهم ومن خليط من الشحاذين وكانت الحكومة قد تعهدت باطعامهم ودام الامبراطرة يوزعون عليهم الحنطة ويرضخون لهم بشيء من النقود فاعطى اغسطس سبعمائة فرنك عن كل رأس تسع مرات واعطى نيرون ٢٥٠ فرنكاً ثلاث مرات عن كل رأس .

ثم ان الحكومة كانت تقيم مشاهد لتسلية هذا الغوغاء . وكان عدد المشاهد النظامية ٦٦ يوماً في السنة على عهد الجمهورية فبلغت بعد قرن ونصف على عهد مارك اوريل ١٣٥ يوماً وفي القرن الخامس وصلت الى ١٧٥ يوماً دع عنك الايام الاضافية

وتدوم هذه المشاهد منذ شروق الشمس الى غروبها فيتناول المتفرجون طعامهم في الساحات . وهذا ما كان الامبراطرة يتخذون منه طريقة امينة لاشغال العامة . قال احد الممثلين لاغسطس : لفائدتك ياقيصر يعتني الشعب بنا . بل كانت هذه المشاهد واسطة لاستمالة قلوب الامة للامبراطور فكثيراً ما كان اقبح الامبراطرة اكثرهم حظوة عند العامة فكان نيرون الظالم يعبد لانه قام بالعاب لطيفة فلم يصدق العامة بانه مات . وكان ينتظر قدومه بعد ثلاثين سنة من موته .

وما كان العامة في رومية يبحثون عن تولي الامور بل غاية ما تطال اليهم نفوسهم ان يتسلوا او يأكلوا كما قال جوفينال في عبارة له شديدة : « خبز والعاب الميدان »

التأليه — الامبراطور وحده سيد المملكة ما دام حياً لان الشعب الروماني يتخلى له

عن كل سلطة ومتى مات يبحث مجلس الشيوخ فيما اتاه في حياته ويحاكمه باسم الشعب فاذا حكم عليه تبطل جميع اعماله وتحطم تماثيله ويمحى اسمه من المصانع والآثار (١) واذا اقر على اعماله (وهو ما يحدث غالبًا) يقرر مجلس الشيوخ بان الامبراطور مات وقد ارتقى الى مصاف الارباب ·

وقد غدا معظم الاباطرة اربابًا بعد موتهم على هذه الصورة فكانت تقام لهم معابد وعهد الى كاهن ان يقيم لهم الشعائر الدينية وقد كان في جميع اجزاء المملكة معابد رسمت باسم الرب اغسطس والربة رومية واشتهر عن اشخاص انهم قاموا بوظائف كاهن للآلهي كاود وللآلهي فنزبازين وهذه العادة في تأليه الامبراطور المتوفى كانت تسمى « التأليه » والكلمة يونانية وانتقلت عادتها من يونان الشرق على ما يظهر

ادارة الولايات — كان ثلثمائة او اربعمائة أسرة شريفة في رومية تحكم البلاد وتستثمر باقي المعمور منذ الفتح الروماني فجاء الامبراطور ينزع منهم الحكومة ويخضعهم لسلطان ظلمه · حتى اصبح كتاب الرومان يئنون من فقد حريتهم المسلوبة ولم يكن لسكان الولايات ما يأسفون عليه بل ظلوا رعايا ولكن بدلاً من ان يرأسهم عدة مئات من الرؤساء يتناوبون الحكومة على الدوام ويجيئونهم نهمين للغنى اصبح لهم رئيس واحد وهو الامبراطور يهتم بالنظر في امرهم · ولقد اوجز تيبر السياسة الامبراطورية بما يأتي « الراعي الصالح يجز صوف غنمه ولا ينتفه » فمضى زهاء قرنين وقد اكتفى الاباطرة بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيرًا من الاموال ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجي بل من عمالهم انفسهم · وعند ما كان سكان الولايات يشكون من الفظائع ومن سرقات حكامهم كانوا يستعدون الامبراطور فيعديهم · وكان من المعروف عند القوم ان الامبراطور يقبل الشكوى على ضباطه وهذا كان يكفي لادخال الرعب على قلوب الولاة الفاسدين وادخال الطمأنينة على رعاياهم

الولايات كلها ملك للامبراطور (٢) لانه يمثل الشعب الروماني فهو قائد جميع الجنود وسيد الناس طرًا ومالك الاراضي كافة (قال الفقيه كايوس ليس لنا في اراضي الولايات الا التمتع بها والامبراطور وحده مالك لها) واذ كان من المتعذر ان ينصب الامبراطور في كل ولاية عنه الوكلاء الذين يختارهم بنفسه يرسل الى كل ولاية بضابط (يسمونه مندوب اغسطس لتولي وظيفة القضاء) وهذا المندوب يحكم البلاد ويقود الجيش ويطوف في

---

(١) عثر على كتابات محي منها اسم دومنيسين على هذه الصورة

(٢) ترك اغسطس لمجلس الشيوخ بعض ولايات من اقل ولاياته منزلة ولكن ظل فيها حاكمًا متحكمًا مثل ولاياته الخاصة كأنه صاحبها

ولايته لينفض المصالح المهمة و بيده الحياة والموت كالامبراطور . و يبعث الامبراطور ايضا بمحافظ لجبي الخراج وادخال المال في صندوق الامبراطور (ويسمونه نائب اغسطس)

فالضابط والمحافظ يمثلان الامبراطور ويحكمان على رعاياه و يقودان جنده و يثبتان ملكيته . و يختارهم الامبراطور ابداً من الطبقتين الشريفتين في رومية يختار الضباط من مجلس الشيوخ والمحافظين من الفرسان ولهؤلاء العمال مراتب للتشريف على نحو ما كان الحكام في رومية القديمة يتدرجون من ولاية الى اخرى ذاهبين من طرف المملكة الى طرفها (١) فمن سورية الى اسبانيا ومن انكلترا الى افريقية . وانك لتقرأ في الكتابات المكتوبة على قبور رجال ذلك العهد جميع المناصب التي شغلوها مبينة احسن بيان . وكتابة قبورهم تكفي لبيان تراجمهم وما تولد من اعمالهم

الحياة البلدية - وكان تحت هؤلاء العمال الكبار الذين يمثلون الامبراطور وهم لا يسألون عما يفعلون اناس من العامة الخاضعين يديرون شؤون انفسهم بانفسهم وللامبراطور الحق في ان يتداخل في شؤونهم الداخلية الا انه لا يسيء في العادة استعمال هذا الحق . فيطلب اليهم فقط ان لا يحاربوا وان يدفعوا على وتيرة واحدة ما يفرض عليهم من الاموال وان يحاكموا امام محكمة الوالي . وكان في كل ولاية كثير من الحكام المحكومين و يسمون اهل المدينة او البلديون ومن هنا جاءت كلمة الحكم البلدي والمجلس البلدي

تجري كل مدينة خاضعة للامبراطورية في ترتيباتها على مثال رومية نفسها فيكون لها مجلس الشعب وتنتخب حكامها لسنة و يقسمون الى فرق في كل فرقة عضوان ومجلس الشيوخ مؤلف من كبار ارباب الاملاك والاغنياء وارباب الاسر القديمة وفي الولايات كما في رومية لا يكون لمجلس الامة الا صورة والحكم لمجلس الشيوخ اي للاشراف

من العادة ان يكون مقر الولاية مدينة اي مثل مدينة رومية مصغرة ولها معابدها واقواس نصرها وحماماتها العامة واحواضها ودور تمثيلها وميادين قتالها والعيشة فيها عيشة مصغرة من عيش رومية فتوزع الحنطة والدراهم على الفقراء وتولم الولائم العامة وتقام الحفلات الدينية الكبرى والالعاب الدموية . الا ان رومية تقوم بما يجب لذلك من النفقات تأخذه من مال الولايات اما في الولايات فان الاشراف يقومون بالانفاق على حكومتهم واعيادها . والخراج الذي يجبى لحساب الامبراطور يحمل كله اليه ولذلك

---

(١) قال الفيلسوف ابيكيت لا يقدر كبار الرجال ان يتأصلوا في الارض كالنباتات بل عليهم ان يسيحوا كثيرا لاطاعة اوامر الامبراطور

يقضى على اغنياء كل مدينة ان يقوموا بما يقتضي من النفقات للاحتفال بالالعاب واحماء الحمامات وتبليط الشوارع وبناء الجسور والمجاري والساحات . قاموا بذلك مدة تزيد عن قرنين واتفقوا عن سعة شهدت بذلك المصانع المثبتة في ارض المملكة وأُلوف من المكتوبات على الاحجار

المستعمرات — تقيم رومية في البلاد التي تشك في خضوعها لها جيشاً صغيراً تسكنه فيها فيبني مدينة تكون حصنا حصيناوتبعث اليه بأُناس من الوطنيين الرومانيين يكونون جندا وفلاحين في آن واحد ويجزيء الجيش الاراضي المجاورة الى حصص متساوية توزعها عليهم وهذا ما يسمونه مستعمرة

ويبقى المستعمرون وطنيين رومانيين ويخضعون لجميع ما تأمر به رومية . وتختلف المستعمرة الرومانية عن المستعمرة اليونانية — التي كانت كثيرا ما تشق عصا الطاعة حتى انها تحارب آثينة نفسها — بان تكون ابدا ابنة خاضعة لامها فليست المستعمرة الا حامية رومانية مرابطة بين الاعداء . وكانت اكثر هذه المحطات العسكرية في ايطاليا ولكن كان منها في مكان آخر مثل مستعمرة فاربون وليون وآرل فانها كانت مستعمرات رومانية .

جيش التخوم — لم يكن في المدن الداخلية جيش روماني لان سكان المملكة لا يرون الانتقاض على الحكومة فلم يكن للمملكة اعداء الا على الحدود وكان الاجانب ابداً على استعداد من مهاجمتها فالجرمان وراء نهري الرين والطونة ورحالة الصحراء وراء رمال افريقية ووراء الفرات جيوش المملكة الفارسية

ولذا كان من اللازم اللازب اقامة جند يكون على قدم الاستعداد على تلك التخوم المعرضة ابداً للتهديد . ادرك اغسطس ذلك فانشأ جيشا دائما فلم يكن جنود الامبراطورية من اصحاب الاراضي يؤخذون من حقولهم ليخدموا في الجندية بعض حملات بل كانوا اناسا من الفقراء جعلوا الحرب صناعة لهم فيدخلون الجندية ليخدموا فيها ست عشرة سنة اوعشرين سنة وربما جددوا هذه المدة

وعلى هذا كان للامبراطورية في رومية ثلاثون فرقة من الوطنيين اي ١٨٠ الفا ولهم بموجب العادة الرومانية مساعدون فيبلغ مجموعهم نحو ٤٠٠ الف رجل على التقريب وكان هذا الجيش قليلا بالنسبة لعظم تلك المملكة

ولكل ولاية على الحدود جيش صغير بعيد في معسكر دائم يشبه قلعة يجيء الباعة ينزلون بقربها فلا يعتم المعسكر ان يصبح مدينة وهكذا يعسكر الجند بازاء العدو فيحفظون

شجاعتهم ودربتهم . مضت ثلاثة قرون والجند الروماني يدخل في كل حرب زبون مع البرابرة المتوحشين ولا سيما على ضفاف الرين والطونة في بلاد ندية قاحلة مغشاة بالغابات والمستنقعات . وربما بذل الجند الروماني في هذه الحروب التي لانتيجة لها من الشجاعة والشهامة اكثر مما بذل قدماء اليونان فى فتح العالم

الآداب — لم يكن الرومان بالطبع امة فنون وقد أصبحوا كذلك فيما بعد مقتفين فيها أثر اليونان . فمن يونان أخذوا نموذجاً من فاجعاتهم وقصصهم الهزلية وملاحمهم واناشيدهم وأشعارهم الفلسفية والعامية والتاريخية . واقتصر بعضهم على ترجمة الاصل اليوناني (كما فعل هوراس في أناشيده) وكلهم اقتبسوا من اليونان افكارهم ومناحيهم ومزجوها عند ما احتذوا مثالها بما عرف فيهم من صفات الصبر والشهامة حتى صارت بعض آثارهم غريبة الغرائب في أسلوبها

واتفق الرومان على ان العهد الذي أزهرت فيه الآداب اللاتينية حقيقة كانت الخمسين سنة التي قضاها اغسطس في الحكومة فهو الوقت الذي نبغ فيه فرجيل وهوراس واوفيد وتيبول وبروبرس وتيت ليف ولكن عصر اغسطس (كما يسمونه) قد سبقه ولحقه قرنان ربما عادلاه في اخراج النوابغ ففي الجيل الاول (القرن الاول قبل المسيح) اظهر الشاعر الغريب المدهش لوكريس وقيصر رانير ناثر وشيشرون اخطب خطيب وفي الجيل اللاحق كتب سينيك ولوكين وتاسيت وبلين وجوفنال ما كتبوا

وبعض هؤلاء المؤلفين العظماء فقط من أسرة رومانية ومعظمهم ايطاليون وكثيرون من الولايات مثل فرجيل من مانتو وتيت ليف من بادو (في غاليا) وسينيك اسباني . وكأن الفصاحة هي الفن الوطني حقاً في رومية فكان الرومان كالطليان في ايامنا يحبون الكلام علناً . وكان الخطباء يأتون الى ساحات الاجتماع حيث تلتئم مجالس الامة في أواخر عهد الجمهورية يخطبون ويكثرون من الحركات وسط دوي القوم وشيشرون اعظم أولئك الخطباء وهو الوحيد الذي بقيت بعض قطع من خطبه

ولما سقطت الجمهورية انقضت أيام المجالس ففقدت الفصاحة لقلة المادة

اللغة اللاتينية — انتفعت آداب اللغة اللاتينية بفتوحات رومية فنقلها الرومان مع لغتهم الى رعاياهم المتوحشين في الغرب فتناسى جميع شعوب ايطاليا وغاليا واسبانيا وافريقية وضفاف الطونة لغاتهم الخاصة وتعلموا اللغة اللاتينية . ولما لم يكن لهم آداب وطنية خاصة اقتبسوا آداب حاكميهم فتكلم اهل الامبراطورية اذ ذاك بلغتي الشعبين الكبيرين القديمين فظل الشرق يتكلم باليونانية واخذ الغرب باجمعه يتكلم باللغة اللاتينية

فلم تكن اللاتينية اللغة الرسمية للوطنيين وكبار الرجال فقط كما هي الانكليزية لعهدنا في الهند بل ان الامة نفسها تتكلم بها ما امكن من الصحة بحيث ان القوم في اوربا بعد انقضاء ثمانية عشر قرناً مابرحوا يتكلمون الى اليوم بخمس لغات مشتقة من اللاتينية وهي الايطالية والاسبانية والبرتغالية والفرنسوية والرومانية

وانتشرت الآداب اللاتينية مع اللغة اللاتينية في عامة انحاء الغرب فما كانت تدرس في القرن الرابع في مدارس بوردو واوتون غير شعراء اللاتين وخطبائهم وظل الاساقفة والقسيسون بعد هجوم البرابرة يكتبون باللغة اللاتينية ونقلوا هذه العادة ايضاً الى شعوب انكلترا والمانيا الذين احتفظوا بلغتهم الجرمانية . فباللاتينية كتبت في القرون الوسطى السجلات والعقود والشرائع والتواريخ والكتب العلمية . وفي الاديار والمدارس لا تقرأ ولا تنسخ ولا تعتبر غير الكتب اللاتينية وما عدا كتب العبادة لم يعرف غير مؤلفي اللاتين امثال فرجيل وهوراس وشيشرون وبلين لجون وما كانت النهضة العصرية الاوربية الا عبارة عن احياء مافقد من آثار اقلام كتاب اللاتين واصبح النسج على منوالهم اكثر من ذي قبل . فكما ان الرومان انشؤا لانفسهم آداباً خاصة لتقليدهم اليونان هكذا صار المحدثون من الاوربيين ينسجون على مثال كتاب اللاتين . وليت شعرى هل عاد ذلك بخير ام بشر ؟ ومن يجرأ ان يفوه بذلك ؟ فما لاجدال فيه اذاً ان لغاتنا الرومانية الاصل هي بنات اللاتينية وان آدابنا طافحة بالافكار والمنازع الادبية الرومانية وان العالم الغربي باسره مصبوغ بصبغة الآداب اللاتينية .

الصناعات ــ عثر الباحثون بكثرة على تماثيل وصور بارزة رومانية ابقتها الايام من عهد تلك الحكومة منها مانقل عن الآثار المصرية ويكاد يكون معظمها تقليداً لها ولكنها اقل من الاصل لطفاً وذوقاً . ومن اغرب الانموذجات الباقية النقوش البارزة والصور النصفية

فالنقوش البارزة كانت تزدان بها المصانع (كالمعابد والعمد واقواس النصر) والقبور والنواويس تمثل بها احسن تمثيل مشاهد حقيقية وحفلات ونذوراً وحروباً وما تم وكل مايحيطنا علماً بالحياة السالفة . وان النقوش البارزة التي جعلت حول اعمدة تراجان ومارك اوريل لتجعلنا كأننا نشاهد مشاهد حرب بها العظيمة وبتلك الرسوم تمثل لك الجنود تقاتل البرابرة ويحاصرون قلاعهم ويأتون بالاسرى كما تشاهد النذور العامة والامبراطور يخاطب شعبه

والصور النصفية هي في الاكثر صور الامبراطرة ونسائهم واولادهم واذ كثرت تماثيلهم في اطراف المملكة باسرها عثر على كثير منها . حتى ان عند جميع المتاحف اليوم مجموعة من الصور النصفية الامبراطورية وهي صور حقيقية وربما كانت شبيهة باصحابها كل

الشبه اذ نرى فيها سيماء كل امبراطور واضحة اي وضوح وكثيرًا ماتكون بشعة مستكرهة بحيث لم يحاول النقاشون ان يزينوها ويخفوا من سحنات المصوَّرين

فعلم البناء هو الفن الروماني الحقيقي لانه يقوم بحاجة عملية وفيه ايضًا قلد الرومان اليونان باتخاذ الاروقة والعمد ولكن كانت لهم طريقة لايستعملها اليونان وهي العقود (الاقبية) اي فن وضع الاحجار المنحوتة تدعم بعضها بعضًا على شكل قوس مربع . فبالعقود تسنى لهم ان ينشئوا ابنية اوسع واكثر تفننًا من ابنية اليونان

المصانع — اليك اهم انواع المصانع الرومانية منها «المعبد» وهو كثيرًا مايشبه المعبد اليوناني وله دهليز متسع ويكون احيانا اكثر سعة تعلوه قبة . ومن هذا النوع معبد البانثيون الذي بني في رومية على عهد اغسطس . ومنها « الكنيسة الكبرى » وهي بناء مستطيل طويل يعلوه سقف وتحيط بها اروقة وفيها ينصدر الحاكم يحيط به نوابه وفيها يجتمع التجار ليتجادلوا في ثمن البضائع فالكنيسة هي « بورصة » ومحكمة معًا . وفي الكنائس الكبرى اقيمت بعد ذلك مجالس المسيحيين وظلت الكنائس النصرانية قرونًا محتفظة باسماء الكنائس الرومانية واشكالها

ومنها المرازح (المراسح) ذات الدرجات «انفثياتر» والملعب وهي مؤلفة من عدة طبقات واروقة وضعت بعضها فوق بعض تحيط بالملعب وكل طبقة من هذه الاروقة يعلوه عدة صفوف من الدرجات وذلك مثل الكوليزة في رومية وميادين ارل ونيم . ومنها قوس النصر وهو باب شرف له بعض سعة بحيث يكفي لمرور مركبة منه وهو مزين بعمد ومزخرف بنقوش كثيرة ومن هذا النوع قوس النصر في اورانج . ومنها الجسر وهو يبنى على صف من الحنايا وسط النهر . ومنها المجاري التي تجلب فيها المياه وكثيرًا ماتكون على شكل جسر اثر فوق دار ومن هذا الضرب من المجاري القطعة من الجسر المسماة كارد

وقد كان الامبراطور اغسطس يفاخر بانه افتتح في رومية زهاء ثمانين معبدًا قال : « لقد وجدت مدينة من القرميد وهاءنذا اترك مدينة من الرخام » وعمل اخلافه كلهم على زخرفة رومية وقد ازدحمت المصانع حوالى الفوروم (الميدان) خاصة واصبح الكابتول مع معبده المعروف بمعبد المشتري اشبه شيء بالاكروبول في آثينة . وفي ذاك الحي ايضًا انشؤا عدة ساحات ذات مصانع مثل ساحة قيصر وساحة اغسطس وساحة نرفنا وساحة تراجان وهي ازهاهن

استخدم الرومان (١) في ابنيتهم الحجارة التي وقعت تحت ايديهم في البلاد يرصفونها ببلاط

---

(١) لاينبغي ان يغرب عن الاذهان ان الصناعات الرومانية هي كالآداب الرومانية

متين صنع بالكلس والرمل بحيث اتت عليه الف وثمانمائة سنة وهو لم يتحتت بما اصابه من الرطوبة · ولا نقرأ في مصانع الرومان تلك البهجة التي تتجلى على المصانع اليونانية بلى انها متسعة متينة راسخة القواعد شأن الفتح الروماني · وما زالت ارض البلاد الى يومنا هذا طافحة بانقاض تلك المصانع ولم يبرح الباحثون يعثرون حتى في قفار افريقية والدهشة آخذة منهم على مصانع رومانية محفوظة سالمة · ولما أريد جلب الماء الى تونس لم يعملوا الاّ ان اصلحوا مجرى النهر الذي أنشيء في العهد الروماني ·

التجارة — اصبحت رومية اعظم مدينة في العالم (ويذهبون الى انه جاء عليها زمن كان فيها مليون نسمة) فكانت بالطبع مركز تجارة المملكة · ولقد مضت العصور القديمة والمتاجر تنقل في الماء اي في البحار وفي الانهار اكثر من الطرق التي يقتضي لها مجلات ثقيلة لنقل تلك المتاجر · فكانت المتاجر تنقل الى رومية من طريق البحر خاصة فتنقلها السفن الى مرفإ اوستي عند مصب نهر التيبر ومنها توسق في قوارب تصعد النهر حتى تصل الى سفح جبل افنتين وتنزل شحنها في مرفإ رومية · وكانت البضائع الخاصة ببقية ايطاليا تفرغ في مرفإ بوزول في خليج نابولي ومن هناك يرسلونها في الطرق واذا تيسر لهم يرسلونها في قوارب تسير على الشاطيء او تجري صعداً في الانهار تجرها الخيول

وكانت رومية وايطاليا تصرفان اكثر مما تنتجان فتجارتهما خاصة تجارة واردات وكان تجار من الطليان ينزلون في اهم مرافيء العالم يجمعون فيها حاصلات كل بلد ليبعثوا بها الى رومية · وكنت تجد في كل بلد مركزاً للتجارة مثل بلرمة في صقلية وقرطاجنة في افريقية والاسكندرية في مصر ومن هذه البلاد كانت تجلب الى رومية الحبوب والزيت والفاكهة والبقول الناشفة ومن المراكز التجارية افيز في آسيا الصغرى وانطاكية في سورية ومنها كانوا يرسلون الاصواف والاقمشة والحنطة التي تخرجها البلاد الداخلية · ومن هذه المراكز اولبيا على شاطيء البحر الاسود واليها كانت تأتي حنطة روسيا · ومنها قادش في اسبانيا كانت ترسل الى رومية فضة المناجم واو بار بتنكيا (في الاندلس) ومن هذه المراكز نار بون وارل في غاليا كان يجلب اليهما في نهر الرون جلود بلاد الغال واخشابها (اما مارسيليا فكانت سقطت منزلتها القديمة ومرسى فريجوس اصبح ميناً حربيّة) ·

وكان الرومانيون يجلبون ايضاً بضائع من خارج فيبعث اليهم الشرق بادوات الزينة والرفاهية كالعطور والابازير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل) والنيلة والعاج والاحجار

لم تنشأ بيد صناع من الرومان بل بيد اناس من سكان الولايات ربما كانوا من العبيد ولم يكن ثمت روماني الا الرجل الذي يعملون له اعمالهم

الكريمة واقمشة الصوف والحرير والعبيد السود والحيوانات النادرة (ولاسيما القرود) فكانت تجلب الى الاسكندرية من طريق البحر الاحمر او في النيل وتأتي الى انطاكية من طريق الخليج الفارسي و بادية الشام (مع القوافل) والى اوليبا من طريق بلاد فارس و بحر الخزر وكان الرومان يستخرجون من بلاد الشمال المواد التي لم تهذبها يد الصناعة مثل عنبر البلطيق وقصدير انكلترا وكان يأتي من طريق غاليا الجلود والاديم والشمع وشعور النساء والعبيد

أغسطس — مات أغسطس ولم يخلف ولداً يرثه مباشرة فخلفه ابن زوجته تيبر وهو الذي تبناه ومضى نصف قرن والامبراطور ابداً رجل من أسرة اغسطس وادرك الرومان منذ ذاك فساد هذه الطريقة

فكان للامبراطور مدة حياته سلطة متناهية لاحد لها فهو الحاكم على هواه في الاشخاص والاموال يحكم بالقتل و يصادر الاموال و يهلك من يريد اهلاكه بدون رقيب لا يقف امام ارادته حاجز من نظام ولا قانون . حتى قال المشرعون الرومان : ان لامر الامبراطور قوة القانون . و بذلك عرفت رومية الاستبداد الذي لانهاية له على نحو الاستبداد الذي كان يجري في المدن اليونانية استبداد لم ينحصر في سور ضيق من مدينة بل كان عظيماً كالمملكة . فكما كان في يونان ظالمون أهل حشمة ووقار كان في رومية امبراطرة حكماء محتشمون ولكن قل في هؤلاء من لم يستهوهم دوار السلطة عند مايرون انهم بلغوا ارقى رتبة يصل اليها انسان . ومن امبراطرة رومية من لم يستخدموا سلطتهم التي لم يسمع بمثلها الا لترسل اسماؤهم كالامثال فضرب المثل بنيرون وظلمه و بكلود خليفة تيبر وسخافته وكاليجولا وجنونه المطبق وتقليده حصانه رتبة قنصل وتطاوله الى ان يعبد كالارباب . فكان الامبراطرة يضطهدون الاشراف خاصة يحولوهم عن كيد المكايد و يضغطون على الاغنياء ليصادروا أموالهم

وكانت هذه السلطة المتناهية سيئة النظام وهي تتمثل كلها في شخص الامبراطور ومتى هلك يبحث فيما اتاه من الاعمال . كان القوم عارفين بان العالم لا يستغني عن سيد ولكن ليس في شريعة ولا عادة مايستدل به على ماهية ذاك السيد . فكان من حق مجلس الشيوخ وحده ان يعين الامبراطور ولكنه يختار ابداً بالقوة من اختاره الامبراطور السالف أو رضي عنه الجند . ولقد عثر حراس القصر الامبراطوري بينما كانوا يبحثون فيه عقيب وفاة الامبراطور كاليجولا على رجل اختبأ وراء الفرش وهو ترتعد فرائصه فرأوا انه من انسباء كاليجولا فعينه الحرس امبراطوراً وكان هو الامبراطور كلود

الحرس الامبراطوري — كان يحظر زمن الجمهورية على القائد ان يأتي في جيشه الى المدينة فاصبح الامبراطور رئيس الجيوش كلها وله في رومية حرس عسكري مؤلف من نحو

عشرة آلاف رجل أقاموا منذ عهد تيبر في ثكنة حصينة بالقرب من المدينة . وينتخب هذا الحرس من قدماء الاجناد وتدر عليه الرواتب الكثيرة وتتوالى عليه الاحسانات وبهؤلاء الجنود يعتز الامبراطور فلا يخاف بائقة تصيبه من الناقمين عليه من أهل رومية بيدان الخطر كان يأتي من الحرس نفسه واذ كانت القوة معهم اعتقدوا بانه يحل لهم ان يأتوا كل شيء وكان زعيمهم أوسع سلطة من الامبراطور

الثورات والحروب — استشاط أشراف الرومان غضباً مما أتاه نيرون من الفظائع وضروب الجنون فحدا تخطهم ببعض الولاة الى الانتقاض وخلع الطاعة فشعر اذ ذاك مجلس الشيوخ بقوة يستند اليها فأعلن بان نيرون عدو عام فلم يسعه الا الهرب ثم الانتحار .

وبعد موته (٦٨) وقع اختيار مجلس الشيوخ على والي اسبانيا المدعو غالبا فعينوه امبراطوراً ولكن الحرس الامبراطوري لم يره كريماً جواداً فذبحه ونصب مكانه أحد ندماء نيرون واسمه أتون . ثم ان الجنود المرابطة في تخوم جرمانيا ارادت ان تنصب بنفسها امبراطوراً فدخلت فرق نهر الرين الى ايطاليا فصادفوا الحرس الامبراطوري بالقرب من كريمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة في وقعة شعواء أخذت بطرفي الليل ثم نصبوا الامبراطور الذي اختاره مجلس الشيوخ وهذا القائد فيتليوس

وفي ذاك الحين انتخب جيش سورية زعيمه فسباسين الذي قاتل فيتليوس وعين مكانه (٦٩) وهكذا نصبت رومية ثلاثة امبراطرة في سنتين وأنزل الجند ثلاثة امبراطرة عن عروشهم . وفي خلال هذه الحروب نهب جنود جرمانيا مدينة وحرق معبد الكابتول .

الفلافيون — نُصب فسباسين امبراطوراً فوطد أركان السلم وكان ايطالياً وهو حفيد أحد الفلاحين حافظ على عادات له في الاقتصاد والسذاجة في عيشه . فرأى القسم الاعظم من مجلس الشيوخ قد تمزق شملهم والأسرات القديمة قد بادت أو هلكت فاستعاض عنها بأسرات ايطالية أو من اهل الولايات ولما تجدد مجلس الشيوخ على هذه الصورة كف عن ابداء العداء للامبراطور فخلف فسباسين أولاً (٧٩) ابنه تيتوس الذي مات للحال ثم ابنه دومنسين (٨١) الذي كان قاسيا غداراً مثل ظلمة اليونان

الانطونيون — اشتهر الخمسة الامبراطرة الآتون وهم نرفا وترا جان وادريان وانطونين ومارك أورل (٩٦ — ١٨٠) بالحشمة والحكمة ويدعونهم الانطونيين (وهذا الاسم لا يوافق في الحقيقة الا الآخرين منهم) ولم يكونوا من نسل البيوت القديمة في رومية بل كان تراجان وادرين اسبانيين وولد انطونين في نيم ولم يكونوا أمراء من أسرات امبراطورية خلقت لتولي رقاب الناس منذ ولادتها . وقد تولى الحكم اربعة امبراطرة وهم عقيمون فلم

يتسنّ نقل الحكم بالوراثة . وكان الامبراطور يختار كل مرة من قواده وولاته أقدر رجل يخلفه و يتبناه و يعينه باختيار مجلس الشيوخ له وهكذا لم يبلغ عرش الامبراطورية الا اناس محنكون يخلفون آباءهم في مركزهم بدون قال وقيل .

ولقد كان عصر الانطونيين اهدأ العصور التي عرفها العالم القديم والحروب تنشب بعيدة عن تخوم المملكة ولم يحدث في الداخلية شغب عسكري بتاتًا ولا مظلمة ولا أحكام جائرة . فكبح الانطونيون جماح الجند بتدريبهم على النظام ونظموا الحاكم ومجلس الامبراطورية وهو مؤلف من الفقهاء والمشرعين واستعاضوا عمن حرروهم من العبيد الذين طالما سخط الرومانيون عليهم على عهد الاثني عشر قيصراً باناس من الموظفين النظاميين اختاروهم من أشراف الطبقة الثانية (يعني الفرسان) وما عاد الامبراطور ظالما يخدمه جند بل كان حقًا الحاكم الاول في الجمهورية لا يستعمل سلطته الا لما فيه نفع شعبه .

حارب الانطونيون حروبًا كثيرة ليدفعوا الشعوب المحاربة التي كانت تحاول مهاجمة الامبراطور من ناحيتين . فحاربوا في أسفل نهر الطونة الداسيين وهم شعب بربري سكن البلاد الجبلية ذات الغابات التي نسميها الآن ترانسلفانيا كما حاربوا على الفرات حكومة البارثيين العسكرية الكبرى التي كانت جعلت المدائن عاصمتها قرب بابل وكانت مملكتهم تمتد على طول بلاد فارس .

ولقد حمل تراجان على الداسيين عدة حملات واجتاز الطونة وربح في ثلاثة مواقع واستولى على عاصمة ملك الداسيين (١٠١ — ١٠٢) وتفضل عليهم بالصلح ولما عاود الداسيون الحرب عمد تراجان ان يأتي عليهم فانشأ على نهر الطونة جسراً من حجر وهاجم ولايتهم فضمها الى المملكة الرومانية (١٠٦)وأنزل فيها طواريء ومستعمرين أنشؤا فيها مدنا وأصبحت ولاية داسيا بلاداً رومانية تكلم اهلها باللاتينية وتخلقوا بالاخلاق الرومانية .

ولما انجلت الجيوش الرومانية في اواخر القرن الثالث كانت قد استحكمت اللغة اللاتينية من الداسيين وظلت شائعة في بلادهم خلال القرون الوسطى على الرغم من غارات برابرة الصقالبة . وقد اطلق على الشعب الذي يسكن اليوم السهول في شمالي الدانوب اسم رومية فيدعى الروماني ويتكلم بلغة مشتقة من اللاتينية كالافرنسية والاسبانية

حارب تراجان البارثيين ايضًا فجاز الفرات واستولى على « المدائن » وهي عاصمتهم وتوغل في احشاء البلاد الى فارس ودخل الى سوس واخذ منها عرش ملوك فارس المعمول من الذهب الاصم . وانشأ اسطولاً على دجلة ونزل في النهر حتى مصبه وابحر في خليج فارس

واستخلص من البارثيين البلاد الواقعة بين بلاد الفرات ودجلة وجعلها ولايتين رومانيتين بيد ان هاتين الولايتين انتقضتا بعد سفر الجيش الروماني ·

اما الانطونيان الاخيران وهما انطونين ومارك اوريل فقد شرفا الامبراطورية بفضائلها وكان كلاهما يعيش ببساطة كما يعيش الافراد على غناهما دون ان يكون لهما مايشبه قصراً او سراياً وان يشعرا بانه كانت لهما سلطة وسيادة

ولقد لقب مارك اوريل على العرش بالحكيم وكان يحكم البلاد مدفوعاً بعامل الواجب على غير ارادته ومع انه كان يؤثر العزلة قضى حياته في الحكم وقيادة الجيوش · وانك لترى فيما خطه في تذكرته البيتية من افكاره صورة الفيلسوف الرواقي الصالح الزاهد العازف عن العالم وهو على جانب من اللطف والحلم قال: « أحسن الاساليب في الانتقام من الاشقياء هو ان لا يعمل المرء عملهم والارباب انفسهم يعطفون على الاشقياء فلك ان تقتدي بالارباب »

ولقد كان مارك اوريل يأخذ برأي مجلس الشيوخ في عامة المسائل ويحضر جلساته بدون انقطاع · ولقد وقف في وجه كثير من الشعوب البربرية الجرمانية يرد غاراتها ويدفع عادياتها تلك القبائل التي اجتازت الطونة على الجليد ودخل الى شمالي ايطاليا واقتضى له ان يؤلف جيشاً فجند عبيداً وبرابرة (١٧٢) فانسحب الجرمانيون ولكن بينا كان مارك اوريل مشغولاً في سورية بقتال أحد القواد المتمردين عادوا على اعقابهم وهاجموا الامبراطورية ومات مارك اوريل على ضفاف الطونة (١٨٠)

ولما وقفت الفتوح (بعد تراجان) كانت الامبراطورية تمتد على طول جنوبي اوربا كلها وعلى طول الشمال من افريقية والغرب من آسيا ولا يقف في سبيلها الا الحدود الطبيعية فمن الغرب البحر المحيط ومن الشمال جبال ايكوسيا ونهر الرين والطونة وقافقاسيا ومن الشرق بوادي الفرات وبلاد العرب ومن الجنوب شلالات النيل والصحراء الكبيرة · فكانت الامبراطورية الرومانية عبارة عن البلاد التي تتألف منها اليوم كل من انكلترا واسبانيا وايطاليا وفرنسا والبلجيك وسويسرا وبافيرا والنمسا والمجر والبلاد العثمانية في أوربا ومراكش والجزائر وتونس ومصر وسورية وفلسطين والاناضول أي انها ضعفا مملكة الاسكندر ·

السلم الروماني — ابطل الرومان الحروب في داخلية بلادهم باخضاع جميع الشعوب لسلطانهم · فتوطد السلم الروماني الذي وصفه احد كتاب اليونان بما يأتي: « لكل فرد ان يذهب حيث شاء فالمرافىء غاصة بالسفن والجبال أمينة على سالكيها أمن المدن لساكنيها

ولم يبق داع للخوف وقد طرحت الارض سلاحها الحديدي القديم وتجلت في ثياب الاعياد · وها انتم أولاء قد حققتم قول هوميروس بان الارض ملك للجميع»

فاصبح الناس في الغرب للمرة الاولى في حلّ من انشاء بيوتهم وزرع حقولهم والاستمتاع باموالهم واوقاتهم دون ان يكونوا كل ساعة عرضة لمهدد يتهددهم باستلابها منهم او ان يذبحوا او يقادوا كالاسرى والعبيد · وهذا أمان قلما نقدره قدره اذ قد تمتعنا به كلنا منذ الصغر ولكن الظاهر انه كان يعد من حسنات الامور النادرة عند القدماء

سهلت الرحلة في تلك الامبراطورية المسالمة وأنشأ الرومان طرقًا في كل مكان مع محطات ومواقف وصنعوا مصوّرات (خرائط) لطرق المملكة وكان كثير من ارباب الصناعات والتجار يرحلون من طرف الى طرف آخر من المملكة · ويرحل علماء البيان والفلسفة في بلاد الامبراطورية ذاهبين من مملكة الى أخرى وهم يلقون المحاضرات ·

وكان ينزل في كل ولاية أناس من اهل الولايات القاصية فقد دلت الكتابات على الاحجار انه كان في اسبانيا اساتذة ومصورون ونقاشون من اليونان وفي غاليا صياغ وصناع آسياويون

وجميع هؤلاء كانوا ينقلون عاداتهم وصناعاتهم واديانهم ويمزجونها بما يرونه عند الامم التي ينزلون عليها ثم يعتادون بالتدريج على التكلم باللغة الرومانية وما انبلج فجر القرن الثالث عشر حتى غدت اللاتينية لغة بلاد الغرب المشتركة كما صبحت اليونانية لغة الشرق منذ قام خلفاء الاسكندر · فنشأت في رومية كما نشأت في الاسكندرية حضارة مشتركة سموها الحضارة الرومانية ولم تكن كذلك الا باسمها ولغتها واجتمعت حضارة العالم القديم في قبضة الامبراطور

الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث

السيفيريون — بدأت الفتن الاهلية بعد عهد الامبراطرة الانطونيين فذبح الحرس الامبراطوري سنة ١٩٣ ; الامبراطور برتيناكس ورأوا ان يضعوا المملكة في المزاد فتقدم طالبان يريدان ابتياعها احدهما سولبسيين تقدم على ان يعطي كل جندي خمسة آلاف فرنك والثاني ديديوس رفع مايدفعه لكل جندي الى ستة آلاف فرنك فحمله الحرس الى مجلس الشيوخ وعينوه امبراطورًا ثم لم يستطع القيام بما تعهد به فذبحوه

وفي خلال ذلك بويع بالملك ثلاثة قواد لثلاثة جيوش كبيرة وهما قائد برتانيا وقائد ايليريا وقائد سورية وسار هؤلاء الثلاثة المتنافسون الى رومية فوصلت فرق ايليريا قبل غيرها فعين مجلس الشيوخ القائد سبتيم سيفير امبراطورًا على رومية فنشبت عندئذ حرب بان

سالت فيهما الدماء انهاراً احداها لمدافعة جيش سورية والاخرى لمدافعة جيش برتانيا وظلت لسيفير الكلمة النافذة مدة سنين وهو الذي اوجز سياسته في كلمتين فقال: « ايها الابناء ارضوا الجند واهزؤا بمن بقي »

الفوضى والغارة — مضى قرن ولم يكن قاعدة في الحكومة غير ارادة الجند وكان في الامبراطورية ماخلا جيش الحرس الصغير في رومية عدة جيوش كبيرة على نهر الرين والطونة والشرق وانكلترا · وكل جيش يود ان يجعل قائده امبراطوراً والمتنافسون يتقاتلون حتى كتبت الغلبة لواحد فحكم بضع سنين ثم قتل(١) واذا اسعده الحظ بنقل السلطة الى ابنه من بعده فالجيش يتمرد على ابنه ذاته وتعود نار الحرب تستعر ·

وفي ذاك الحين نشأ امبرطرة غرائب في اطوارهم فكان ايلاجابال كاهناً سورياً لبس ثياب امرأة وترك امه تؤلف مجلس شيوخ من النساء (مجلس شيخات وعجائز) ومنهم الامبراطور ماكسيمان وهو جندي بالعرض وجبار قاس وسفاك كان يأكل على مايقال ٣٠ لبرة من اللحم ويشرب عشرين لبرة من الخمر · وجاء زمن على هذه المملكة والذين يدعون الامبراطورية ثلاثون امبراطوراً انقطع كل منهم الى ناحية من المملكة (٢٧٨ــ٣٦٠) وسمى نفسه امبرطوراً فدعي هؤلاء الثلاثون بالثلاثين ظالما ·

وبينا جند البلاد مشغولون بقتال بعضهم بعضاً كان يرى البرابرة ان التخوم خالية من الحامية فيجتازون ارض الامبراطورية ويخربونها · وكان اقليم غاليا خصوصاً هو الذي يقاسي الامرين من هذه الغارات في القرن الثالث فيجتازها عصابات من المحاربين الجرمان كالالمان والفرنك واذ لم يجدوا فيها مدناً حصينة ولا جيوشاً نهبوا المدن وحرقوها واخذوا ماشاؤا من اهلها اسرى معهم وذبحوا الباقين · وفرسان السكسون يخربون شواطي بحر المانش

كان هذا القرن الذي انقضى في حروب قرن خرافات فكنت تجد في كل مكان اناساً يعبدون ارباب المشرق مثل الرب ايزيس واوزيريس والربة الكبرى ولكن ميترا وهو رب فارسي رب عام اكثر من الارباب قاطبة في الامبراطورية · وميترا الشمس وهي مصوَّرة في المصانع التي انشئت اكراماً لها وهي تصرع ثوراً وقد كتب عليه ما يأتي: « للشمس التي تغلب الرب ميترا » وقد عثر على مثل هذه الرسوم في جميع اجزاء الامبراطورية · وعبادة الشمس ملتبسة مبهمة فهي احياناً اشبه بالشعائر النصرانية فيكون فيها عماد وولائم مقدسة ومسحة وتوبة وشموع ولاجل ان يقبل المرء في جملة اهل هذه العبادة يجب القيام باعمال من صوم ومحن مخوفة

---

(١) قدروا ان عدد الامبراطرة من القرن الاول الى الثالث ٤٥ مات منهم ٢٩ قتلاً

وقد كان دين ميترا في اواخر القرن الثالث الدين الرسمي في المملكة. ودان الامبراطرة والجيش بهذا الرب القهار ولهذا الرب في كل مكان معابد على شكل مغاور ذات مذابح ونقوش بارزة وكان في رومية ايضاً معبد فخيم انشأه الامبراطور اورليان . وكان من اشد الحاجات الماسة في ذاك العهد البقاء مع الارباب على صلح ووئام فاخترعوا حفلات لتزكية النفس فيلبس المؤمن ثوباً ابيض مزيناً بالذهب ويقعد في اسفل هوة فيطبقونها على رأسه بلوح من الخشب مثقوب ويأتون بثور يقفونه على هذا اللوح فينحره الكاهن فيجري دمه من الثقب على اثواب المؤمن ووجهه وشعره . وكانوا يعتقدون ان هذا التعمد بالدم يطهر المرء من السيئات كافة ومن يجري له يكون كيوم ولدته أمه في حياة جديدة ويخرج من الحفرة شنع الصورة ولكنه سعيداً مغبوطاً.

اختلاط الاديان — اخذت الاديان كلها في هذا القرن الذي تقدم فيه فوز النصرانية على غيرها بالاختلاط فتعبد الشمس تحت اسماء منوعة (وهي التربية وهليوس وبعل وايلكابال وميترا) وجميع هذه العبادات منسوخة بعضها عن بعض وكثيراً ما تجري على مثال العبادات النصرانية ومن اعظم الامثلة في هذا الاختلاط الديني ما كان يتوفر عليه اسكندر سيفير الامبراطور المحتشم الطيب ذو الذمة فقد كان في قصره مصلى يعبد فيه المحسنين للانسانية وهم ابراهيم واورفيه ويسوع وابولونيوس دي تيان .

ديوكلسين— بعد مرور زمن في الحروب الاهلية قام امبراطرة تمكنوا من وضع حد للشغب وكانوا قساة عاملين وجنداً ترقوا في درجات الجندية حتى اصبحوا زعماء وقواداً ثم صاروا امبراطرة . ويكاد يكون منشأ معظم اولئك الامبراطرة من ولايات نصف متوحشة كولايات الطونة وايليريا وبعضهم كانوا في طفولتهم رعاة او مزارعين . وكانوا في سذاجة اخلاقهم على مثال قدماء قواد الرومان ولما طلبت وفود ملك فارس ان يروا الامبراطور بروبوس رأوه شيخاً اصلع يلبس عباءة صوف ويضطجع على الارض ويتناول حمصاً وشحم خنزير وكانت هذه سيرة كوريوس دانتوس قبل خمسة قرون

ولقد كان هؤلاء الامبراطرة اشداء على الجند فاحدثوا في الجيش نظاماً وفي البلاد اماناً ولكنه نشأت بحكم الضرورة ثورة اضرم نيرانها الامبراطور ديوكلا ين الذي تدرج من الجندية الى تولي مقام الامبراطورية (٢٨٥) وتنازل عن الملك بعد ان نظم شؤون الامبراطورية .

ولم يعد يكفي رجل واحد لتولي شؤون الحكم في تلك البلاد المتسعة والدفاع عنها فاتخذ كل امبراطور له كما اتخذ ديوكلسين من انسبائه واصحابه اثنين او ثلاثه يؤازرونه

وعهد الى كل واحد النظر في جزء من مملكته . وفي العادة ان يدعوا باسم « قيصر » ويحدث احياناً ان يتولى امبراطوران متكافئان يدعى كلاهما باسم اغسطس ومتى هلك احدهما يخلفه احد القياصرة اما الجيوش فلا تستطيع ان تنصب امبراطرة .

واتسعت الولايات اي اتساع حتى ادى ذلك بديوكلسين الى تقسيمها فكان عددها ٤٨ ولاية في القرن الثاني فاصبحت زهاء ٩٠ ولاية (وغدت غاليا سبع عشرة ولاية بعدان كانت سبعاً) وامسى الحرس الامبراطوري في رومية خطراً على البلاد فاستعاض الامبراطور ديوكلسين عنه بفرقتين سماها فرقتي القصر .

المدنية الرومانية على عهد الامبراطورية

مدينة بومبي — ذكر بلين الفتى في كتاب له قصة ثوران بركان فزوف (سنة ٧٩) الذي هلك فيه خاله بلين القديم . وكان المعلوم ان هذا البركان اخرب مدينتين صغيرتين نزهتين وهما هركولانوم و بومبي ولكن لم يعرف احد موقعهما . وا كتشفت في القرن الثامن عشر بالعرض مدينة هركولانوم مغشاة بطبقة من الحمم ثم كشفت مدينة بومبي مدفونة تحت طبقة من الرماد وحجر الكذان . و بدىء بالبحث في هركولانوم فعثر فيها على تماثيل صغيرة جميلة ومدارج مخطوطة محروقة توصل العلماء الى حل بعضها ولكن حالت صعوبة العمل في الحمم فوقف الباحثون عن التوفر على ما كانوا بدؤا به . وآثروا ان يبحثوا في بومبي حيث يسهل نزع الرماد وقد مضى القرن التاسع عشر باجمعه والهمم متوفرة على نزع الرماد عن المدينة حتى كادت تظهر باسرها الآن كما كانت .

ظهرت بومبي للانظار على ما كانت عليه قديماً وقد سقطت السقوف من ثقل الرماد وفر السكان من كثير من البيوت عند وقوع هذا البلاء ثم عادوا يفتشون عن اهم الاعلاق وانفس النفائس . وما برحت الحيطان قائمة ولم تمح منها الاعلانات المكتوبة بالحمرة بل ما زلت ترى فيها الخطوط التي خطها المارة بالفحم وسلمت الشوارع و بلاطها المحفور بسير المركبات والعجلات . وقد وجدوا ايضاً على الرماد ما تركته جثث الذين هلكوا اختناقاً من الرسوم وقد توصلوا بان جعلوا جبساً مائعاً في تلك الرسوم واخرجوها فكانت قوالب لتلك الاجساد الميتة .

العيشة الرومانية — تصور بومبي للفكر كيف كانت العيشة في مدينة رومانية صغيرة فقد كانت هذه المدينة حديثة البناء ذات شوارع مصفوفة مقطوعة الى زوايا قائمة ومبلطة ببلاط محكم الاجزاء ولها ارصفة الا ان الشارع الاعظم كان معوجاً و بلغ من ضيقه ان كان يتعذر على مركبتين ان تلتقيا في وسطه .

ولم يكن للمساكن غير نوافذ صغيرة وقليلة تطلُّ على الشارع بل كانت للغرفة كلها نوافذ من وسط الدور يدخل اليها النور . وبهذا عرفت ان الشوارع كانت محاطة بحيطان ما عدا الشوارع الرئيسة وعلى طولها صفوف من الحوانيت يستأجرها السوقة والباعة .

وساحة المدينة متوسطة الحجم تحيط بها المباني والمصانع مثل ديوان مجلس شيوخ المدينة ومعابد صغيرة ومحاكم وسوق مسقوف ورواق ذو عمد وفيه كان يجتمع اهل البطالة وفيها داران للتمثيل حفر القسم الاعظم من الكبير منهما في أكمة وهو يسع خمسة آلاف متفرج والصغير يسع الفاً وخمسمائة وفيها مشهد ذو درجات على شكل نصف دائرة « انفيتياتر » تقام فيه الالعاب ويتصارع فيه المصارعون . وفيها ثلاثة حمامات عامة (على الاقل) لاصغرها وهو الذي حفظ اكثر من غيره مقصورة للاستحمام واخرى للحمام السخن وثالثة للبارد وصوان (محل الثياب) وليس في الدور غير اخونة ومقاعد وصناديق وسرر وشمعدانات وكثير من المصابيح اذ لم يكن القدماء يكثرون من الاثاث . اما الغرف فصغيرة ويجعلون الزينة كلها في قاعة الاستقبال الكبرى الا ان مصايف اغنى اغنياء السكان مبلطة بالفسيفساء والجدران مغشاة بصور جميلة فيها مشاهد اساطير وتزيينات من اكاليل وازهار اما الحوانيت فحالتها تشعر بضعف التجارة والحوانيت باعة المشروبات اشارات مصوّرة وقد صوّرت في احداها صورة باخوس (رب الكرمة) يعصر عنقوداً . وكتب على حانوت آخر : « هنا فندق يؤجر غرفةً ذات ثلاثة سرر » وقد عثروا في تلك المدينة على مخبز فيه رحيان تداران باليد وعلى معمل لقصر الثياب ودكان حلاق وبيت جراح وادواته من القلز (النحاس الاصفر) ومعمل نقش ودباغة .

المشاهد — كان للمشاهد في حياة هذا الشعب العطل من الاعمال في رومية شأن يصعب علينا تصوره فكانت المشاهد كما في يونان عبارة عن العاب اي حفلات دينية وتتعاقب المشاهد طول النهار وتعود من الايام التالية مدة اسبوع على الاقل .

والمشهد عبارة عن موعد تتواعد اليه الامة الحرة باسرها وهناك كانت تقام المظاهرات ففي خلال الحروب المدنية سنة ١٩٦ اخذ المتفرجون بلسان واحد يهتفون : السلم . والمشهد (الفرجة) كان بحسب ما تميل اليه النفوس في ذاك الزمن فقد مثل فيه ثلاثة امبراطرة فمثل كاليجولا في هيئة حوذي ونيرون ممثلاً وكومود مصارعاً . وللمشاهد ثلاثة اضرب وهي المرزح او المسرح (المرسح) والملعب وشكل نصف الدائرة (انفيتياتر)

وكان المرزح على الاسلوب اليوناني والممثلون يونان وقد جعلوا اوجهاً مستعارة على وجوههم يشخصون قصصاً اخذوها من اللغة اليونانية . وقلما كان الرومان يقدرون مثل

هذه الروايات قدرها لانها تعلو عن عقولهم وكانوا يؤثرون الروايات المضحكة الجافة المعروفة بالميم ولا سيما « البانتوميم » التي يشخصها الشخص دون ان يتكلم و يظهر عواطف الاشخاص الذين يمثلهم بحركاته وسكناته . تمتد بين ا كمتين من جبل افانتين و بالاتين ساحة للسباق تحيط بها اروقة علتها مراق وادراج . وهذا المكان هو الملعب الاعظم اصبح يسع منذ وسعه نيرون ٢٥٠ الف متفرج . ثم وسع في القرن الرابع حتى صار صالحاً لاجلاس ٣٨٥ الف شخص وهناك كانوا يمثلون الفرجة التي يحبها الشعب الروماني وهي سباق المركبات ذات الاربعة الخيول فالمركبة الواحدة تطوف الملعب من اقصاه الى اقصاه ثلاث مرات وعليها ان تقطع ٢٥ شوطاً في اليوم الواحد . وسائقو المركبات تبع لشركات تزاحم كل منها الاخرى و يلبسون لوناً من الالبسة خاصاً بشركتهم فكانت الشركات اربعاً بادىء بدء ثم استحالت ثنتين وهما الزرقاء والخضراء ولكليهما شهرة في تاريخ التمرد . ولقد اولع القوم في رومية بسباق المركبات كما يولع الناس اليوم بسباق الخيل حتى كان موضوع حديث النساء والاولاد ايضاً وكثيراً ما يتعصب الامبراطور لفريق دون آخر في السباق وتتكون من النزاع بين الزرق والخضر مسألة سياسية

انشأ الامبراطور فسبازين على ابواب رومية بناء الكوليزة وهي عمارة ضخمة ذات طبقتين تسع سبعين الف متفرج كانت عبارة عن ملعب مستدير حول ميدان يصطادون فيه و يتقاتلون فاذا ارادوا الصيد يجعلون الميدان غابة يطلقون فيها الوحوش الكاسرة فيجيء رجال مسلحون بحراب يصيدونها . وكانوا ينوعون المشهد بجعل الحيوانات الكثيرة في هذا المكان ولا سيما النادر منها كالاسود والفهود والفيلة والدببة و الجواميس والكركدن والزرافة والنمور والتماسيح . وظهر في الالعاب التي احتفل بها الامبراطور بومبي ١٧ فيلاً و ٥٠٠ اسد في الميدان وكانت لبعض الاباطرة دار لغرائب الوحوش . ثم رأى القوم بدلاً من ان يجعلوا الرجال المسلحين امام الحيوانات ان يطلقوا الحيوانات على الرجال وهم عراة مقيدون . وشاعت العادة في جميع مدن الامبراطورية باستخدام المحكوم عليهم بالاعدام في هذه التسلية فافترست الحيوانات أُلوفاً من الناس من كل جنس وسن ومنهم كثير من شهداء المسيحيين على مرأى من الحضور .

المصارعون — كان قتال المصارعين (رجال بايديهم السيوف) من اجلّ المشاهد الوطنية عند الرومانيين فينزل رجال مسلحون الى الميدان يتبارزون حتى يقتل بعضهم بعضاً وبلغ الحال بالرومانيين على عهد قيصر ان صاروا يقتلون ٣٢٠ زوجاً من المصارعين في آن

واحد وقد قتل اغسطس في حياته كلها عشرة آلاف رجل وقتل تراجان مثل ذلك في اربعة اشهر . وكان المغلوب يذبح في الحال الا اذا عفا الشعب عنه

وكثيراً مايلاقون باناس من المحكوم عليهم في ميدان الصراع ولكن المتصارعين يكونون في الغالب من العبيد واسرى الحرب . وكل انتصار يجلب الى ميدان الصراع عصابات من البرابرة يقتل بعضهم بعضاً ليتلذذ المتفرجون (١) وكان في رومية مصارعون من كل بلد فمنهم الغاليون والجرمان والتراسيون وربما كان منهم الزنوج فيقتتلون باسلحة مختلفة عن اسلحتهم الوطنية عادة . وكان يحب الرومان ان يروا هذه المقاتلات في صور مصغرة .

وكنت ترى بين هؤلاء المقتتلين في الملعب اناساً من المتطوعة الاحرار حدا بهم حبهم للخطر ان يقدموا انفسهم للصراع وقواعده القاسية وان يقسموا لزعمائهم بانهم يقدمون ليضربوا بالعصي ويحرقوا بالحديد المحمي ويقتلوا تقتيلاً . وقد تجند غير واحد من اعضاء مجلس الشيوخ من هذه العصابات من العبيد والمتشردين بل تجند في زمرتهم الامبراطور كومود ونزل الى الميدان بذاته . ولا تقام هذه الالعاب الخطرة في رومية فقط بل في جميع مدن ايطاليا وغاليا وافريقية (اما اليونان فقد استنكفوا من قبول هذه الالعاب)

واليك صورة كتبت على تمثال اقيم لاحد اعيان بلدة منثورن : « قد اظهر في اربعة ايام احد عشر زوجاً من المصارعين ما برحوا يقتتلون حتى بعد ان سقط نصفهم في الميدان وصاد عشرة دببة هائلة ولا شك انكم تذكرونه ايها الوطنيون الاشراف »

وكان الشعب يهوى اهراق الدماء على نحو ما يجري اليوم باسبانيا في سباق الثيران . وينبغي للامبراطور كما ينبغي لملك اسبانيا ان يحضر هذه المجازر . ولقد فقد الامبراطور مارك اوريل ثقة العامة في رومية لانه اظهر مللاً من مشاهدة تلك الالعاب فكان يقرأ ويتكلم ويقابل الناس بدلاً من ان ينفرج . ولما صحب معه المصارعين ليستخدمهم في قتال البرابرة الذين هاجموا ايطاليا اوشكت الغوغاء ان تتمرد وصرخوا قائلين : « انه يريد ان يسلبنا تسليتنا ليضطرنا الى التفلسف »

المدارس — لم يخطر للقدماء قط ان يعلموا الاولاد كلهم فليس العبيد وحدهم بل السواد الاعظم من سكان الامبراطورية لم يتعلموا القراءة . على انه لم يكن في المملكة

---

(١) شكر احد الخطباء الامبراطور قسطنطين في خطاب رسمي القاه لانه قدم جيشاً برمته من البرابرة الاسرى ليتصارع امام الجمهور ولانه استعمل قتل الناس لتسلية الناس . قال وليت شعري اي ظفر اجمل من هذا ؟

غير مدارس للاغنياء وللوطنيين الرومانيين . وقلما نعرف المدارس التي يتعلم فيها ابناء الوطنيين والاجناد القراءة والكتابة . وقد كان راتب معلم المدرسة قليلاً جداً وآباء الاولاد هم الذين يؤدون إليه راتبه . وطريقة التعليم عبارة عن ضرب الاولاد بقرعة او بالعصي . وقد مثلوا في صورة وجدت في مدينة بومبي ولداً يمسكه اترابه بينا كان المعلم يضربه بالسوط .

وتعلم الأسرات الغنية اولادها على مؤدب عبد يكون رومياً في الغالب فيعلمهم النحو واللغة اليونانية . والمدارس العامة تقبل الشبان الاغنياء خاصة يرسلهم آباؤهم اليها ليتعلموا فيها الخطابة . والغاء المنابر لم ينزع من الناس ذوقهم في الخطابة ومرانهم عليها . وعلى ذلك العهد بدأ المفوهون او الخطباء يكثرون و يعلمون الناس كيفية الاداء فافتتحوا منذ القرن الاول في رومية مدارس يقبلون فيها الفتيان الاغنياء . وكان بعضهم يمرن تلاميذه على انشاء المرافعات في موضوعات خيالية في الخطابة وقد حفظ لنا الخطيب سينيك عدة من هذه الدروس الخطابية وموضوعها اولاد مخطوفون ولصوص ومتشردون على اساليب مختلفة أسست على الولاء مدارس من هذا الطراز في جميع اقطار المملكة فكان في غاليا مدرسة قديمة في مدينة مارسيليا اليونانية يقصدها الطلاب من ايطاليا . واصبحت مدرسة اوتون منذ زمن اغسطس عامرة اكثر من غيرها بالطلاب وهي التي بقيت عامرة الى آخر ايام الامبراطورية .

ثم أنشئت مدارس من هذا النوع في الشمال منها مدرسة في ريمس واخرى في تريف . وكانت في الجنوب لعدة مدن مدارس من مثل هذه واشهرها هي التي اصبحت مدرسة بوردو بعد ذلك .

تنفق المدن على هذه المدارس فتعين لها الاساتذة وتدفع لهم اجورهم والمقصد الاول منها تعليم ابناء الأسرات الغنية التكلم باللاتينية واليونانية وان يكتبوا فيهما ليتمكنوا من ان يكونوا موظفين . ويعلم فيها النحو والبيان خاصة . وكان اشهر استاذ في مدرسة اوتون في القرن الرابع الخطيب اومين ارسله الامبراطور قسطنطين وكان مدحه . واعظم رجل في مدرسة بوردو هو اوزون مربي ابن الامبراطور (٣٦٩) ومؤلف عدة مقاطيع شعرية لاتينية متكلفة .

الاشراف — دثرت الأسرات القديمة الغنية في رومية الا قليلاً ولكن قام غيرها من الأسر الحديثة التي اغتنت بالصيرفة والتجارة والتزام الجباية واستثمار الاراضي المفتوحة . وكلما تمكن غني من ارباب الاملاك من ان يعينه الامبراطور حاكماً تشرف أسرته وبذلك شرفت

جميع الأسرات الغنية في ايطاليا والولايات (حتى لم يبق في اواخر القرن الثالث اناس من الفرسان العاديين) وكان كل عظيم من كبراء هؤلاء الملاك يعيش بين عبيده ملكاً صغيراً لا عمل له الا اتباع الشهوات وداره في رومية اشبه بقصر تغص غرفة التشريفات (الاتريوم) كل صباح باناس من الزبن (الزبونات) وهم اناس من الوطنيين يختلفون اليه لامور طفيفة صباح كل يوم يسلمون عليه بالسيادة ويسايرون موكبه في الشارع . لان الاصطلاح يطلب ان لا يظهر الغني ابداً امام الجمهور الا ويحيط به جماعة . وقد ضحك هوراس من احد القضاة لمروره بشوارع تيبور في خمسة من العبيد فقط . وللكبراء خارج رومية مصايف بهجة على شواطيء البحر او في الجبال ينتقلون فيها لا عمل لهم والضجر آخذ منهم

ولم تكن واجهات لبيوت هؤلاء الاغنياء من الرومانيين على العكس من بيوتنا الحديثة بل كانت كلها دائرة من داخل اما من الخارج فلم تكن سوى حيطان عارية لا شيء فيها والغرف صغيرة وفرشها قليل وهي مظلمة لا يدخلها الضوء الا من قاعة التشريفات وهي في وسط البيت وفيها نصبت تماثيل الاجداد وفيها يستقبل الزوار ويدخل اليها النور من شق في السقف ووراءها البير يستيد وهي حديقة محاطة بصفوف من العمد وعليها تطل غرف الطعام مزينة الخرزينة وفيها سرر لجلوس الضيوف ويتناولون فيها الطعام لان ذلك كان من عادة اغنياء الرومان كما كان من عادة اليونان في آسيا . وكثيراً ما يكون بلاط الدار معمولاً بالفسيفساء .

الاخلاق — وصف سينيك في رسائله وجوفنال في اهاجيه الرجال والنساء في عهدهما وصفاً مزعجاً حتى اصبح فساد رومية القياصرة مثلاً سائراً في الغابرين . على ان هذا ناشيء من دوام اضطرابات القرون الاخيرة للجمهورية مثل بذخ الاغنياء الغليظ وقسوة السادة مع عبيدهم وطيش النساء الممزوج بجنون . فلم يأت الشر من طريقة الحكم الامبراطورية بل من الافراط في جمع ثروات العالم اجمع بيد بضعة الوف من الاشراف او ادعياء الشرف وتحتهم بضع مئات من الاحرار يعيشون عيشاً سافلاً وملايين من العبيد يظلمون ظلماً هائلاً

وكانت الاسرة الكبرى تندثر بسرعة حتى هال الامبراطور اغسطس ما رأى من نقص عدد الرجال الاحرار فسن قوانين لحمل الناس على الزواج والعقاب على العزوبة واذ كان تأثير هذه القوانين يحتاج الى زمن لم تنجع اصلاً . ولقد كثر عدد الاعزاب من الاغنياء حتى غدت مداهنتهم من الصناعات الرابحة وذلك ليوصي لهم من يدهنون لهم بشيء من المال يأخذونه بعدهم . ومن حسن التدبير ان لا يرزق الغني ولداً فيكون محاطاً بالمرائين والمتقربين . قال احد القصصيين الروحانيين : « ينقسم الناس في هذه المدينة الى طبقتين

منهم من يصطاد ومنهم من يصاد » وقال سينيك : « ان في حرمان الاولاد زيادة نفوذ المرء » .

الطبقات النازلة — فقد التمييز بين الوطنيين الرومانيين والغرباء موقعه ومكانته اذ لم يعد في رومية انتخابات وشمل حق التملك على التدريج سكان الولايات . وجاء زمن على عهد كاراكالا (سنة ٢١٢) صدر فيه امر بمنح حق الوطنية لجميع سكان الامبراطورية ولم يشعر بهذا الامر كثيرًا لان العمل كان جاريًا عليه من قبل بالفعل

ويمتاز الرجل امتيازًا خاصًا بثروته التي يملكها ويقسم الناس الى طبقتين : الاغنياء ويدعون اشرف الشرفاء وهم اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان واعضاء مجالس الشيوخ في المدن وتتألف منهم طبقة قواد العشرة اما بقية الشعب وهم العامة فيتألف منهم الفقراء المدقعون والسوقة الحقيرون .

فاشرف الاشراف وحدهم يحسبون في المجتمع وهم يقومون بعامة الوظائف المدنية وجميع موظفي الامبراطور من طبقة اعضاء الشيوخ او طبقة الفرسان وجميع حكام المدن من قواد العشرة . ولهم كلهم امتيازات رسمية ومحال خاصة بهم في دور التمثيل وحضور الحفلات واذا حكم عليهم بالاعدام لا يصلبون ولا يلقى بهم للوحوش في الملعب لان هذه العقوبات المخزية كانت خاصة بالغوغاء والعامة

ولقد عاش الفقراء في هذا المجتمع الارستوكراسي عيشة ضنكًا فيعيش فقراء رومية من الصدقات العامة او بالاختلاف الى الاغنياء ومداهنتهم وهذه العيشة كانت ضربًا مستورًا من الشحاذة . ويصبح الفقراء في القرى مستعمرين في اراضي كبار ارباب الاملاك الذين يعاملونهم معاملة تقرب من معاملة العبيد وترى الفقراء في المدن صناعًا او مرتزقة ومنزلتهم منزلة المعتقين من العبيد . واذا حسنت حال المدينة يكون لهم نصيب في ما يوزعه الحكام من الصدقات ويدخلون بدون اجرة الى مشاهد التمثيل والالعاب والحمامات العمومية وكنت ترى في جميع المدن حمامات حارة مؤلفة من مقاصير للاستحمام ذات احواض تأتيها الحرارة من موقد جعل تحت الارض . والحمامات في مدينة رومانية كمحال الرياضة في المدينة اليونانية هي مكان اجتماع من لا عمل لهم . بل كانت الحمامات في مدن الرومان اعظم من محال الرياضة عند جيرانهم اليونان مئات من المقاصير على اختلاف اجناسها فمن مقصورة باردة الى فاترة الى حارة الى صوان للثياب ومقصورة لدلك البدن بالزيت ومحال للمحادثة ومقاصير للرياضة وحدائق يحيط بكل ذلك سور عظيم . وقد شغلت خرائب حمامات كاركالا بالقرب من رومية مساحة عظيمة من الارض .

العبيد - وتأتي تحت طبقة الاحرار الفقراء الطبقة الاخيرة وهي طبقة العبيد الذين هم في بعض البلاد معظم السكان . والسادة من الرومانيين كالشرقيين لعهدنا كانوا يحبون ان يحيط بهم جمهور من العبيد . ففي البيت الكبير الروماني يعيش مئات من العبيد ينقسمون بحسب الخدم التي يتولونها فمنهم الموكلون بالفرش وتعهد الاواني الفضية والاعلاق والتحف ومنهم حفظة للثياب ومنهم وصائف ووصيفات ومنهم القيمون على المطبخ والحمام ومنهم رئيس المتكإ ومعاونوه ومنهم عبيد الموكب الذي يرافق سيد البيت وسيدته في الشوارع ومنهم حملة المحفة (المحارة) ومنهم الحوذيون والسواس ومنهم أمناء السر والقراء والنساخ والاطباء والمربون والممثلون والموسيقيون وارباب الصناعات من كل صنف لانهم في كل بيت كبير يطحنون الدقيق ويحيكون الصوف وينسجون الثياب . ومن هؤلاء العبيد من حبسوا انفسهم في المعامل يصنعون اشياء يبيعها سادتهم ويكون ربحها لهم ومنهم من يؤجرهم اصحابهم الى الخارج على انهم بناؤون او نجارة فقد كان لكراسوس خمسمائة عبد من المهندسين . وكل هؤلاء يدعون عبيد المدن .

عبيد الريف — كل ملك (تفتيش) كبير يتوفر على زراعته عصابة من العبيد فهم الحراثون والرعاة والكرامون والبساتنيون والصيادون يجعلون شراذم تؤلف كل شرذمة من عشرة اشخاص . ويلاحظهم وكيل منهم يهيمن عليهم . ويرى صاحب الملك ان من دواعي اعجابه ان تخرج ارضه كل شيء فهو لا يبتاع شيئاً وكل حاجياته تنبت في ارضه وهذا مما يجعلونه من جملة الثناء على الاغنياء فصاحب الارض يؤوي اليه عدداً عظيما من عبيد الريف كما يسمونهم والملك الروماني اشبه بقرية ويسمى مصيفاً (فيلا) وقد بقي اسمها فاطلق عليه اسم مدينة (فيل) منذ القرون الوسطى وهو الملك الروماني القديم مكبراً

معاملة العبيد — يعامل العبيد بحسب اخلاق سيدهم فمن السادة المتورين الذين اشتهروا بالانسانية شيشرون وسينيك وبلين فقد كانوا يطعمون عبيدهم طعاماً جيداً او يحادثونهم وربما اجلسوهم معهم على موائدهم ويسمحون ان يكون لهم اسرة وثروة صغيرة . وهناك سادة على العكس من هؤلاء عاملوا عبيدهم معاملة الحيوانات وعاقبوهم اشد العقوبات بل ربما قتلوهم لهوى في النفس . والامثلة على ذلك كثيرة . فقد كان فويوس بوليون عتيق اغسطس يطعم السلور البحري (سمك مرينة) في بركته فكسر له احد عبيده آنية على غير قصد فما هو الا ان القاه في البركة ليكون طعاماً لسمكه

وصف الفيلسوف سينيك فظائع السادات بهذه العبارة : « اذا سعل أحد العبيد أوعطس خلال المأدبة أو طرد الذباب متهاوناً أو رمى مفتاحاً وسمع له صوت نكلب في

الاقتصاص منه وأي كلب فاذا اجاب رافعاً صوته قليلاً ودلت تلاميح وجهه على سوء خلق أيحق لنا ان نضربه بالسياط ؟ وكثيراً ماننبالغ في الضرب ونقطع له عضواً ونقلع سناً » وهكذا رأينا الفيلسوف ابكتيت وكان عبداً كسر مولاه ساقه . اما النساء فلم يكن أيضاً على شيء من الشفقة واليك كيف امتدح ادفيد احدى العقائل قال: «مشطوا رأسها امامي مرات وماقط غرزت الابرة في ذراع العبد الذي يمشطها »

وما كان الرأي العام يحول دون هذه الفظائع فقد مثل جوفنال عقيلة غضبى على أحد عبيدها وهي تقول أصلبوه — وأي جريمة أتاها العبد حتى استحق هذا العذاب ؟ما انحسه وهل العبد من البشر ؟ وسواء أتى امراً اداً ام لم يأت فاني أريد عذابه وآمر به وارادتي هي الحجة في هذا الباب

اما الشريعة فلم تكن الطف من الاخلاق فكانت في القرن الاول قبل المسيح توجب بان صاحب البيت اذا ذبحان يقتل عبيده كلهم به . ولما أريد الغاء هذا القانون خطب تراز يا أحد معتبري الفلاسفة في مجلس الشيوخ مطالباً ببقاء هذا القانون.

وللعبيد مطبق تحت الارض يدخله النور من نوافذ ضيقة بعيدة بحيث لا يتيسر الوصول اليها فاذا اتوا مايغضب ساداتهم يسجنونهم فيه بالليل وفي النهار يبعثون بهم ليشتغلوا مقيدين بسلاسل من حديد ثقيلة . وكثير منهم من وسمت وجوههم بحديدة محماة

لم يعرف القدماء المطاحن الميكانيكية بل كانوا يطحنون الحنطة بمطاحن باليد يديرها العبيد وكان ذلك من اشق الاعمال يندبون اليها عقوبة لهم في العادة . وكانت المطحنة قديماً مثل محبس (لومان) وقال بلوت« كان يبكي أشقياء العبيد الذين يطحنون البولانتا (سويق من دقيق الذرة) وهناك يرن دوي الاسواط وقعقعة السلاسل والاغلال » وبعد ثلاثة قرون أي في القرن الثاني بعد المسيح وصف القصصي ابوليه داخل مطحنة بقوله: «ايها الارباب ما اتعس هؤلاء المساكين من البشر فقد اسودت جلودهم وتبرقشت من ضرب السياط ولا تستر ابدانهم غير خرق من قميص مدموغة جباههم محلوقة رؤوسهم مقيدة ارجلهم مشوهة ابدانهم من النيران مقروحة جفونهم من الدخان وقد علاهم غبار الدقيق»

ولم يكن العبيد يكتبون ولذلك لا نعرف ماهو رأيهم انفسهم في معاملة ساداتهم لهم . الا ان الموالي أنفسهم كانوا يشعرون بحقد عبيدهم عليهم . ولما انتهى الى بلين الجون ما اصاب احد ارباب الاملاك من ذبحه في حمام بيد عبيده قال ملاحظا : « هو ذا الخطر الذي يتهددنا كلنا » . وقال كاتب آخر: «اصبح كثير من الرومان عرضة لحقد عبيدهم اكثر من حقد الظالمين»

الشركات — كان في جميع بلاد الامبراطورية في الشرق اليوناني اكثر من الغرب اللاتيني عدد كبير من الشركات مختلفة الضروب والاشكال · فمنها شركات لارباب الصناعة الواحدة وشركات للممثلين والمصارعين وشركات ادبية وشركات لاجتماع السكيرين على الشراب ولبعض هذه الشركات أعضاء من الرجال الاغنياء مثل جمعيات الجباة وكان اعضاؤها يلتزمون الاموال الاميرية · ومثل جمعيات التجار الذين يتجرون بين ايطاليا وغاليا ولكن معظم تلك الجمعيات كان مؤلفاً من صعاليك القوم ·

ولقد طال منع الحكومة الرومانية لهذه الجمعيات والشركات ثم تسامحت بها حتى اذا كان القرن الثالث اخذت تمد اليها يد مساعدتها ولكن الحكومة لم تمنع قط الجمعيات لدفن الموتى وكانت هذه الجمعيات تتألف من اناس مساكين لا يستطيعون ان يقتنوا ارضاً لتكون لهم قبرًا فكانوا يشتركون و يدفعون اقساطا للحصول على سرب يكون مشتركاً بينهم ليدفنوا فيه امواتهم · فالمغارة او السرب المعدّ لدفن الموتى هو عبارة عن بناء مقبب وفيه صفوف كثيرة من المقاصير يجعل في كل واحدة منها رفات ميت ويسمونها برج الحمام بسبب شكلها ·

وعلى هذا كان اعضاء جمعية الموتى على ثقة من الحصول على مدفن لائق بعد موتهم وقبر دائم لهم على الدهر وهو ما كان القدماء يحرصون عليه كل الحرص ويسمون هذه الشركات لا بأسماء حزن لئلا تكون شؤماً بل يسمونها باسماء ارباب ويسمونها شركات الصغار وكان يدخل فيها كثير من العبيد وتجعل جميع الشركات الا قليلا تحت حماية احد الارباب ليحميها (مثل جمعيات الاطباء التي اطلقوا عليها اسم اسكولاب) وما كان لكثير من هذه الشركات من غاية الا ان يتعبدوا كلهم جماعة · والحكومة لا تدر الارزاق الا على المعابد والكهنة وبعض الشعائر الرسمية · وجميع الاديان الاخرى كانت منظمة على هيئة جمعيات · ولاهلها صندوقهم وكاهنهم ومصلاهم ومذبحهم وحفلاتهم · وكانت الكنائس النصرانية اولاً شركات من هذا النوع ·

واهم الشركات شركات ارباب الصناعات فكان منها في عامة المدن حتى ان العواصم كان فيها عدة شركات من نوعها واعضاؤها في العادة من ارباب الصناعة الواحدة وتسمى كل شركة باسماء صناعات اعضائها فقد كان في افيز شركة حلاجي الصوف وفي جنيف شركة الملاحين وفي ليون شركة عملة البناء · وتقبل كل شركة في اعضائها اناساً من اهل صناعة اخرى · ومن العادة ان يكون لكل شركة عبادة فتعبد رباً وتقيم عيداً للاحتفال به يحملون فيه علمه (ودامت هذه العادة في القرون الوسطى في شركات الصناع المسيحيين) وهذه

الشركة تقوم بدفن أعضائها متى ماتوا في مدافن لائقة . ولكل شركة مديران يختاران من المعلمين و يكونان في العادة وكيلا وامين صندوق ينتخبهما الاعضاء كلهم الا انه لم يكن لهما ادنى سلطة على ارباب الصناعة وما كان يكره احد على الدخول معهم

الحقوق الرومانية

دين البيوت — يعبد اعضاء كل اسرة باجمعهم اجدادهم ويجتمعون حول مزار واحد ونار بابهم واحدة ولهم وحدهم ان ينظروا اليها ولا يحق لاحد ان يعبد اجداد أسرة الا اذا كان من فرع اولئك الجدود . و يقام المزار الذي يجعل فيه ارباب البيت في مكان منفرد من الدار لا يقترب منه غريب . والاسرة الرومانية اشبه بكنيسة صغيرة لهادينها وعبادتها لا يقبل فيهما احد غير اعضائها ولذلك تختلف كثيرًا عن الاسرة الحديثة لان نظامها ديني .

الزواج — اخذ الزواج الروماني يصير احتفالاً دينيًا فيسلم الاب ابنته المخطوبة الى خارج الدار فتحمل في موكب الى دار زوجها والناس يرددون كلمة مقدسة وهي : «العرس ايتها العروس» حتى اذا جاؤا بها الى دار زوجها يقدمون لها الماء والنار وهناك يقتسم الزوجان بحضور ارباب الاسرة قطعة من الحلواء معمولة من الحوارى وكان يسمى الزواج اذ ذاك شركة الحلواء .

وقد اخترع الرومان منذ الزمن الاطول ضربًا من الزواج يسوغ للطبقة الوسطى فقط وهو اما ان يبيع المخطوبة احد اوليائها واقربائها بحضور شهود من قبل زوجها و يصرح هذا بانه ابتاعها على ان تكون زوجه وهذا زواج البيع واما ان تجيء الزوج فتساكن زوجها ومتى قضيا سنة معًا يعتبران متزوجين وهذا الزواج بالعادة

الرومان كاليونان يرون الزواج فرضًا دينيًا والدين يأمر بان لاتندثر الاسر . وعند ما يتزوج الروماني يصرح بانه اتخذ زوجته ليكون له منها اولاد . وقد طلق احد اشراف الاغنياء زوجته وكان يحبها حبًا جمًا لانه لم يرزق منها اولادًا .

المرأة — ليست المرأة الرومانية حرة اصلاً فهي في شبيبتها ملك ابيها يختار لها زوجًا واذا تزوجت يصير امرها بيد بعلها ويقول الفقهاء انها في يده وانها مثل ابنته . وبالجملة فللمرأة سيد على الدوام بيده موتها وحياتها .

ومع هذا لم يعاملوا المرأة قط معاملة الرقيق بل هي مساوية في المكانة لزوجها و يدعونها أم الاسرة كما يدعون الرجل أبا الاسرة فهي سيدة في البيت كزوجها تسيطر على النساء الرقيقات فتكلفهن بجميع الاعمال الشاقة كطحن الحب وخبز الخبز وعجنه . وتجلس في قاعة التشريفات من الدار تنسج وتحيك وتوزع الاعمال بين الاماء وتلاحظ الاولاد وتدبير

شؤون البيت . وليست المرأة الرومانية كالمرأة اليونانية بعيدة عن الرجال بل تتناول الطعام على المائدة مع زوجها وتستقبل الزائرين وتذهب لتناول الطعام في المدينة وتظهر امام الناس، في الحفلات وفي دور التمثيل وامام المحكمة . الا انها في العادة تكون جاهلة امية وذلك لان الرومانيين لا يهتمون بتعليم بناتهم . واهم صفة يعتبرونها في المرأة ان تكون زاهدة فاذا ماتت يكتبون على قبرها اشارة الى مدحها : « انها التزمت بيتها ولم تخرج منه وغزلت الصوف »

الاولاد — الولد الروماني لابيه بمثابة ملك له وللوالد الحق في ان يعرضه في الشارع فاذا اخذه يربيه في بيته اولاً والبنات يبقين في البيت ريثما يتزوجن وهن يغزلن ويحكن تحت ملاحظة امهاتهن والبنون يعملون في الحقول مع آبائهم ويتمرنون على استعمال السلاح

ليس الرومان شعباً مفنناً في الصناعات وغاية امانيهم ان يعرف ابناؤهم القراءة والكتابة والحساب وهم لا يطلبون على ذلك مزيداً فلا يعلمونهم الموسيقى ولا الشعر ويلقنونهم القناعة والصمت والحشمة في مآتيهم والطاعة في منازعهم .

ابو العائلة — ان من يطلق عليه اسم سيد البيت يدعوه الرومان ابا الاسرة . فابو الاسرة مالك للاملاك وكاهن في عبادة الاجداد وسلطان الاسرة فهو الحاكم المتحكم في بيته يحق له ان يطلق زوجته ويطرد ابناءه وان يبيعهم ويزوجهم بدون ان يأخذ رأيهم . ويحق له ان يستأثر بما يملكونه لنفسه بل وكل ما تحمله اليه زوجه وكل ما يكسبه اولاده . اذ لا يسوغ للمرأة ولا لاولادها ان يملكوا شيئاً وبالجملة فبيده حياتهم ومماتهم اي انه قاضيهم الوحيد . ان ارتكبوا جريمة فرب الاسرة يحكم عليهم لا الحاكم .

اصدر مجلس الشيوخ (١٨٦) الروماني امره ذات يوم باعدام جميع من اشتركوا في الاحتفال بعبادة باخوس فنفذ الحكم على الرجال . اما النساء اللائي اشتركن في الحفلة مع المجرمين فعمد المجلس الى آباء الاسرات في امرهن وهم الذين اعدموا نساءهم وبناتهم . كان الشيخ كاتون يقول « ان الزوج قاضي امرأته له ان يعمل بها ما يشاء فاذا ارتكبت غلطاً يعاقبها واذا تناولت خمراً يحكم عليها بالاعدام واذا خانت يقتلها » ولما كان كاتالينا يكيد المكايد لمجلس الشيوخ لاحظ احدهم ان ابنه اشترك في المكيدة فاوقفه وحاكمه فحكم عليه بالموت . وتدوم سلطة ابي الاسرة بدوام حياته والابن لا يخلص من عبوديته له حتى انه اذا اصبح قنصلاً يظل خاضعاً لسلطة ابيه . ومتى مات الاب يصبح الاولاد اصحاب بيوت اما امرأته فلا تكون حرة اصلاً بل تكون تحت سيطرة وريث زوجها بل تخضع لابنها نفسه

التملك — كانت الثروة في القرون الاولى رومية عبارة عن ماشية وعبيد خصوصاً واللفظ الذي دلّ بعد على الدراهم معناه قطع . ويسمى المالك رب الاسرة . ومن المحتمل

ان الارض لم تكن تنتقل بالارث لان لفظة ارث عندهم تدل على ارض مساحتها فدانان وهو المكان الذي يكفي لانشاء بيت وحديقة . ولم يلبث الرومانيون ان قبلوا عادة اعتبار المالك لحقل صاحباً له وعندئذ وضع حق التملك للماشية والعبيد والاراضي والبيوت وكانوا يعرفونه بانه حق الانتفاع والتخريب (الاستعمال وسوء الاستعمال)

ثم صار لهذا الحق ان يتناول كل شيء من الحاجات والاثاث والدراهم والعقود والديون وحقوق الاستمتاع . ويجب على من اراد ان يملك شيئاً ان يملكه على الصورة التي عينتها العادة . واليك مثلاً كيف تجري صفقة المبيع : يضع البائع امام خمسة من الوطنيين ينوبون عن مجمع ومعهم سادس يمسك الميزان بيديه قطعة من النحاس في هذا الميزان تعادل ثمن المبيع . فاذا كان هذا حيواناً او عبداً يمسكه البائع بيده ويقول : هذا لي بموجب القانون الروماني ابتعته بهذا النحاس الموزون وزناً حسناً .

ثم ابتدعوا طرقاً اسهل لنقل الملك من يد الى يد فصاروا يكتفون بدفع المبيع الى المبتاع . وهذه الطرق لا تملك تمليكاً رسمياً بل يكون المقتني للملك متمتعاً به ولكن هذا التمتع يخوله نفس الحقوق كما لو كان مالكاً رسمياً له .

ولصاحب الملك الحق في ان يعطي املاكه بعده لمن يشاء واذا لم يوص بشيء من هذا القبيل يقتسم اولاده ثروته واذا اراد ان يغير نظام الوراثة يكتب وصيته . وكان يجري ذلك بمحفل امام مجالس الامة زمناً طويلاً ثم اصطلحوا على صورة متكافئة في البيع كأن يبيع المالك ماله لمن يريد ان يجعله وريثاً له وانتهت الحال بان اصبحوا يكتفون بوصية مسطورة وكان يحق لصاحب الملك خلال القرون الاولى ان يوصي لمن يشاء وان لا يترك شيئاً لاولاده ثم اكره القضاة آباء الاسر بالتدريج على ان يوصوا لكل واحد من اولادهم بقسم من ثروتهم فاخذ ينال كل ولد قسماً من الارث .

الواح الوصايا الاثنتا عشرة . لم يكن عند الرومان في مبدإ امرهم كسائر الشعوب القديمة شرائع مكتوبة بل كانوا يجرون على عادات الاجداد اي ان كل جيل يجري في كل شأن من شؤونه كما جرى الجيل السالف . وقد سنّ حوالى سنة ٤٥٠ عشرة حكام منتخبين شرائع كتبوها في اثنتي عشرة لوحة من الحجر . وكانت هذه شريعة الاثنتي عشرة لوحة أنشئت احكاماً موجزة شديدة قطعية وما هي الا تقنين جاف قاس مثل الشعب النصف البربري الذي وضع له . فبموجب هذه الشريعة يعاقب الساحر اذا تلا كلمات سحرية ومر على حقله بغلة جاره . واليك حكم هذا القانون في المدين الذي لم يؤد ما عليه من دين : « اذا لم يدفع يرفع امره الى القضاء واذا عاقه المرض او السن عن الحضور يركب حصانا او

محفة ويمهل ثلاثين يوماً فاذا لم يوف ما عليه يربطه الدائن بسيور او سلاسل وزنها ١٥ لبرة وبعد ستين يوماً يبيعه فيما وراء نهر التيبر وللدائنين اذا تعددوا ان يقطعوا المدين ارباً اربًا ولا غبن اذا قطعوا منه قليلاً او كثيراً! قال شيشرون كانت شريعة الاثنتي عشرة لوحة منبع التقنين الروماني باسره وكان الاولاد في المدارس يستظهرونها بعد اربعة قرون من وضعها ·

الاشارات في الدعاوي — لا يكفي بموجب هذا القانون الروماني القديم اتفاق الاشخاص في مسائل البيع والشراء والارث فلا يكفي لاجل اخذ حكم المحكمة الرومانية ان يعرض الانسان قضية بل يجب عليه ان يلفظ عدة كلمات ويقوم ببعض اشارات تقضي بها العادة وكل قضية تقام امام المحكمة يجري تمثيلها بالاشارات · فللمطالبة بشيء يمسكه المدعي بيده وللاحتجاج على جار رفع حائطه على جاره يرمون بحجر على هذا الحائط · وهاك مايجري اذا اختلف اثنان في ملكية حقل · يأخذ الخصمان بايديهما كأنهما يريدان ان يتضاربا ثم يفترقان ويقول كل منهما : « اصرح بان هذا الحقل لي بموجب حقوق الرومانيين فانا ادعوك باسم محكمة القاضي الى مكان الحقل ليفصل فيه بيننا » فيأمرهما القاضي ان يذهبا الى الحقل قائلاً لهما : اذهبا فهذا طريقكما امام الشهود الحاضرين · فيخطو المتخاصمان بضع خطوات كأنهما ذهبا وفي ذلك رمز الى ذهابهما · فيقول لهما احد الشهود : ارجعا · وبذلك اشارة الى انهما ذهبا الى الحقل فيقدم كل من الخصمين مدرة من التراب وهي اشارة للحقل · وهكذا تبدأ الدعوى وعندئذ يستمع القاضي للمتخاصمين · والرومانيون كسائر الشعوب القديمة لايحسنون فهم غير ما يقع تحت انظارهم فبالماديات يتمثلون الحق الذي لا يرى ·

ولقد كان الرومان يحترمون هذه الاشكال القديمة من الاحكام من وراء الغاية فكانوا في القضاء كما هم في الدين يطيعون نص القانون دون ان يهتموا بالبحث عن معناه وعندهم ان كل دستور مقدس تجب المبالغة في تنفيذه ومن الحكم الجارية في قضاياهم ان كل مايفوه به اللسان يكون حقاً · فاذا غلط صاحب الدعوى في ايراد مدعاه يخسر قضيته واذا اقام رجل قضيته على جاره لانه قطع له كرمه يجب ان تكون الصورة التي يوردها امام المحكمة حاوية لكلمة «شجرة» فاذا استعاض عنها بكلمة «كرم» لايحكم له ·

واحترام هذه المراسيم على اطلاقها فتح للرومانيين سبيل الوفاق الغريب في أمور كثيرة فالشريعة تقول ان الاب اذا اباع ابنه ثلاث مرات يحرر الولد من سلطة أبيه ومتى اراد روماني تحرير ابنه يبيعه ثلاث مرات متوالية وهذا العمل المضحك في بيعه يكفي لتحريره ·

وكانت الشريعة تقضي قبل البداءة بحرب ان يرسل مناد ينادي بها على تخوم العدو . ولما أرادت رومية اعلان الحرب على بيروس ملك ابير الذي كانت مملكته في عبر الادرياتيك رأت الحكومة الرومانية للقيام بهذه المصطلحات ان يبتاع احد رعايا بيروس . ربما كان من الآبقين من الجندية حقلاً من رومية فاوهموا بان هذا الحقل اصبح ارضا من بلاد ابير وراح المنادي يلقي فيها حربة ويدعو فيها للحرب علناً . وكان الرومانيون مثل جميع الامم الفتية يعتقدون باطلاً ان للمراسيم المقدسة فضيلة سحرية

الفقه — كانت شريعة الاثنتي عشرة لوحة والشرائع التي وضعت بعد موجزة ناقصة فكانت تعرض مسائل كثيرة لاحل لها في قانون من القوانين الموضوعة . ففي مثل هذه الاحوال الصعبة كانت العادة متبعة ان يعمد الى الاخذ برأي بعض اشخاص اشتهروا بمعرفتهم في مسائل الحقوق . وكانوا من اهل الاعتبار ومنهم قناصل قدماء او احبار فيكتبون آراءهم كتابة وتسمى فتاويهم اجوبة العقلاء . ومن العادة ان يكون لهذه الاجوبة شأن وقيمة لان اصحابها الحكماء على جانب من الاعتبار والحرمة . وقد زاد الامبراطور اغسطس بان عين بعض هؤلاء الحكماء وقرر ان تكون اجوبتهم قانوناً يعمل به . وعلى هذا صار الحقوق علماً وعلماء الحقوق او الفقهاء المشرعون يضعون القواعد الجديدة التي أصبحت سارية فنشأ بذلك علم الفقه

أمر القاضي — دعت الحال في رومية الى نصب حاكم اعلى لينفذ قواعد الحقوق المقدسة وللقنصل أو القاضي فقط ان يديرا شؤون محكمة او يحققان الحقوق . واذ كان القناصل يعنون بقيادة الجيوش فهم يعهدون في العادة بالنظر في الحقوق الى القضاة . وكان في رومية قاضيان حاكمان على الاقل يفصل احدهما في المسائل التي تحدث بين الوطنيين ويسمى قاضي المدينة وينظر الآخر في الدعاوي التي تنشأ بين الوطنيين والاجانب ويسمى قاضي الاجانب وهناك محكمتان لان الغريب لايحاكم امام محكمة الوطنيين .

وهذان القاضيان بالنظر لما لهما من السلطة المطلقة يفصلان القضايا على مايتراءى لهما . بل ان قاضي الاجانب لم يكن مقيداً بقانون لان الشرائع الرومانية لم توضع الا للوطنيين الرومانيين . ولما كان كل قاض يتولى منصبه في القضاء سنة واحدة فهو يكتب عند دخوله أمراً يبين فيه القواعد التي ينوي اتباعها في الاحكام ويسمون هذا الامر امر القاضي . وبعد سنة عند ماتنتهي مدة القاضي يسقط قانونه فيحق لخلفه ان يسن قانوناً مخالفا لقانون سلفه جملة واحدة ولكن جرت العادة ان يحتفظ كل قاض بما صدر عن اسلافه من الاوامر فيدخل فيها بعض التبديلات ويضيف اليها بعض زيادات . وهكذا تجمعت أوامر القاضي

قروناً . ثم انشأ الامبراطور هاردن في القرن الثاني « براءة القاضي » وجعلها قانوناً مرعي الاجراء .

واذ كان هنالك محكمتان منفصلتان احداها عن الاخرى وضعت قاعدتان متباينتان وقانونان مختلفان فتتألف من القواعد المتبعة التي يجري عليها قاضي المدينة في مسائل الوطنيين الحقوق المدنية أي حقوق المدينة ومن القواعد التي يجري عليها قاضي الاجانب تتألف حقوق الناس اي الشعوب (الغريبة عن رومية) فادرك القوم اذ ذاك ان اعدل هذه القواعد في الحقوق وابسطها واعقلها و بالاجمال افضلها الحقوق الاجنبية وان حقوق الوطنيين المأخوذة ضمن قواعد محصورة عن قدماء الرومان كان فيها خشونة وقواعد بربرية . اما حقوق الناس (الاجانب) فكان اساسها على العكس عادات التجار وعادات أناس من بلاد مختلفة نزلوا رومية وهي عادات سالمة من كل شائبة ووهم و ظني أخذت بكرور الايام واقرها الاختبار قروناً كثيرة . ورأى القوم كيف كانت الحقوق القديمة مخالفة للعقل . فقد جاء في بعض الامثال الرومانية «ان الحق الناصع هو الذي تنفذه سلطة عليا ظالمة » وعلى هذا أنشأ قضاة الوطنيين يصححون القانون القديم و يحكمون باحكام العدل حتى بلغوا بالتدريج ان ينفذوا في الوطنيين نفس القواعد التي كان قاضي الاجانب يجري عليها في محكمته .

مثال ذلك ان القانون الروماني يقضي ان يرث الاقارب من الذكور فقط الا ان القاضي دعا الاقارب من النساء ان يشتركن في الارث . ويقضي القانون القديم بان لايكون المرء صاحب ملك الا اذا قام بالاحتفال في المبيع فاعترف القاضي بانه يكفي المبتاع ان ينقد البائع ثمن ماابتاعه وان يضع يده على الملك حتى يعد مالكاً — وانت ترى ان حقوق الاجانب تغلبت على الحقوق المدنية وأبطلتها

القانون المسطر — أُنشئت الحقوق الرومانية على عهد الاباطرة خاصة فاصدر الاباطرة الانطونيون كثيراً من الاوامر والاوائح وكانت هذه رسائل تصدر عن الامبراطور جواباً عن الموظفين الذين يستطلعون طلع آرائهم فيساعدهم على القيام بهذا الاصلاح القضائي اناس من المتشرعين عندهم وظل بعض المشرعين في أوائل القرن الثالث زمن من حسنت سيرتهم او ساءت من الاباطرة يضعون القوانين الجديدة في الحقوق ويصلحون ماوجدوه منها قديماً . ومن أشهرهم بابنين واولبين ومودستين و بولس فان تآليفهم هي التي كانت أساساً للحقوق الرومانية بعد

وهذه الحقوق التي نظمت في القرن الثالث لاشبه بينها و بين الحقوق الرومانية القديمة بحال من الاحوال اذ القديمة لم تكن ترحم الضعفاء فاقتبس المتشرعون افكار فلاسفة اليونان

ولا سيما الرواقيين منهم وذهبوا الى ان الحرية حق طبيعي لكل من يولد حرًا أي ان العبودية مخالفة للطبيعة ولذلك رأوا انه يحق للعبد ان يطلب انصافه حتى من سيده وان هذا اذا قتل عبده يجب ان يعاقب عقاب القاتل وكذلك حموا الولد من ظلم ابيه

وهذا القانون الجديد هوالذي سمي بعد بالقانون المسطور وهو في الحقيقةقانون جروا فيه مع الفلسفة على نحو مايأمر به العقل الناس كافة ولذا لم يبق فيه اثر للقانون الجائر المعروف بقانون الاثنتي عشرة لوحة · فليس القانون الروماني الذي حكمت به بلاد الامبراطورية باسرها زمناًطويلاً ذاك القانون الذي لم يبرح بعضه داخلاً في قوانينتنا بل هوقانون قدماء الرومان وضع بحسب عادات جميع الشعوب القديمة ونسج فيه على مثال الحكم المأثورة عن حكماء اليونان ثم مزج كل ذلك مزيجًا واحدًا وكتبه اناس من الحكماء والفقهاء الرومانيين قرونًا طويلة

النصرانية

تعليم المسيح (عليه السلام) -- كان الاسرائيليون ينتظرون المسيح من نسل داود ملكاً لهم ومخلصاً فظهر عيسى في الناصرة في ولاية صغرى، من الشمال اسمها الجليل لاتكاد تعرف بانها يهودية · ولد من اسرة وضيعة تحترف بالتجارة · فسماه اتباعه من الروم المسيح اي الممسوح يعنون الملك الممسوح بالزيت المقدس كما دعي السيد والرب والمخلص · كلنا نعرف الديانة المسيحية · فيكفي اذًا ان نبين ماهي التعاليم الجديدة التي نشرتها في العالم · فقد اوصى المسيح اولاً بالمحبة فقال « انك تحب الرب الهك من كل جوارحك وفكرك وتحب قريبك كما تحب نفسك فجماع الشريعة وتعاليم الانبياء داخلة في هاتين الوصيتين »

فمن الواجب محبة الغير واسعافهم ومتى قضى الله بين عباده يجعل على يمينه من اطعموا الجياع وسقوا العطاش وكسوا العراة · ويقول المسيح لمن يريد اتباعه اولاً : « اذهب فبع مالك وادفعه للفقراء ولقد كان القدماء يعتبرون الشريف والغني والشجاع هو الرجل الصالح الا ان هذا الاسم تغير معناه منذ جاء المسيح فاصبح الرجل الصالح هو الذي يحب غيره · فعمل الخير هو محبة الغير والسعي في نفعهم · والاحسان (وهو باللاتينية مرادف للحب) اساس التقوى · وغدت لفظة محب مرادفة للفظة محسن · وضع المسيح تعليمه في الاحسان بدلاً من التعليم الاسرائيلي القديم في الانتقام فقال « عرفتم بانه قيل العين بالعين والسن بالسن اما الآن فاقول لكم اذا ضربكم احد على خدكم الايمن فقدموا له الايسر · وقيل احبوا قريبكم وابغضوا عدوكم اما انا فاقول لكم احبوا اعداءكم وافعلوا الخير مع من يبغضونكم وباركوا لمن يضطهدونكم لتكونوا ابناء ابيكم الذي في السماء الذي ينزل المطر على العادلين والظالمين

حتى ان المسيح وهو على الصليب استغفر لجلاديه فقال : اعف عنهم يارب فانهم لا يعرفون ما هم فاعلون » ٠

احب المسيح الناس قاطبة ٠ ومات لا من اجل شعب واحد بل من اجل الانسانية كلها ٠ وما قط ميز بين الاشخاص فكلهم سواء امام الله ٠ ولقد كانت الاديان القديمة حتى دين اسرائيل دين شعب يحتفظ به ويكتمه بعناية احتفاظه بكنز ثمين دون ان تحدثه نفسه في تبليغه شعباً آخر فقال المسيح لتلاميذه اذهبوا اذاً وعلموا جميع الامم ٠

وبعد ذلك قام بولس احد الحواريين وقرر تعليم المساواة النصرانية بقوله : « لم يبق اولون ولا آخرون كما لم يبق روم ولا يهود ولا مطهرون ولا قلف ولا برابرة ولا عبيد ولا احرار فقد اصبح المسيح هو الكل في الكل ٠ »

كان القدماء يذهبون الى ان الثروة تعلي شأن الانسان و ينظرون الى ان الكبر عاطفة شريفة فقال المسيح : « طوبى للفقراء فان لهم ملكوت السموات » « من لم يتنازل عما يملكه لا يكون تلميذاً لي » حتى انه هو ايضا كان يتنقل من مدينة الى مدينة ولا سبد له ولا لبد وعند ما كان تلاميذه يهتمون للمستقبل كان يقول لهم :« لا تقلقوا لما تأكلون ولا لما تلبسون والقوا بانظاركم الى الطيور في السماء فهي لا تزرع ولا تحصد ومع هذا فان اباكم السماوي متكفل برزقها »

فعلى المسيحي ان يحتقر الثروة وان يشتد في الازدراء بالعظمة ٠ كان تلاميذه يتنازعون ذات يوم فيمن يكون له المقام الاول في السماء فقال :« ان اعظمكم هو الذي يخدم غيره لان من يرتفع يسقط ومن يسقط يرتفع » وما زال البابا الى اليوم وهو خليفة القديس بولس يدعى بخادم خدمة المولى ٠ كان المسيح يؤثر ان يجتذب اليه المساكين والمرضى والنساء والاولاد بل والضعاف والمحرومين واختار حوارييه من عامة الناس وكان يكرر على مسامعهم « تلطفوا والينوا قلوبكم »

ملكوت الله — كان المسيح يقول انه جاء الى الارض ليؤسس ملكوت الله ٠ فظن اعداؤه انه طامع في ملك وعند ما صلب كتبت على صليبه هذه العبارة : « يسوع الناصرة ملك اليهود » وهذا كان خلاف ما يقصده ٠ فقد صرح المسيح نفسه بان ملكوتي ليس في هذا الارض ٠ فلم يجيء ليقلب الحكومات ولا ليصلح المجتمع واجاب من سأله فيما اذا كان يجب اداء الجزية للرومانيين بقوله : « ادفع ما لقيصر لقيصر وأد ما لله لله ٠ ولذا رضي المسيح بما رآه موجوداً وعمل على تهذيب نفسه وتكميلها لا على اصلاح المجتمع

ولاجل ان يفوز المسيحي بمرضاة الله و يكون اهلاً لبلوغ ملكوته لا يقتضي له ان يقدم

النذور ويقف عند حد ما رسمته الشريعة كما فعل الفريسيون اليهود او عبدة الارباب القديمة « فان المتعبدين الحقيقيين يعبدون اباهم بالفكر وبالحقيقة » وكلمة المسيح هي جماع آدابهم وهي : « كونوا كاملين مثل ابيكم الذي في السموات فانه كامل »

الحواريون — عهد الى الاثني عشر حواريًا الذين كانوا ملتفين حول المسيح ان يبشروا بتعاليمه في الامم باسرها . فدعوا بالحواريين (المرسلين) سكن معظمهم القدس ودعوا الى دينهم في ارض اليهودية . وكان المتنصرة الاول من الاسرائيليين .

وكان شاول اول من دان بالنصرانية وخف يحمل تعاليم هذا الدين الى امم الشرق فقضى بولس (هو الاسم الذي اتخذه احيانه يطوف المدن اليونانية في آسيا الصغرى و بلاد اليونان ومكدونية داعيًا الى الدين الجديد لا الاسرائيليين فقط بل ابناء الامم الاخرى قائلاً كنتم فيما سبق بدون المسيح بعيدين عن المحالفات والوعود وها قد التأم شملكم بدم المسيح لانه هو لا يميز بين الشعبين و ينظر اليهما كأنهما شعب واحد . ولم يعد من حاجة ان يكون المرء اسرائيليًا حتى ينتحل النصرانية فان الامم الاخرى التي نبذتها شريعة موسى قد تقاربت فيما بينها بفضل شريعة المسيح . وهذا الامتزاج هو بصنع القديس بولس ولذا سمي رسول الامم .

كان المنتحلون للنصرانية بادىء بدء من يونان آسيا الصغرى ثم تنصر كثيرون في جميع المدن الكبرى والى زمن طويل والطائفة المسيحية في رومية ايضًا مؤلفة من ابناء يونان . فانتشر دين المسيح اولا ببطء على نحو مابشر بذلك المسيح بقوله : « يشبه ملكوت الله حبة من الخردل فهي اصغر الحبوب ومع هذا ينبت منها نبات اطول من جميع البقول فتؤوي طيور السماء الى ظلها » .

الكنيسة الاصلية — كان المسيحيون في جميع البلاد التي نزلوها يجتمعون للصلاة جماعة وانشاد اماديح المولى وللاحتفال بالعشاء السري وهي اكلة يتناولونها بالاشتراك تذكارا لآخر اكلة للمسيح وتسمى اجتماعاتهم الكنيسة (المجلس)

ومن العادة ان يعامل المسيحيون في كنيسة واحدة بعضهم بعضًا معاملة الاخوة ويأتون بالعطايا لينفقوها على الارامل والفقراء والمرضى . واكثر رجالهم احترامًا بينهم الرهبان ومعنى ذلك القدماء يديرون شؤون الطائفة و يقومون بالفروض الدينية . ويتولى آخرون النظر في املاك الطائفة وكانوا يدعون الشمامسة (الملاحظون) ثم كثرت اعمال الكنيسة حتى انقسم سواد المسيحيين الى فرقتين احداهما جماعة المكلفين بالنظر في وظائف الطائفة وسموهم رجال الكهنوت (اي خدمة الرب) والباقون هم جمهور المؤمنين وسموهم العامة (العلمانيين)

كان لكل مدينة كنيسة مستقلة فيقولون كنيسة انطاكية وكنيسة كورنت وكنيسة رومية وكلها في الحقيقة كنيسة واحدة وهي كنيسة المسيح حيث كان يربط الجميع الاعتقاد بايمان واحد . فالاعتقاد العام او الكاثوليكي كان هو المعول عليه دون سواه اما الآراء الخاصة (الهرطقات والالحاد) فكان يحكم عليها بانها اوهام واغلاط .

وبقي الكتاب المقدس عند اليهود اي العهد القديم مقدساً عند المسيحيين وصار لهؤلاء كتب اخرى جمعتها الكنيسة في مصحف واحد وسمتها العهد الجديد . فالاناجيل الاربعة تقص حياة المسيح والبشارة بما حمله من السلام . واعمال الرسل تذكر كيف انتشرت هذه البشارة في العالم . ورسائل الرسل هي رسائل ارسلها الحواريون الى مسيحيي العهد الاول والابوكاليبسيس (رؤيا القديس يوحنا الانجيلي او الجليان) هو ما اوحاه القديس يوحنا الى السبع كنائس في آسيا . كتبت جميع كتابات العهد الجديد باليونانية وهي اللغة التي كانت لغة المسيحيين الى اواخر القرن الثاني وقد انتشر بين المسيحيين كثير من الكتب زعموا انها مقدسة فرفضتها الكنيسة كلها وسموها المزورة

الاضطهادات — اضطهدت الديانة المسيحية منذ ظهورها فكان اليهود اعداءها الأول اضطروا الحاكم الروماني في بلادهم الى صلب المسيح ورجموا القديس اتين (الشهيد الاول) واشتدوا في طلب القديس بولس وكانوا يقتلونه ثم وقع الاضطهاد على النصرانية من الرومان فان هؤلاء كانوا يتسامحون مع جميع اديان الشرق لان عبدة اوزيريس وميترا والربة الصالحة كانوا يعترفون بالاديان الرومانية مع اربابهم الا ان المسيحيين عبدة الله الحي كانوا يزدرون بالمعبودات الصغيرة القديمة بل ان الجريمة الكبرى التي تعد على المسيحيين في نظر الرومانيين انهم كانوا يأبون عبادة الامبراطور كما يعبد رب وان يحرقوا البخور على مذبح ربة رومية

وقد اصدر كثير من الامبراطرة أوامر الى ولاتهم يأمرونهم بالقبض على المسيحيين واعدامهم . وقد كتب بلين وكان والياً في آسيا الى الامبراطور تراجان كتاباً يدل على الطريقة التي كان يعامل بها المسيحيون قال : «جريت الآن مع من اتهموا بانهم نصارى على الطريقة الآتية وهو اني أسألهم عما اذا كانوا مسيحيين فاذا اقروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهدداً اياهم بالقتل فان اصروا أنفذ عقوبة الاعدام عليهم مقتنعاً بان غلطهم الذي يعترفون به مهما كانت فظاعته وان عنادهم الشديد وعدم طاعتهم يستحقان العقوبة . وقد وجهت الشكوى الى كثيرين بكتب لم تذيل باسماء اصحابها فانكروا بانهم نصاري وكرروا الصلاة على الارباب الذين ذكرت اسماءها امامهم وقدموا الخمر والبخور لتمثال

اتيت به عمداً مع تماثيل الارباب بل انهم شتموا المسيح . ويقال ان من الصعب اكراه النصارى الحقيقيين . ومنهم من اعترفوا بانهم نصارى ولكنهم كانوا يثبتون بان جريمتهم وخطأهم محصوران في انهم اجتمعوا بعض ايام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على انه رب' وعلى انشاد الاناشيد اكراماً له وتعاهدوا بينهم مقسمين الايمانات لا على ارتكاب جريمة بل على ان لا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزنوا و يوفوا بعهودهم . ورأيت من الضرورة للوقوف على الحقيقة ان أعذب امرأتين أمتين دعوهما خادمتي الكنيسة بيد اني لم اقف على شيء اللهم الا ما كان من خرافة سخيفة مبالغ فيها »

وعلى هذا فقد كانت الحكومة هي المضطهدة (١) الا ان العامة في المدن الكبرى كانوا اكثر اضطهاداً للمسيحيين فلم يكونوا يتسامحون مع هؤلاء الذين يعبدون الها آخر غير اربابهم و يحتقر هذه الارباب و يرون ان انكار المسيحيين لما يعبد الرومان يجلب على العامة غضب هذه الارباب . وكنت تسمع القوم اذا وقع قحط ومجاعة ووباء يهتفون هتافهم الذي اشتهر امره «النصارى للاسود» والشعب يكره الحكام على البحث عن المسيحيين ومطاردتهم .

الشهداء — هلك الوف من المسيحيين في خلال قرنين ونصف نالهم فيها الاضطهاد في طول المملكة الرومانية وعرضها وكان الهالكون من كل سن وجنس وطبقة . فالوطنيون الرومانيون تضرب اعناقهم كما جرى للقديس بولس والباقون يصلبون و يحرقون وكثيراً ما يلقون للوحوش الكاسرة تنهشهم . واذا ابقوا عليهم يبعثون بهم الى الاعمال الشاقة في المناجم وكثيرا ما كانوا يبالغون في عقاب النصارى بايجاد وسائل لاهلاكهم من كل نوع . ففي المقتلة العظمى التي وقعت في ليون سنة ١٧٧ اخذ المسيحيون بعد ان عذبوا وسجنوا في مطبق ضيق الى الملعب فاخذت الحيوانات الكاسرة تمزق اوصالهم ولا تقتلهم ثم اجلسوهم على كراسي من حديد محماة بالنار . واذ قاومت فتاة من الإماء اسمها بلاندين ان تعذب على هذه الصورة جعلوها في شبكة ووضعوها امام ثور غضبان .

وكان المسيحيون يتلقون بسرور هذا التعذيب الذي يفتح لهم ابواب السموات و يرون فيه وسيلة الى الاستشهاد علناً في حب المسيح ولذلك كانوا يسمون انفسهم بالشهداء (اي الشهود) لا بالمنكوبين وعقوبتهم شهادة . بل انهم كانوا ينظرون الى تعذيبهم نظرهم الى قتال الالعاب الاولمبية و يرون انهم كالمصارع الظافر يلون المختار والتاج . وما برحوا حتى اليوم يحتفلون بعيد الشهداء واعيادهم موافقة للايام التي قتلوا فيها وكثيراً ما كان احد من

---

(١) تقول الكنيسة ان المسيحيين اضطهدوا مرات الاولى على عهد نيرون (٦٤) والثانية على عهد ديوكلسين (٣٠٣)

يحضرون تعذيب احد الشهداء يكتب قصته وكيفية توقيفه واستنطاقه وتعذيبه وعقوبته وهذه الكتابات على اختصارها طافحة بالعبرة وكانت تسمى اعمال الشهداء وتنتشر حتى بين الطوائف البعيدة من اقصى المملكة الى اقصاها وما هي الا مرددة للمجد الذي احرزه المعترفون بالايمان الصحيح وداعية الى الترغيب في الجري على مثالهم

ولقد حدا حب الشهادة بالوف من المسيحيين ان يعلنوا امرهم بانفسهم ويطالبوا بالحكم عليهم وامر احد حكام آسيا ذات يوم بالقاء القبض على بعض المسيحيين فجاء جميع متنصرة المدينة يتقدمون المحكمة طالبين اليها محاكمتهم · فاستشاط الوالي غضباً فقتل بعضهم وطرد الآخرين قائلاً : «ارجعوا اليها الاسافل ان كنتم تحرصون كثيراً على الموت فهل عندكم قبور تسعكم وحبال تقيدكم» وكان بعض المسيحيين يدخلون المعابد ويقلبون فيها اصنام الارباب ليكونوا على ثقة من انهم يشنقون حتى قضت الحال ان تمنع الكنيسة مرات تعرض النصارى لنيل الشهادة

الدياميس -- كان المسيحيون ينكرون العادة القديمة في احراق الموتى فاخذوا يدفنون موتاهم كاليهود في نواويس بعد ان يكفنوهم في اكفان فاحتاجوا الى قبور · واذ كانت الارض غالية الثمن جدا نزل المسيحيون الى تحت الارض وحفروا في الارض الرخوة التي كانت رومية قائمة عليها دهاليز طويلة وغرفاً ارضية وهناك كان المسيحيون في مقاصير احتفروها على طول الحواجز يدفنون موتاهم واذا اخذ كل جيل يحتفر لنفسه دهاليز جديدة صارت تحت الارض مع الزمن مدينة ارضية سموها الدياميس · ومثل هذه الدياميس كان في نابولي وميلان والاسكندرية الا ان اشهرها دياميس رومية · وقد فتحت في ايامنا فرأوا فيها الوفاً من القبور والكتابات النصرانية وباكتشاف هذا العالم المدفون تحت الارض نشأ فرع جديد من فروع العلوم التاريخية وهو علم الكتابات والآثار النصرانية · وقد شوهد ان قاعات المدافن في الدياميس منقوشة برسوم بسيطة وصور ولكنها تمثل مشاهد واحدة الا قليلاً وهي اما ان تصور المؤمنين من المسيحيين في الصلاة او الراعي الصالح وهو رمز للمسيح · وكانت بعض هذه القاعات اشبه بالمعابد وفيها دفنوا جثث القديسين الشهداء والمؤمنين الذين رغبوا في ان يدفنوا في جوارهم وكانوا يأتون كل سنة لتناول الاسرار · وكثيراً ما التجأ المسيحيون في رومية خلال اضطهادات القرن الثالث الى هذه الكنائس الارضية للقيام بصلواتهم او للفرار من الطلب عليهم ·

قسطنطين

تغلب النصرانية — مضى القرنان الاولان للميلاد والمسيحيون ضعاف الشأن في

الامبراطورية الرومانية وجمهورهم من السوقة والحملة والعبيد المعتقين والعبيد ممن يضيعون في غمار الناس بالمدن الكبرى وقد مضى زمن والطبقة العالية تنكر وجودهم حتى ان سويتون في القرن الثاني لما تكلم في تاريخ القياصرة على المسيح قال انه رجل اسمه كريستوس يلقي الاضطراب بين سكان رومية . ولما اخذ الاغنياء والادباء يعنون بامر الدين الجديد لم يكن ذلك منهم الا ليهزؤا به ولا يذكرونه الا انه دين فقراء وجهلة . واذ جاءت النصرانية لمساكين هذا العالم بان وتدتهم الجزاء عن هذه الحياة في الآخرة كثر اتباعها والقائلون بالتدين بها ولم تحل الاضطهادات دون انتشارها بل قوتها وبعثت كلمتها فقد كان المسيحيون يقولون ان دم الشهداء بذر للمسيحيين ولقد ظل الاهتداء الى النصرانية ينتشر خلال القرن الثالث كله بين رجال الاسرات الكبرى لا بين الفقراء فقط وما جاءت اوائل القرن الرابع الا وقد اصبح الشرق كله اي البلاد التي تتكلم باللغة اليونانية مسيحيًا بأسره

وكانت هيلانة ام الامبراطور قسطنطين مسيحية فجعلتها الكنيسة في مصاف القديسات ولما زحف هذا الامبراطور على مزاحمه ملك رومية وضع على علمه شارة الصليب وشعار المسيح وكانت الغلبة التي كتبت له غلبة للنصرانية فسمح للنصارى ان يقوموا بشعائر دينهم دون ان يعارضهم احد (بامره الصادر سنة ٣١٣ ثم اخذ يعطف عليهم جهارًا . ومع هذا لم يتخل عن الدين القديم (الوثنية) . فبينا كنت تراه يرأس مجلس اساقفة المسيحيين الاعلى كان يلقب بلقب الحبر الاعظم ويحمل على خوذته مسمارا من الصليب الحقيقي ونقوده منقوش عليها صورة رب الشمس . وقد انشأ في مدينة القسطنطينية كنيسة نصرانية كما أنشأ معبدًا تذكارًا لهذه الغلبة . ومضى نصف قرن كان فيه من الصعب معرفة دين المملكة الرسمي في الامبراطورية .

تنظيم الكنيسة — لم يخطر في بال المسيحيين حتى في الازمان التي نالهم فيها الاضطهاد ان يقلبوا كيان الامبراطورية ومنذ بطل اضطهادهم اصبح اساقفتهم حلفاء الامبراطور وعندها انتظمت حالة الكنيسة المسيحية بصورة قطعية على الصورة التي بقيت عليها الى يومنا هذا . فصار لكل مدينة اسقف يقيم في الحاضرة ويحكم على المسيحيين التابعين لها وتسمى الارض الخاضعة لاسقف ابرشية . وكان في اقطار الامبراطورية الرومانية ابرشيات واساقفة على قدر ما فيها من مدن وهذا هو السبب الذي من اجله كان الاساقفة كثيرين والابرشيات صغيرة في الشرق وفي ايطاليا حيث كثر عدد المدن . وعلى العكس في مدن غاليا فانه لم يكن بين الرين والبيرنيه سوى ١٢٠ ابرشية ومعظمها ما عدا ابرشيات الجنوب في الجسامة كولاية .

اصبحت كل ولاية مقاطعة كنائسية وسمي اسقف العاصمة اسقف المركز بعد رئيس الاساقفة . وكثيراً ما ينظر الى اسقف اعظم مدينة في بقعة بانه ارقى الاساقفة في تلك الارجاء وكان اساقفة المدن الرئيسة بالشرق في القدس وانطاكية والاسكندرية والاستانة يدعون بالبطاركة وفوقهم كلهم البابا اسقف رومية وهو الرئيس الاعظم في الكنيسة . وفي هذا القرن انشئت المجامع الدينية الكبرى مكان في آسيا الصغرى اولا مجامع خاصة يجتمع فيها اساقفة ناحية من النواحي وكهنتها . وفي سنة ٣٢٤ دعا قسطنطين للمرة الاولى مجمعاً دينيا عاماً من اهل الارض الى مدينة نيقية في آسيا الصغرى فحضره ٣١٨ رجلاً من رجال الكنيسة فتناقشوا في المسائل اللاهوتية وانشؤا الاعتراف بايمان الكاثوليك الذي سموه قانون نيقية وما زال المسيحيون ينشدونه الى اليوم في قداس كل احد . ثم كتب الامبراطور الى عامة الكنائس ان تمتثل ارادة المولى التي تجلت فيما اجمع عليه المجمع العام وكان هذا هو المجمع المسكوني الاول . واصبحت القرارات التي تقررها المجامع شريعة يجب على المسيحيين قاطبة ان يعملوا بها وسموها القوانين او القواعد . ويتألف من مجموع هذه القواعد القوانين الكنائسية .

الملاحدة (المراطقة) نشأ منذ القرن الثاني بين المسيحيين ملاحدة يخالفون في آرائهم السواد الاعظم من ابناء الكنيسة . وكثيرا ما اجتمع الاساقفة في بلد ليعلنوا للمؤمنين بان المذهب الجديد باطل ويكرهوا مبتدعه على الرجوع عنه واذا ابى يخرجونه من الوحدة المسيحية . وقد يستجيش صاحب البدعة اعواناً يقتنعون بصحة دعوته فلا يرون الرجوع عما وافقره عليه ويظلون يدينون بما حكم المجمع برده من الآراء . ومن هنا نشأت العداوات والفتن الشديدة بينهم وبين المسيحيين المتعلقين برأي الكنيسة (الارثوذكس) واذ كان المسيحيون ضعافاً ومضطهدين لم يتنازعوا بينهم الا بالكلام والكتابة ولكن لما اصبحت البلاد مسيحية كلها استحال النزاع بين المسيحيين والمخالفين منهم في بعض الآراء الى اضطهاد الملاحدة وكثيراً ماتنشب منه حروب اهلية .

وتكاد تنشأ جميع البدع في ذاك العهد بين يونان آسيا ومصر على يد اناس من الاذكياء والسفسطائيين والجادلين وقد نشأت تلك البدع في العادة من محاولة فهم اسرار التثليث والتجسد . وكانت بدعة آريوس اقوى جميع البدع فمن مذهبه ان الله الآب خالق المسيح وليس هو مثله فحكم المجمع النيقي بتبديعه ولكن مذهبه انتشر في بلاد الشرق عامة . ومذ ذاك العهد ظل الكاثوليك والآريوسيون يتنازعون بينهم ايهم يستأثر بالسلطة في الكنيسة والحزب الاقوى يعزل وينفي ويحبس واحياناً يذبح زعماء الحزب المخالف . ومضى زمن

والقوة للآريوسيين وقد تحزب لقولهم عدة من الامبراطرة ثم ان الآريوسية كانت تقوى بكثرة دخول البرابرة في الامبراطورية وتمذهبهم بهذا المذهب ومعاضدتهم لاساقفته . فقضى الكاثوليك زهاء مائتي سنة حتى قضوا على هذا المذهب المبتدع .

اواخر ايام الامبراطورية

لما ذبح الجنود اخوة قسطنطين وابناء اخته سنة ٣٣٨ افلت منهم طفل في السادسة من عمره اسمه جولين فجعله الامبراطور نسيبه في اقاصي آسيا الصغرى ورباه على يد قسيسين مسيحيين فبعث به هؤلاء الى قبر الشهداء ينشد المزامير ويتلو الكتاب المقدس امام الشعب ولما شب رخص له بالقدوم الى الاستانة فانشأ يدرس كتب ملفاء الروم وفلاسفتهم واولع باحد الفلاسفة الافلاطونيين فانصرفت نفسه عن النصرانية . واتم دروسه في آثينا وتعلم فيها اسرار معبد الوزيس ثم جاهر بانه من اشياع الدين القديم علناً واخذ يحتفل بعبادة الارباب فلقبه المسيحيون بالمرتد .

كان جولين آخر من بقي حياً من الاسرة الامبراطورية واذ لم يكن للامبراطور قسطنطين وارث يرثه غير هذا اجمع امره على ان يلقبه باسم قيصر وبعث به قائداً على جيش غاليا (٣٥٥) وكانت البرابرة قد هاجمت هذه البلاد وجاءت عصابة من الالمانيين على مقربة من مدينة اوتون . واذ لم يكن لجولين خبرة بالحرب انصرفت همته الى درس الفلسفة فصرف شتاء بطوله في تعلم صناعة الكر والفر وانشأ يريض نفسه ويتمرن ويتلو سيرة مشاهيرة الغزاة فلما تم له ذلك حمل على الالمان في جيش صغير من المشاة الرومانيين والفرسان البرابرة فكتب له الظفر في الحملة الثانية في سهل بالقرب من مدينة ستراسبورغ وركب اكتاف الالمان ورجعوا يجتازون نهر الرين (٣٥٧) وقضى جولين في غاليا ثلاث سنين اخرى وجعل مشتاه في بلدة لوتيس حاضرة الشعب البار يزي وهي مبنية في جزيرة من جزر السين وكان يدعوها «لوتيس المحبوبة» وهو اول من وصفها .

وفي هذه المدينة اتاه امر الامبراطور ان يبعث اليه بقسم من جيشه الى الشرق ليقاتل البارثيين الذين داهموا بلاد الامبراطورية فلم ير الجند ان يبتعدوا عن بلادهم الى مثل تلك القاصية وابوا ان يقاتلوا ثم اخذوا جولين ورفعوه على ترس (وكان هذا الاسلوب هو الذي يجري عليه المحاربون الجرمانيون في مبايعة ملوكهم) وحملوه وهم ينادون «جولين اغسطس» (٣٦٠)

فكتب جولين الى الامبراطور يريده على ان يرتضيه رديفاً له فابى قسطنطين عليه ذلك فزحف جولين في جيشه على القسطنطينية وكان قسطنطين قضى نحبه قبل وصوله (٣٦١) ولما خلا الجو لجولين واصبح امبراطوراً وحده اقام في الشرق وحاول ان يعيد الدين

القديم (الوثنية) فارجع الى الكهنة املاكهم ومناصبهم واعاد تقديم النذور الارباب بل اصدر امره الى المسيحيين بان يرجعوا المعابد التي كانوا حولوها الى كنائس

وانشأ يناهض النصرانية مباشرة وابى ان يعين المسيحيين في الوظائف وطرد المعلمين المسيحيين من المدارس قائلاً انه لا يحق لهم ان يدرسوا كتباً يذكر فيها اسم الارباب وهم لا يعتقدون فيها . وسعى الى اعادة الدين القديم الى حاله بان عهد الى الكهنة ان يقرؤا على العامة مواعظ ودروساً دينية الا ان الزمن خانه فسافر في حملة على البارثيين وغلبهم واصيب بسهم في احدى المعارك . وقيل انه صرخ وهو يجود بنفسه «لقد غلبتَ ياغاليلي !»

القضاء على الوثنية — لم يقض على دين السوقة القديم لاول مرة فقد اهتدى الشرق في الحال اما في الغرب فلم يبق مسيحيون الا في المدن بل ان الامة ظلت هنا أيضاً تعبد الاصنام وذلك لان الاباطرة الاول المسيحيين لم يريدوا ان يقضوا القضاء الاخير على دين المملكة القديم بل كانوا يحمون القسيسين المسيحيين كما يحمون كهنة الارباب يرأسون المجامع الدينية ويبقون احبارا عظاما . وكان الامبراطور فراسين سنة ٣٨٤ اول من ابى أن يلقب بالحبر الاعظم واذ عمَّ التسامح في ذاك القرن بديء باضطهاد الدين الروماني منذ غدا غير رسمي . واطفيء الموقد المقدس الذي كان يشتعل في رومية منذ احد عشر قرناً وطردت الكاهنات اللاتي كن في معبد فستا يوقدن النار كلما خمدت . واحتفل آخر مرة بالالعاب الاولمبية في بلاد يونان سنة ٣٩٤ . وعندئذ خرج النساك في مصر من الصحراء لينقضوا مذابح الارباب المزورة ويجعلوا بقاياها في قبور انوبيس وسيرابيس . وقام وارسل الاسقف السوري في مقدمة عصابة من الجند والمشعوذين فخرب معبد المشتري في افامية وأنشأ يجوب البلاد ويخرب المزارات فقتله الفلاحون فجعلته الكنيسة من القديسين

فما هو الا قليل حتى لم يبق عبدة اوثان الا في القرى يأوون اليها فراراً من المراقبة وهم فلاحون ممن بقوا يعبدون الاشجار المقدسة والينابيع ويجتمعون في المزارات البعيدة . واخذ المسيحيون يطلقون اسم الوثنيين (الفلاحين) على من كانوا سموهم الى ذاك العهد بالظرفاء وبقي ذاك الاسم يطلق عليهم . وهكذا اشتدت الحال على الوثنية في ايطاليا وغاليا واسبانيا الى اواخر القرن الرابع وطوي بساطها تحت طي السكوت .

التنظيم الجديد في الامبراطورية

رومية والقسطنطينية — خرب الغرب وقلَّ سكانه في القرن الثالث بما تواتر عليه من الحروب والغارات فاصبح الشرق اليوناني القسم المهم من الامبراطورية . وكان ديوكلسين قد تخلى عن رومية وجعل عاصمته في نيكوميديا في آسيا الصغرى . اما قسطنطين فتوسع

في الامر اكثر من ذلك فانشأ رومية جديدة في الشرق وكانت القسطنطينية على رأس من انجر في محل لا يفصل اوربا عن آسيا غير خليج البوسفور الضيق في ارض كثيرة الكروم والغلات وتحت سماء صافية الاديم وانشأ طوارىء من الروم مدينة بيزانس وكان لها من الاكام ما يجعلها سهلة على الدفاع ومرفأ وهو المعروف بقرن الذهب من احسن مرافىء العالم يؤوي ١٢٠٠ سفينة ويمكن سده بسلسلة طولها ٢٥٠ متراً الثلا تتخطاه اساطيل العدو . فهناك أنشأ قسطنطين مدينته الجديدة القسطنطينية (مدينة قسطنطين) وجعل في اطرافه اسواراً عالية وانشأ فيها ساحتين اثريتين تحيط بهما اروقة . وأنشؤا فيها قصراً وملعباً ودور تمثيل واقنية وحمامات ومعابد وكنيسة مسيحية

ونزع قسطنطين من المدن الاخرى ما كان فيها من التماثيل والنقوش البارزة المشهورة ليزين بها مدينته ولاجل اسكانها نقل اليها سكان المدن المجاورة بالقوة وقدر مكافآت والقاب تشريف للأسر الكبرى التي تنتقل اليها وقرر كما كان الحال في رومية توزيع الحنطة والخمر والزيت على الناس وتوفير المشاهد والفرج لهم

فكان تأسيس تلك العاصمة من السرعة الغريبة على نحو ما يحب القوم في الشرق فبدأ العمل بذلك في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٣٢٦ واحتفل بافتتاحها في ١١ ايار (مايو) سنة ٣٣٠ ولكن اسست بحيث تبقى على الدهر فقد صبرت القسطنطينية على هجمات المهاجمين عشرة قرون وبقيت بمقام عاصمة ابداً والمملكة الرومانية تمزق ولا تزال الى اليوم اول مدينة في الشرق

ولما ترك الامبراطور رومية لم تعد مقراً للحكومة وظل فيها مجلس اعيانها وان لم تعد له سلطة وبقيت مزاراتها واحتفالاتها كما بقيت الى اواخر القرن الرابع مركز الحزب الديني القديم .

القصر ـ اخذ الامبراطرة الذين نزلوا الشرق في التعود عاداته (١) وانشؤا يلبسون ثياباً ضافية من الحرير والقصب ويجعلون على رؤوسهم تاجاً مرصعاً باللؤلؤ ويحتجبون في قصورهم حيث كانوا يجلسون على عرش من ذهب يحف بهم وزراؤهم ويفصلهم عن الناس جمهور من الحشم والخدم والموظفين والحرس . وعلى من ينال شرف الحظوة من

---

(١) كثيراً ما يتولى الامبراطورية اثنان احدهما في الشرق والآخر في الغرب وان تكن المملكة واحدة . فالامبراطوران وان كان احدهما ينزل الاستانة والآخر ايطاليا كانا يعتبران بان يكونا كشخص واحد . فكان القوم اذا خاطبوا احدهما يخاطبونه بالجمع فيقولون له انتم كأنهم يخاطبون الامبراطورين كليهما وهكذا نشأت عادة الخطاب بالجمع للمفرد لان الناس في القديم كانوا يخاطبون بصيغة المفرد «انت» حتى الملوك والامبراطرة

مواجبتهم ان يسجد امامهم و يمرغ وجهه في الارض علامة العبادة والخضوع و يطلقون عليهم القاب «المولى» و«الجلالة» و يعاملونهم معاملة الارباب وكل ما يمس اشخاصهم مقدس فيقولون القصر المقدس والغرفة المقدسة . ومجلس الامبراطورية المقدس والخزانة المقدسة .

فكان عيش الامبراطور في الامبراطورية الغربية (ايطاليا) من القرن الاول الى الثالث اشبه بحياة حاكم او قائد اما قصر الامبراطور في الامبراطورية الشرقية (القسطنطينية) فهو اشبه بقصر ملك فارس . وقد أطلق على طريقة الحكم في الامبراطورية الشرقية اسم الامبراطورية الواطئة معارضة لطريقة الحكم السالفة في القرون الثلاثة التي لقبوها بالامبراطورية العالية .

الموظفون — اصبح الموظفون اكثر عدداً مما كانوا ويحف بالامبراطور جيش صغير من الخاصة يحرسون قصره وهناك حرس وقرناء وكلاء وخدم ومجلس عال وحجاب وسماة وامناء سر ينقسمون الى اربعة مكاتب . واصبح الموظفون في الولايات اكثر سواداً ايضاً اذ رأى الامبراطور ديوكلسين الولايات متسعة فقسمها الى عدة قطع ففي غاليا مثلاً قسم ولاية ليون الى اربع واكيتين الى ثلاث . وبعد ان كان في الامبراطورية ٤٦ والياً اصبح فيها ١١٧ ثم فصلوا الوظائف فجعلوا مع الولاة والوكلاء قواداً عسكريين من دوقات وكنتية في الولايات الواقعة على التخوم .

واصبح جميع الموظفين لا تصلهم اوامر الامبراطور مباشرة فلا يخاطبون الا كبار الموظفين رؤساءهم . فيخضع الولاة لقائدي حرس القيصر والموظفون في الاشغال العمومية لحرس المدينة . وجباة الاموال الى الكونت الذي يتولى الاعطيات المقدسة . والوكلاء للكونت المشرف على الاملاك والضباط الى موالي الاجناد وجميع موظفي القصر يرجعون الى مولى التشريفات وخدمة القصر الى رئيس الغرفة المقدسة . وهؤلاء الرؤساء كالوزراء

وهذه الطريقة لا يصعب علينا فهمها فقد اعتدنا ان نرى موظفين وقضاة وقواداً وجباة ومهندسين على اختلاف في اعمالهم التي يتولونها ولكل واحد عمله الخاص ويرجع امرهم الى ناظر هو رئيس ديوانه . بل ان عندنا من النظارات اكثر مما في الاستانة . الا ان هذه الاداة الادارية التي ألفناها لاننا نعرفها منذ الطفولة ليس فيها التباس ولا خروج عن حد الطبيعة . فقد كانت الامبراطورية الشرقية انموذجاً في هذا الباب واحتفظت به المملكة البيزنطية ومن ذلك العهد حاولت جميع الحكومات المطلقة ان تنسج على منوالها لان في ذلك من التسهيل في العمل ما ينتفع به من يتولون اعمال الحكم .

المجتمع في الامبراطورية الشرقية — كانت هذه الامبراطورية هي الحد الفاصل

في تاريخ الحضارة اجتمعت فيها سلطة الحاكم الروماني المطلقة مع نفخة ملوك الشرق يتألف منهما سلطة لم يكن بها عهد الى ذاك العهد . وهذه السلطة التي لم يسمع بمثلها تأتي على كل شيء في يدها فلم يعد سكان الامبراطورية وطنيين رومانيين منذ القرن الرابع بل صاروا يدعون باللاتينية الرعايا (الخاضعون) وبالرومية « العبيد » فكانوا كلهم من ثم عبيد الامبراطورية ولكنهم يختلفون في المقام وهم درجات في الشرف الذي يوليهم اياه مولاهم ويورثونه ابناءهم واليك تلك المناصب بحسب درجاتها .

(١) اشرف الاشراف وهم الاسرة الامبراطورية

(٢) المشاهير وهم وزراء رؤساء الدواوين

(٣) المعتبرون وهم كبار ارباب المناصب

(٤) الممجدون وهم كبار الموظفين (ويدعون الاعيان)

(٥) اهل الكمال

ولكل صاحب شأن مقامه ولقبه ووظائفه . واكثر الناس احتراما الندماء والموظفون حتى صح ان يدعى ذاك العهد عهد الالقاب والتشريفات . وما فقط شوهد الى اي حد تبلغ السلطة المطلقة اذا دعمها الجنون في الالقاب والميل الى ترتيب كل امر بالاكثار من القوانين وعليه فقد كانت الامبراطورية الشرقية مثالا تاما لمجتمع يدار بالآلة العمياء والحكومة فنيت في ارادة قيصرها فجازت اقصى ما يتطالى اليه حتى اليوم انصار السلطة المطلقة وسيكافح بعد اشياع الحرية زمنا طويلاً تلك التقاليد التي ابقتها امبراطورية الشرق .

حكومة المدينة -- لم يعن الرومان بجباية اموال الرعايا بانفسهم بل كان الامبراطور يكتفي ببيان الخراج المطلوب من كل ولاية (وذلك كل خمس سنين في الغالب) ويحدده كما يريد . ويعلم الوالي كل مدينة ما يجب عليها اداؤه . فحكومة المدينة هي التي تقدم المبلغ المطلوب . وما دامت المدينة غنية يجبي الوالي خراجها موزعاله بين السكان فاذا عجزوا عن الدفع يحتم على من تولوا الخراج ان يسدوا العجز لانهم مسئولون عن الخراج وخزانة الامبراطورية لا تتنازل عن حقوقها .

ولقد كان منصب الجباية حتى القرن الثالث مرغوبا فيه كانه من أسباب الشرف فيعد الجابي في مدينته كعضو الشيوخ في رومية . واذا افتقرت البلاد يعود منصب الجباية من المناصب التي تكسر متوليها فتزهق النفوس في توليتها . فرأى الاباطرة ان يسنوا قانونا لعقاب من يأبى جباية الخراج فصار الجابي يتولى ذاك رغم أنفه ويجب على كل من يملك خمسة وعشرين فدانًا من الارض ان يكون احد الجباة طوعًا أو

كرهاً . وكثير من الجباة كانوا يؤثرون ان يخرجوا عما يملكون من الاراضي ويهربوا ويدخلوا في سلك الرهبنة والخورنة او الاستخدام والجندية . فأصدر الامبراطرة اوامرهم بالبحث عن هؤلاء الفارين وان يعادوا الى مدنهم بالقوة . وقد جاء في احد القوانين المسنونة انهم عبيد الامبراطورية

فكانت الحكومة تحاول ان تبقي مجالس الشيوخ في المدن على هذه الكيفية واذ كانت تخرب بيوتهم بخراجها اصبح عدد الجباة ابداً في قلة . وكان مجلس الشيوخ يتألف على عهد الامبراطورية الغربية من مئة عضو . وفي القرن الرابع نشبت فتن في احدى الولايات فأمر احد الامبراطرة ان يأتوه برؤوس ثلاثة من الجباة من كل مدينة فكتب اليه الوالي « ليسع حلمك ان يقرر ما الذي يجب ان نعمله في المدينة التي ليس فيها ثلاثة من الجباة »

المستعمرون - وقع في الامبراطورية الرومانية مثل ما وقع في عامة المجتمعات القديمة مثل اسبارطة ويونان وايطاليا وهو ان يضمحل الاحرار ويخلفهم العبيد ولم يبق في القرى ما يكفيها من الحراثين . لاجرم ان المدينة الرومانية لم تخرب بل كانت آخذة بالنماء . فقد كان عدد الوطنيين في القرن الاول زهاء مليون نسمة وفي القرن الثالث(٢١٢)وقد صدر أمر الامبراطور بمنح جميع سكان الامبراطورية حق الوطنية فصار الوطنيون الرومانيون يعدون بالملايين (١) وينمون باضمحلال سائر سكان العالم بيد ان الحكم الروماني كان سبباً في اضمحلال شعوب المملكة كما اضمحل به من قبل اهل ايطاليا وكان يقتضي له كثير من الجنود وكثير من العبيد

وبهذا الحكم يفلح الاغنياء ويصعب على صغار ارباب الاملاك ان يقفوا امام الكبراء فيستخدمون في الجندية او يخربون بيوتهم بأيديهم . ويقتني صاحب الاملاك الواسعة اراضيهم حتى أتى زمن لم يبق في بعض البلاد غير املاك واسعة يحرثها العبيد . وهؤلاء السكان من العبيد لا يتجددون فاذا عرض عارض من العوارض المألوفة اذ ذاك من مثل وباء وحرب وغارة برابرة وهلك جمهور من الحراثين في احدى الاملاك تبقى الارض بورا

تخلت القرى على التدريج ولا سيما ما كان منها على التخوم من الناس ولم يبق سكان الا في المدن بل صار في عدة انحاء من المملكة قفار حقيقية خلت من السكان والعمران

(١) كان سكان المملكة يدعون كلهم بالرومانيين منذ ذلك العهد ولما دخل البرابرة الى غاليا لم يجدوا فيها غاليين بل رومانيين حتى كان الشعب في الشرق حيث كان السكان يتكلمون باليونانية يدعى الى عهد الفتح العثماني بالشعب الروماني وما زالت الى اليوم بلاد الاستانة تدعى روم ايلي

وانشأ الامبراطرة يسكنون فيها عصابات من البربر ممن ضربوهم وأمروهم ليحيوا بهم موات تلك القرى . الا ان هؤلاء البرابرة لا يملكون الاراضي بل يستعمرونها فقط مثل الهيلوتيين في اسبارطة ويقضي عليهم ان يقوا في الارض التي أنزلوا فيها لا يفارقونها ولا اولادهم بحال يؤدون الى صاحب الارض مالاً مقررا فمن ثم كانوا مستأجرين الى الابد بالقوة . وليس هذا النظام جديدا بل كان في ايطاليا على عهد الامبراطورية الشرقية أناس من الطواريء من الاحرار الفقراء قيدوا انفسهم في خدمة صاحب ملك عظيم لينالوا منه أرضا يزرعونها . وزاد سواد هؤلاء الطواريء زيادة كبرى لما ضموا اليهم الاسرى من البربر

وهذه الطريقة الشديدة لم تكف في احياء امة لان اولئك الحراثين كانوا يفرون او يهلكون وفي القرن الخامس بعد مرور الجيوش العظمى من المخربين (دا كيز واتيلا) كان في اراضي المملكة فراغ كبير تعذر على الامبراطرة ان يسدوه . وبقي في غاليا واسبانيا وايطاليا وفي الغرب كله جزء من الاراضي بورا لقلة العاملين فيها واقفرت ولايات التخوم وقد اضمحل الشعب الروماني في جميع حوض الطونة من سويسرا الى البلقان منذ القرن السادس فلم يكن في تلك البلاد الا أمم جرمانية او سلافية . حتى ان الفرنك لم يجدوا في البلجيك غير قفر.

البرابرة في الجيش الروماني — هذه الاراضي الخالية تستدعي سكانا جددا وكان البرابرة يحاولون على الدوام ان يتخطوها وما دام للحكومة الرومانية بعض جيش لا يصعب عليها ان تردهم على اعقابهم . الا ان الامر في التجنيد صار الى الصعوبة كايجاد المال . وألف سكان الامبراطورية حياة السكون ولم يعودوا يرضون بخدمة الجندية . حتى اضطرت الحكومة ان تطلب جندا من كبار ارباب الاملاك فيأخذ هؤلاء بعض الطواريء الذين يعملون في اراضيهم فكان هؤلاء المساكين المأخوذين بالقوة من وراء محاريثهم جندا غير كفوء للقتال . وغدت الجنود منذ القرن الرابع من الضعف بحيث لا تستطيع حمل الدروع واستعاضت عن الخوذ بالقبعات

واصبح القواد يؤثرون ان يستعملوا المحاربين من البربر لانهم يقاتلون بشدة على الاقل وقد جندت الامبراطورية في خدمتها منذ زمن جنودا من الجرمانيين يتناولون جرايات ويقاتلون باسلحتهم وكان اكثرهم من الفرسان واخذ امبراطرة الرومان في القرن الرابع يجندون منهم عصابات برمتها ينزلون مع نسائهم واولادهم وخدمتهم في اراض يهبونهم اياها على سبيل الجراية . ويحتفظ هؤلاء المحاربون النازلون في ارض رومانية بلغتهم وعاداتهم

وبسلاحهم وزعمائهم ويدعون «المحالفين» وبلغ بالامبراطور انه اخذ يقبل منهم في جيشه شعوبا برمتها مثل الوزيغوت والبورغند وكانوا اجتازوا التخوم بالقوة احيانًا ثم آثروا ان يكونوا في خدمته على ان يقاتلوه · فأصبحت اذ ذاك جيوش رومانية مؤلفة من شعوب بربرية يقودها قائد بربري · ولقد كان الجيش الروماني الذي رد غارة اتيلا سنة ٤٥١ مؤلفًا من الوزيغوت والفرنك والبورغند وصار كثير من القواد الرومان منذ القرن الرابع (سيلفانوس واربوكاست او معظمهم في القرن الخامس (مثل ستيلكون وريسيمير واودواكر) من اصل بربري ولم تعد الامبراطورية الرومانية محمية الا بأناس من المحاربين من البرابرة فاحتلها بعد ابناء جنسهم

